

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية الدعوة و الاعلام بالرياض
الدراسات العليا
قسم الدعوة و الاحتساب

الحوار في دعوة موسى - عليه السلام - في ضوء الكتاب و السنة

اعداد الطالبة

أسماء بنت عبد العزيز الداود
المعيدة في قسم الدعوة و الاحتساب

إشراف الدكتور

عبد الله بن محمد الرشيد
الأستاذ المساعد بكلية الدعوة و الاعلام
قسم الدعوة و الاحتساب

الجزء الأول

العام الجامعي

١٤١٨ - ١٤١٩ هـ

شكر وتقدير

أشكر الله -عز وجل- على ما أولاني من جليل نعمائه، وعظيم آلائه، وأحمده -سبحانه- بما هو أهله وأستزيده من فضله وجوده وإحسانه .

ثم أتوجّه بالشكر بعد الله إلى كل من ساعدني في إتمام هذا البحث، وأخص بذلك والدتي الكريمة التي كانت -بفضل الله تعالى- حافزاً لي لإتمام هذه الرسالة فأمد الله في عمرها وأحسن جزاءها .

كما أتقدم بالشكر والتقدير إلى شيخي الفاضل د . عبدالله بن محمد الرّشيد المشرف على إعداد هذه الرسالة، لتكرمه بالإشراف عليها، فله مني جزيل الشكر، وصادق الدعاء بأن يجزيه الله عني خير الجزاء، لما شملني به من متابعة، وحسن توجيه .

ثم أتقدم بالشكر لهذه الجامعة المباركة - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - ممثلةً في كلية الدّعوة والإعلام بالرياض على إتاحتها الفرصة لي لمواصلة الدراسة، والشكر موصول لعميد مجلس هذه الكلية السابق فضيلة الدكتور زيد بن عبدالكريم الزيد وعميدها الحالي فضيلة الدكتور عبدالعزيز بن إبراهيم العسكر ورئيس قسم الدعوة والاحتساب د . أحمد بن محمد أبابطين ولجميع أعضاء القسم لما شملني به الجميع من رعاية وعناية .

كما أقدم شكري إلى زوجي الأستاذ: سليمان بن محمد الضويان الذي وقف معي في كل خطوة من خطوات هذا البحث فجزاه الله عني خير الجزاء .

كما لا يفوتني في هذا المقام أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من مد لي يد العون والمساعدة بالتوجيه والإرشاد، وتذليل الصعوبات، من مشايخي الفضلاء، وأفراد أسرتي الأوفياء فجزى الله الجميع عني خير الجزاء

هذا وأسأل الله التوفيق والسداد في القول والعمل، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾^(١)
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾^(٢).
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾^(٣).

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد الذي بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، حتى فتح الله به قلوباً غلفاً وأعينا عمياً وآذاناً صماً، وعلى آله وصحبه الذين تولوا أمانة البلاغ من بعده، أما بعد^(٤):

ففي هذه المقدمة سوف أذكر بعض الأمور المتعلقة بالموضوع مثل سبب اختياره وبيان منهج الدراسة وذكر الكتابات السابقة المتصلة بموضوعه وخطة البحث.

١- آل عمران: ١٠٢.

٢- النساء: ١.

٣- الأحزاب: ٧٠، ٧١.

٤- خطبة الحاجة كما سماها العلماء وأثبت الشيخ محمد ناصر الدين الألباني صحة بعض طرقها التي استقصاها في رسالة بعنوان: خطبة الحاجة انظر الرسالة المذكورة ص ١٣-١٤، الطبعة الرابعة ١٤٠٠ هـ الناشر: المكتب الإسلامي.

أولاً: سبب اختيار الموضوع:

فإذا كانت للداعية مجموعة من الوسائل والأساليب التي يسعى من خلالها إلى نشر دعوته بين الناس، فإن عليه أن يتذكر دائماً أن عمدة هذه الوسائل هي وسيلة القول الذي يتجلى في أسلوب الحوار، وبه يتمكن الداعية من عرض رسالته على الآخرين ابتداءً، أو الدفاع عنها حيال شبهة أو فرية كما أنه سبيله الأول في التعامل مع الآخرين من أمثاله خاصة إذا تباينت بينه وبينهم وجهات النظر في قضية أو أسلوب أو أولوية.

لذلك يمكن أن يقال إنه بالمقدار الذي يكون الداعية فيه متمكناً من فن الحوار محيطاً بجوانبه المختلفة يُرجى أن يكون أقدر على النجاح.

ولذا فقد زوّد الله أنبياءه ورسله بهذه المادة التي تساعدهم على النجاح كما جاء ذلك في القرآن الكريم.

فالقصة القرآنية بما فيها من حوار جمعت جل عناصر الدعوة ففيها المدعو إليه والوسائل والأساليب.

وفي قصة موسى -عليه السلام- يتجلى هذا الأمر من خلال حوار موسى -عليه السلام- مع فرعون وقومه.

فموسى -عليه السلام- يمثل أتمودج الشاب الداعية الصابر على كل ما مر به من ظروف اكتنفت حياته منذ ولادته وحتى وفاته ناهيك عما كان يلقاه من سخرية واستهزاء من طاغية عصره كما جاء في القرآن الكريم:

﴿قَالُوا إِنْ هَذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرْيِقَتِكُمُ الْمُثَلَى﴾^(١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ
أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأُظَنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ
وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ (١).

وكذلك ما كان يجده من تعنت وعناد من بني إسرائيل، وكثرة مطالبهم، الأمر الذي
يجعل الداعية يستفيد منه درساً في الصبر على المدعويين: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ
يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢).

ولكن موسى - عليه السلام - كان يعالج كل موقف بطرق دعوية متعددة منها الحوار
فقد كان يعمل ليل نهار وفي مختلف الظروف والأحوال لتكون كلمة الله هي العليا،
وليقتضي على تلك الأوضاع الظالمة، والعقائد الفاسدة، والتي كان يعتقدها الناس وعلى
رأسهم فرعون. يقول الله عز وجل: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ
تَزَكَّى وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ
فَنَادَى فِقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (٣).

فدعوة موسى عليه السلام استخدم فيها حواراً له خصائص معينة وصور شتى.

وعلى سبيل المثال: الحوار الذي دار بينه - عليه السلام - وبين فرعون، والذي جاء في
قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى قَالَ
فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَأَيُّضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ (٤).

وكذلك كيف قام موسى بمحاولة إنقاذ بني إسرائيل، وتربية العزة والكرامة في نفوسهم
بطريقة الحوار، وهذا أشق شيء على الداعية فموسى - عليه السلام - مرسل إلى قوم لهم

١- غافر: ٣٦-٣٧.

٢- البقرة: ٦٧.

٣- النازعات الآيات من: ١٧-٢٤.

٤- طه الآيات من: ٤٩-٥٢.

عقيدة قديمة انحرفوا عنها، وفسدت صورتها في قلوبهم فلا هي قلوب على الفطرة تتقبل العقيدة الجديدة ببراءة وسلامة، ولا هي باقية على عقيدتها القديمة.

ومعالجة مثل هذه القلوب مهمة شاقة وعسيرة والالتواءات فيها والرواسب تزيد المهمة مشقة وعسرا.

ومع هذا كله فقد قام موسى -عليه السلام- بالرسالة على الوجه الأكمل، فعالج قومه بأساليب منها أسلوب الحوار بالتذكير بالنعم حينما قال كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

وكذلك أسلوب الحوار في تنقية العقيدة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نؤمنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً...﴾ (٢).

إضافة إلى أسلوب الحوار التشريعي حينما دعاهم إلى دخول الأرض المقدسة كما جاء في القرآن الكريم: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (٣).

إضافة إلى العديد من صور الحوار التي استخدمها موسى -عليه السلام- مع فرعون ومع بني إسرائيل، والذي ما كان لأحد أن يجرهم ويردعهم عن غيهم إلا مثل موسى -عليه

١- المائدة: ٢٠.

٢- البقرة: ٥٤-٥٥.

٣- المائدة: ٢١-٢٢.

السلام- الذي أعده الله سبحانه وتعالى فامتاز بالصَّلابَة والقوة والصدق في مواجهة الانحراف والزيغ وقدرته، وإتقانه لفن الحوار والمحاورة.

ولعل ما قدمته يُبرزُ أهمية هذا الموضوع مما حدا بي لاختياره، وألحق بهذا السبب الأسباب التالية:

- رغبتني الماسة للعمل في الحقل الدعوي، ومعرفة صور الحوار الملائمة للدعوة لتحقيق الفائدة والحصانة الذاتية أولاً، ومحاولة التأثير على المدعوات في المجتمع النسائي ثانياً بأنجح الطرق.

- تقديم مؤلَّف يُمكن المسلم بوجه عام والداعية بوجه خاص من التعرف على صور الحوار الواردة في القرآن واستخداماتها في الوقت الحاضر.

- رغبتني في تقديم بحث يجمع بين الأصالة والمعاصرة بأسلوب علمي موثق بعيدٍ عن الأساليب الإنشائية.

- كما تجلّت رغبتني في كتابة هذا البحث عند عدم وجود بحث مستقل تحت هذا العنوان.

تلکم أبرز الأسباب لاختيار هذا البحث، فالله أسألُ الإعانة والتوفيق في كتابته ليكون عملاً مثمراً أتقرب من خلاله إلى المولى جلت قدرته.

ثانياً : منهج البحث :

سيكون المنهج المستخدم في هذه الدراسة - بإذن الله - هو المنهج الاستقرائي^(١) للخروج برأي علمي صحيح في كل مسألة تعرّض بحثي لها حيث إن الحكم على القضايا في كثير من الأحيان لا يؤخذ من نص واحد، ولكن باستقراء النصوص واستخراج الحكم منها .

كما أنني سأستخدم - بإذن الله - المنهج التاريخي^(٢) وذلك بتتبع سيرة موسى - عليه السلام - منذ الولادة إلى الوفاة مروراً بمرحلة الدعوة والتركيز على قضية الحوار وهي الأهم، ومحاولة توثيق كلامي بنصوص من الكتاب والسنة وآراء المفسرين، على أن كتب التفسير - كما هو معلوم - لم تخلُ من بعض المآخذ، التي كان ينبغي تجنبها في تفسير كتاب الله تعالى، مثل حشو الكثير من الأحاديث الاسرائيلية، والتأويلات البعيدة أحياناً، وتوجيه النصوص حسب المعتقدات والآراء، والإغراق في الناحية اللغوية . . ونحو ذلك .

على أن كل باحث، بل كل مسلم مدينٌ لهؤلاء المفسرين لما بذلوه من جهود، لا ينقص من قدرها، ولا يُغمط جانبها وقد نقلتُ من أقوال المفسرين أقربها إلى مدلول الآية، متحريةً في ذلك - جهدي - وجه الحق والصواب، تاركةً لكل مفسرٍ ما وقع فيه من الهفوات، وإن تفاوتت أخطاؤهم وهفواتهم، وغير مدعيةً لنفسي السلامة من الخطأ .

أما المنهج الذي سلكته في كتابة هذه الرسالة فيتلخص في الآتي :

١- حرصتُ -بتوفيق الله تعالى- على أن تكون دراستي لهذا الموضوع تأصيلية أرجع فيها إلى الأصولين العظيمين والمصدرين الرئيسيين في الإسلام وهما القرآن الكريم والسنة المطهرة .

٢- اقتصرت في الغالب على ذكر الشاهد من الآية أو الحديث دون ذكر النص كاملاً للاختصار عندما يردُّ مرةً أخرى .

١- المنهج الاستقرائي (هو الذي ينتقل فيه الذهن من حالات جزئية مستقرناً إليها ليصل إلى أحكام وقضايا كلية) انظر الإسلام والعلم التجريبي ص ١٦ تأليف د. /فاروق الدسوقي - الطبعة الأولى - ١٤٠٧هـ، الناشر: المكتب الإسلامي بيروت .

٢- المنهج الاستردادي أو التاريخي (وهو الذي نقوم فيه باسترداد الماضي تبعاً لما تركه من آثار أياً كان نوعها) انظر مناهج البحث العلمي - ص ٩٦ - تأليف د/عبدالرحمن بدوي - الطبعة الثانية - عام ١٩٧٧م، الناشر: وكالات المطبوعات الكويت .

٣- قد يتكرر الاستشهاد بالآية في مواضع متعددة من الرسالة وذلك للاستدلال بها في كل موضع حسب ما يقتضيه المقام، إما لكونها مشتملة على أمور متعددة، أو لكونها تحمل عدة معان.

٤- قمت بنقل أقوال المفسرين حول الآية والحديث حسب الحاجة.

٥- بذلت - ما وسعني الجهد - الاعتماد في نقل الأحاديث الشريفة من صحيح البخاري ومسلم - رحمهما الله تعالى -

٦- إذا لم أجد بغيتي في الصحيحين، فإني أنقل النص من كتب الحديث الأخرى مع ذكر حكم العلماء عليه إما من المتقدمين أو من المتأخرين.

٧- أوردت أقوال السلف من الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - وغيرهم في مواضع متعددة تدعو وفق الحاجة.

٨- ورأيت من تمام الفائدة أن أكتب ترجمة مختصرة لكل علم يراد في البحث ورجعت في ذلك إلى عدد من كتب التراجم، كما قمت بتعريف يسير للبلدان والأماكن التي ورد ذكرها في هذه الرسالة.

٩- حاولت - ما وسعني الجهد - أن يكون أسلوب البحث سهلاً بعيداً عن التعقيد، وما رأيت فيه غموضاً قمت بشرح يسير له في الهامش، كما قمت بضبط بعض الكلام الموهم في البحث.

١٠- كما قمت بتعريف يسير للمصادر والمراجع في الهامش عند ورودها لأول مرة.

١١- هناك مراجع لبعض المتأخرين رجعت إليها لمعالجتها لبعض القضايا المستجدة المعاصرة ولاشك في أن كثيراً من الكُتَّاب الإسلاميين المتأخرين كان لهم فضل لا ينكر في الدفاع عن الإسلام، والتصدي لمطاعن أعدائه، وشبهاتهم حول الإسلام والمسلمين.

١٢- كانت تعرض لي بعضُ الفوائد التي لها علاقة ببعض مباحث الرسالة فكنت أذكرها حسب الحاجة، وأحياناً كنت أكتفي بالإحالة إلى مكانها من الجزء والصفحة، لأن نقل مثل ذلك سيؤدي إلى مزيد من البَسْط في الرسالة فوق ما وصلت إليه الآن.

ثالثاً : الكتابات السابقة :

بعد فترة من البحث والتنقيب في المكتبات عما له علاقة بموضوع هذا البحث لم تعثر الباحثة على كتاب شامل تناول بالبحث الحوار في دعوة موسى -عليه السلام- في ضوء الكتاب والسنة، وإنما اقتصرت الكتابات السابقة على الحديث عن حياة موسى -عليه السلام- بشكل عام منذ ولادته إلى حين وفاته مروراً بمرحلة الدعوة دون التطرق لجانب الحوار في دعوته، ويتبين ذلك من خلال هذا العرض .

(أ) الكتابات السابقة :

١- قصص الأنبياء^(١) :

وفيه تعرض المؤلف لقصص جميع الأنبياء الواردة في القرآن الكريم، ثم تعرّض لدعوة موسى -عليه السلام- من ص ١٨٩-٣٥٩ وذكر تحت عناوين متعددة مقاطع تاريخ دعوة موسى -عليه السلام- من مولده، حتى مماته، ولم يُفرد للحوار ولا لصوره، ولا لبقية الفصول والمباحث التي ستأتي في تقسيم بحثي -إن شاء الله- عنواناً مباشراً، أو غير مباشر وكل ما جاء في كتاب الشيخ إنما هو سرّد تاريخي، وقد يُحلل بعض النقاط دون أن يعتمد إلى ما يتعلق بأسلوب الحوار وصوره .

أما وجه استفادتي فمعلوم من كونه مرجعاً ضمن مراجعي في هذا البحث -إن شاء الله-

٢- مع الأنبياء في القرآن الكريم^(٢) :

تعرض المؤلف لقصص الأنبياء في القرآن الكريم في قالبٍ تاريخي بحث، فهو على غرار ما كتبه صاحب كتاب قصص الأنبياء السابق، وجاءت قصة موسى -عليه السلام- من ص ٢١٩-٢٦٣، وتناولها بذات الخطة التي تناول بها قصص الأنبياء قبله وبعده -عليه

١- كتاب مطبوع لعبد الوهاب النجار -يرحمه الله- أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية أصول الدين سابقاً بجامعة الأزهر. الطبعة الأولى، الناشر: مكتبة دار التراث بالقاهرة.

٢- كتاب مطبوع لعقيف عبدالفتاح طبارة، الطبعة الثالثة عشر لعام ١٩٨٧م، الناشر دار العلم للملايين، بيروت.

السلام- فالسرد التاريخي هو البارز في هذا الكتاب .

أما وجه استفادتي من هذا الكتاب فهو مرجع لا غنى عنه ،أعود إليه كبقية المراجع .

٣- أدب الحوار والمناظرة^(١) :

هذا الكتاب جاء في أربعة أبواب :

الباب الأول : تكلم فيه عن فضل العلم والإخلاص، والجدال المحمود والمذموم، وتعريف المادة ونشأتها وتقسيم موضوعاتها .

الباب الثاني : القواعد الشكلية للمناظرة .

الباب الثالث : تكلم فيه عن القواعد الموضوعية .

الباب الرابع : تكلم عن نماذج من الحوار وأدرج في ص ١٣٧ مثلاً لحوار موسى -عليه

السلام- مع فرعون .

وواضح من عرضي لمحتويات هذا المؤلف أن وجه استفادتي -بإذن الله- ستكون في المبحث التمهيدي فقط .

(ب) الكتابات الجامعية :

١- منهج موسى -عليه السلام- في الدعوة كما يصوره القرآن الكريم^(٢) :

تحتوي الرسالة على تمهيد، وثلاثة أبواب :

الباب الأول : موسى -عليه السلام- من المولد إلى البعثة ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : ولادة موسى -عليه السلام- والظروف التي أحاطت بها .

الفصل الثاني : موسى -عليه السلام- في مدين وسبب خروجه إليها .

١- كتاب مطبوع للمستشار الدكتور على جريشة . الطبعة الأولى ، الناشر: دار ابن تيمية للطبع والنشر بالقاهرة .
٢- رسالة ماجستير مقدمة من الباحث بدر الدين بن عثمان شيخ الياس، كلية أصول الدين، قسم القرآن وعلومه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

- الباب الثاني : موسى -عليه السلام- والدعوة، وتحتة أربعة فصول .
- الفصل الأول : أسس الدعوة، وأساليبها، ووسائلها .
- الفصل الثاني : تكليم الله لموسى -عليه السلام-، وتكليفه بالدعوة .
- الفصل الثالث : جهاد موسى -عليه السلام- في سبيل الدعوة .
- الفصل الرابع : من مواقف فرعون مع موسى -عليه السلام- .
- الباب الثالث : أسلوب موسى -عليه السلام- في علاج مواقف بني اسرائيل، وتحتة ستة فصول :
- الفصل الأول : نَعَمْ اللهُ -سبحانه وتعالى- على بني إسرائيل .
- الفصل الثاني : عبادة بني إسرائيل للعجل .
- الفصل الثالث : الدين والدولة في اليهودية .
- الفصل الرابع : نتق الجبل فوق بني إسرائيل .
- الفصل الخامس : تكرار قصة موسى -عليه السلام- .
- الفصل السادس : فضائل موسى عليه السلام ونهايته .

من خلال عرض هذه الدراسة يتبين بأن الاستفادة من الموضوع لاتزيد عن استفادتي من الكتب التي تناولت قصة موسى -عليه السلام- من الناحية التاريخية، وفصول ومباحث دراستي إنما تخضع لمفاهيم دعوية تحت مسميات لم أجدتها في هذه الدراسة كما هو واضح من تقسيم هذه الدراسة ومن تقسيم بحثي .

٢- العبرة من قصة موسى في القرآن الكريم^(١) :

جاء هذا البحث في أربعة أبواب :

الباب الأول : العبرة ويشتمل على فصلين العبرة والعظة .

الباب الثاني : نماذج ممن كتبوا في القصة .

١- رسالة ماجستير مقدمة من الباحث : محمد منير عدوي في كلية الشريعة بجامعة أم القرى عام ١٤٠٠هـ .

الباب الثالث : مدخلٌ إلى قصة موسى عليه السلام ويشتمل على فصلين :
الفصل الأول : تعريفات خاصة .

الفصل الثاني : مرحلة ما قبل موسى - عليه السلام - .

الباب الرابع : قصة موسى في القرآن الكريم وتشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : من الميلاد حتى العودة إلى مدين .

الفصل الثاني : من الإرسال حتى الإغراق .

الفصل الثالث : في سيناء من الدخول حتى التيه .

وعند النظر في هذه الدراسة تبين أن الاستفادة ستكون من خلال ما كتب الباحث حول حديثه عن المطلب الأول في المبحث الثالث عن أنواع الحوار وأساليبه بشكل عام والذي أدرجه في الفصل الثاني من الباب الأول، وبناءً عليه سيكون بحثي مكتملاً لهذا المطلب والذي جاء بشكل مختصر في خمس صفحات من ٣٨-٤٢ فقط والجديد في بحثي إذاً هو التركيز -إن شاء الله- على حوار موسى -عليه السلام- في القرآن مع فرعون وبني إسرائيل بخلاف ما قصده تلك الرسالة من إيضاح العبرة من إيراد قصة موسى في القرآن الكريم .

٣- الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة^(١) :

جاءت هذه الدراسة في تمهيد وخمسة أبواب وخاتمة :

الباب الأول : مدخل إلى الحوار .

الباب الثاني : آداب الحوار النفسية .

الباب الثالث : آداب الحوار العلمية .

الباب الرابع : آداب الحوار اللفظية .

الباب الخامس : آداب ومباحث عامة تتعلق بالحوار .

١- رسالة ماجستير للباحث يحيى بن محمد حسن بن أحمد زمزمي في قسم الكتاب والسنة بكلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، نوقشت عام ١٤١٣هـ .

وواضح من التقسيم أن علاقته ببحثي تكمن في استفادتي منه كاستفادتي من المعاجم والقواميس التي سأعود إليها -إن شاء الله- عند تحديد مرادي من الحوار في دعوة موسى عليه السلام. أما بقية فصول بحثي، ومباحثه فالجهة منفكة بينها وبين تلك الدراسة.

ومن خلال هذا الاستعراض السريع للكتابات السابقة نجد أنها قد تناولت دعوة موسى عليه السلام - بطريقة السرد التاريخي لحياته ودعوته - مع تحليل لبعض النقاط المتعلقة بها دون أن تتعرض إلى ما يتعلق بأسلوب الحوار وصوره كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية مع فرعون وبني إسرائيل، وهو ما أرغب البحث فيه.

فوجه استفادتي من هذه الدراسات لا تزيد على كونها بمثابة المرجع لي أحياناً.

نتائج الكتابات السابقة:

وبعد ما ذكر من كتابات تبين لي بأنها لا تطابق فصول بحثي ومباحثه بشكل مباشر أو غير مباشر، وأنها تعطي الباحثة -إن شاء الله- زاداً لتلك الفصول والمباحث ويأتي بحثي بالجديد حول صور الحوار وموضوعاته في دعوة موسى - عليه السلام - وتأثيره على المدعو.

رابعاً: تساؤلات البحث :

تهدف هذه الدراسة إلى الإجابة عن الأسئلة التالية ذات العلاقة بموضوع البحث :

- ١- ما أهداف حوار موسى عليه السلام؟
- ٢- ما خصائص حوار موسى عليه السلام؟
- ٣- كيف استخدم موسى -عليه السلام- أسلوب الحوار لإثبات ما يتعلق بالعتيدة؟
- ٤- كيف استخدم موسى -عليه السلام- أسلوب الحوار لإثبات ما يتعلق بالأحكام والأخلاق؟
- ٥- كيف استخدم موسى عليه السلام أسلوب الحوار مع أصحاب السلطة؟
- ٦- كيف استخدم موسى عليه السلام أسلوب الحوار مع عامة الناس؟
- ٧- ما موانع الاستفادة من حوار موسى عليه السلام؟
- ٨- ما سبب التغلب على موانع الاستفادة من حوار موسى عليه السلام؟
- ٩- ما الفوائد التي تعود على الداعية من جراء دراستنا لحوار موسى -عليه السلام- في القرآن الكريم والسنة؟
- ١٠- ما الفوائد التي تعود على المدعو من دراسته لحوار موسى -عليه السلام- في القرآن الكريم والسنة؟

المخطط العام للرسالة :

المبحث التمهيدي :

المطلب الأول : تعريف الحوار وأهميته وأنواعه .

المطلب الثاني : حياة موسى عليه السلام .

الفصل الأول : أهداف الحوار في دعوة موسى -عليه السلام- وخصائصه :

المبحث الأول : أهداف الحوار في دعوة موسى عليه السلام .

المبحث الثاني : خصائص الحوار في دعوة موسى عليه السلام .

الفصل الثاني : موضوعات الحوار في دعوة موسى عليه السلام :

المبحث الأول: الحوار في دعوة موسى -عليه السلام- لإثبات ما يتعلق بالعبادة .
المبحث الثاني: الحوار في دعوة موسى -عليه السلام- لإثبات ما يتعلق بالأحكام والأخلاق .

الفصل الثالث: الحوار في دعوة موسى -عليه السلام- مع المدعوين :
المبحث الأول: الحوار في دعوة موسى -عليه السلام- مع أصحاب السُّلطة .
المبحث الثاني: الحوار في دعوة موسى -عليه السلام- مع عامة الناس .
الفصل الرابع: موانع الاستفادة من الحوار في دعوة موسى -عليه السلام- وسُبُل التغلب عليها :
المبحث الأول: موانع الاستفادة من الحوار في دعوة موسى -عليه السلام- .
المبحث الثاني: سُبُل التغلب على موانع الاستفادة من الحوار في دعوة موسى -عليه السلام- .

الفصل الخامس: أوجه الاستفادة من الحوار في دعوة موسى -عليه السلام- في الوقت الحاضر :
المبحث الأول: فوائد تعود على الداعية .
المبحث الثاني: فوائد تعود على المدعو .
الخاتمة : وتتضمن النتائج والتوصيات .

المراجع .

الفهارس .

وأخيراً: فإنني لا أدعي -في بحثي- العصمة والكمال فالبشر محل النقصان -إلا من عصم الله- والخطأ والنسيان من لوازم الإنسان^(١)، فما كان من صواب فبتوفيق الكريم المنان، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان والله المستعان، وعليه وحده التكلاان وهو حسبنا ونعم الوكيل .

أسأل الله أن يوفقنا جميعاً للسداد، وأن يثبتنا على الصواب والرشاد، والحمد لله رب

العباد .

١- هاتان العبارتان مقتبسستان من مقدمة الكرمانى فى شرحه للبخارى ٦/١ بتصرف يسير .

المبحث التمهيدي

ويحتوي على مطلبين:

المطلب الأول: تعريف الحوار وأهميته وأنواعه.

المطلب الثاني: حياة موسى عليه السلام.

المطلب الأول: تعريف الحوار وأهميته وأنواعه:

أولاً: تعريف الحوار:

الحوار: أصله من الحَوْر وهو الرجوع عن الشيء وإلى الشيء.

قال الشاعر:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع^(١)

والمحاورة: مراجعة النطق والكلام في المخاطبة.

وهم يتحاورون: أي يتراجعون الكلام. واستحار الدار - استنطقها من الحوار الذي هو

الرجوع^(٢)، قلت ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾^(٣).

وقال في الصحاح: إحار يحور حوراً وحوراً: رجع.

يقال: حار بعد ما كار، والمحار: المرجع.

والمحاورة: المجاورة، والتحاور: التجاوب.

يقال: كلمته فما أحرار إليّ جواباً، وما رجع إليّ حويراً ولا حويرة ولا محورة ولا

حواراً، أي: ما ردّ جواباً.

واستحاره: أي استنطقه^(٤).

وأحار عليه جوابه: ردّه وأحرت له جواباً، وما أحرار بكلمة والاسم من المحاورة: الحویر،

تقول: سمع حویرهما وحوارهما^(٥). ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ

فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(٦)

١- شرح ديوان لبيد بن أبي ربيعة ص ٨١ قدم له وشرحه إبراهيم جزيني الناشر: مكتبة النهضة ببغداد.

٢- لسان العرب ٥/ ٢٩٦-٢٩٨. فصل الحاء حرف الراء تأليف جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري طبعة مصورة عن طبعة بولاق. الناشر: الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٣- الانشقاق: ١٤.

٤- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ٢/ ٦٣٨-٦٤٠ تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ. طبع على نفقة حسن عباس الشربتلي.

٥- لسان العرب ٥/ ٢٩٧ فصل الحاء حرف الراء.

٦- المجادلة: ١.

وفي حديث علي^(١): «يرجع إليكما أبناكما بحور ما بعثتما به»^(٢)، أي: بجواب ذلك .
وأصل الحور: الرجوع إلى النقص، ومنه حديث عبادة بن الصامت^(٣) - رضي الله عنه :
يوشك أن يرى الرجل من ثبج المسلمين يعني من وسط قراء القرآن على لسان محمد ﷺ
فأعاده وأبداه وأحلّ حلاله، وحرّم حرامه، ونزل عنه منازل أو قرأه على لسان أخيه قراءة على
لسان محمد ﷺ فأعاده وأبداه، وأحلّ حلاله وحرّم حرامه، ونزل من منازل، لا يحور فيكم
إلا كما يحور برأس الحمار الميت^(٤)، أي: لا يرجع فيكم بخير، ولا ينتفع من القرآن كما لا
ينتفع بالحمار الميت صاحبه .

وقال في القاموس المحيط: المحاورَةُ والمحورة: الجواب كالحوير والحوار والمحورة من المحاورة
مصدرٌ كالمشورة من المشاورة .

وما جاءني عنه محورة: أي ما رجع إليّ عنه خبر، وإنه لضعيف الحور أي المحاورة .
ومنه قول الشاعر:

وأصفر مضبوح نظرت حواره على النار واستودعته كفّ مجمد^(٥)

والخيرة والحوية مراجعة النطق، وتحاوروا: تراجعوا الكلام بينهم، والتحاور: التجاوب^(٦) .

١- هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ، يكنى بأبي الحسن، أسلم وهو ابن سبع سنين وقيل تسع، تزوج
بفاطمة بنت رسول الله ﷺ ولي الخلافة بعد عثمان رضي الله عنهما، ذكرت أحاديث كثيرة في فضله وفي محبة الله له ومحبة رسول
الله ﷺ . قال العلماء في السير: ضربه عبدالرحمن بن ملجم بالكوفة سنة ٤٠ هـ وله ثلاث وستون سنة وقيل ثمان وخمسون سنة .
(انظر صفة الصفوة ١/١٦٢ للإمام أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي ضبطها: إبراهيم رمضان، سعيد اللحام، الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، وانظر الطبقات الكبرى ٢/١٠١ تأليف محمد بن سعد كاتب الواقدي بدون طبعة،
الناشر: دار التحرير للطبع والنشر).

٢- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الزكاة باب استعمال آل النبي على الصدقة، ٢/٧٥٤، رقم ١٠٧٢ .

٣- عبادة بن الصامت بن قيس بن الخزرج، أحد النقباء ليلة العقبة، ومن أعيان البدرين، سكن بيت المقدس وشهد المشاهد كلها مع
رسول الله ﷺ أرسله عمر إلى الشام يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين توفي سنة أربع وثلاثين ببيت المقدس وهو ابن اثنتين وسبعين
(انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣/١٥٨-١٦٠ رقم ٢٧٦١ تأليف عز الدين ابن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري تحقيق
وتعليق الشيخ علي محمد معوض، الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت،
وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ٣/٥٠٥-٥٠٧ رقم ٤٥١٥ للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني دراسة وتحقيق: الشيخ
عادل أحمد عبدالموجود، الشيخ علي محمد معوض الطبعة الأولى ١٥١٤ هـ، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، وانظر سير
أعلام النبلاء ٢/٥-١١ تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الطبعة التاسعة ١٤١٣ هـ الناشر: مؤسسة
الرسالة).

٤- أخرجه الإمام أحمد في مسند شداد بن أوس ٤/١٢٥ - ١٢٦، والحديث انفرد به الإمام أحمد عن بقية التسعة وهو موقوف من
كلام عبادة - رضي الله عنه - وفي مسنده شهر بن حوشب وهو ضعيف وعبد الحميد بن بهرام ثقة قال عنه أبو حاتم: ليس به بأس .

٥- ديوان طرفة بن العبد ص ٥٦ تحقيق فوزي عطوي الناشر: دار صعب ١٩٨٠ م .

٦- القاموس المحيط ٢/١٦ فصل الحاء باب الراء تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الطبعة الثانية ١٣٧١ هـ الناشر:
شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

إذاً: فالحوار هو تراجع الكلام والتجاوب فيه بالمخاطبة والرد.

وقد ورد الحوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع فقط وهي:

١- قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾^(١).

٢- وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾^(٢).

٣- وقوله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(٣).

ومما يظهر من هذه النصوص الثلاثة أن معنى الحوار فيها هو: مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين، والأخذ والرد فيه.

حيث فسر الطبري^(٤) - رحمه الله - قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ في الآيتين بقوله: وهو يخاطبه ويكلمه^(٥).

وفسر الزمخشري^(٦) - رحمه الله - قوله: ﴿يُحَاوِرُهُ﴾ أي يراجعه الكلام من حار يحور إذا رجع وسألته فما أحرار كلمة^(٧).

١- الكهف: ٣٤.

٢- الكهف: ٣٧.

٣- المجادلة: ١.

٤- هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الإمام اعلم المجتهد، عالم العصر ولد سنة ٢٢٤هـ وكان رأساً في التفسير وإماماً في الفقه والاجماع والاختلاف، علامة في التاريخ وإمام الناس، عارفاً بالقراءات واللغة وغير ذلك كان يعد جبل الحفظ وإمام الدنيا في فقه الحديث توفي يرحمه الله سنة عشر وثلاث مئة (انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٤/ ٦٩١ لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان حققه د. إحسان عباس الناشر: دار الثقافة بيروت، لبنان، وانظر سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٦-٢٨٢).

٥- جامع البيان في تفسير القرآن ١٥/ ١٦٢ - ٢٤٧ لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ١٤٠٧هـ.

٦- الزمخشري: هو أبو القاسم محمود بن عمرو بن محمد الخوارزمي النحوي اللغوي المفسر المعتزلي صاحب الكشاف والمفصل ولد سنة سبع وستين وأربعمائة وصنف عدة تصانيف وسقطت رجله فكان يمشي في جاون خشب وكان داعية إلى الاعتزال. كان إمام عصره في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان من غير مدافع تشد إليه الرجال في فنونه توفي ليلة عرفة بجرجانية سنة ٥٣٨ عاش إحدى وسبعين سنة (انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٤/ ١١٨-١٢١ لأبي الفلاح عبدالحق بن العماد الحنبلي، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ الناشر: دار المسيرة، بيروت).

٧- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٢/ ٤٨٤، تأليف: أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي. الناشر: دار المعرفة

وكذلك فسر الطبري - رحمه الله - قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾^(١) فقال: إن الله سميع لما يتجاوبانه ويتحاورانه^(٢).

وقال الزمخشري - رحمه الله - في قوله: ﴿ تَجَادُلُكَ ﴾ وقرئ تحاورك: أي تراجعك الكلام، وتجادلك: أي تسائلك^(٣).

فنتبين من ذلك أن الحوار في القرآن أُطلق على التراجع في الكلام، وتداوله بين طرفين والمخاطبة والمجاوبة فيه.

أما إطلاقه في السنة، فقد جاء في عدة أحاديث منها.

حديث أبي ذر^(٤) - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «... وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكَفْرِ أَوْ قَالَ: عَدُوَّ اللَّهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ»^(٥) بمعنى إلا رجع عليه قوله.

وفي صحيح مسلم^(٦) أيضاً^(٧) عن عبد الله بن سرجس - رضي الله عنه - أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر يتعوذُ بالله من وعشاء السفر وكآبة المنقلب، والحور بعد الكون، ودعوة المظلوم وسوء المنظر في الأهل والمال^(٨).

١- المجادلة: ١.

٢- جامع البيان في تفسير القرآن ٦/٢٨.

٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٤/٦٩.

٤- هو جندب بن جنادة الغفاري بن سفيان بن عبيد بن حرام بن غفار بن قليل بن صخرة وقيل جندب بن سكن أحد السابقين الأولين ومن نجباء الصحابة، قيل إنه خامس خمسة في الإسلام وكان يفتي في خلافة أبي بكر توفي رضي الله عنه سنة اثنتين وثلاثين، (انظر الطبقات الكبرى ٢/١١٢ وانظر سير أعلام النبلاء ٢/٤٦-٧٤).

٥- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم، ١/٧٩-٨٠، برقم ٦١.

٦- هو الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري كنيته أبو الحسين حافظ من أئمة المحدثين ولد بنيسابور سنة أربع ومائتين ورحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق لطلب العلم أشهر كتبه (صحيح مسلم) وهو أحد الصحيحين المعول عليهما عند أهل السنة والحديث توفي رحمه الله وعمره أقل من ثلاثين سنة. (انظر تهذيب التهذيب ٤/٦٧ لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر بن شهاب الدين العسقلاني اعتناء: إبراهيم الزبيق، عادل مرشد. الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ الناشر: مؤسسة الرسالة، وانظر سير أعلام النبلاء ١٢/٥٥٧، ٥٥٨).

٧- هو عبد الله بن سرجس المزني، حليف بني مخزوم أكل مع النبي ﷺ واستغفر له، عداؤه في البصريين، له أحاديث عدة عند مسلم وغيره. (انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ٤/٩٢-٩٣ ترجمة رقم ٤٧٢٣ وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ٣/٢٥٧ ترجمة رقم ٢٩٧١).

٨- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الحج باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره ٢/٩٧٨-٩٧٩ رقم ١٣٤٣، ومن حديث عبد الله بن سرجس به إلا قوله الكور فهو عنده الكون (بالتون) وقال المعلق محمد فؤاد عبد الباقي (هكذا هو في معظم النسخ من صحيح مسلم).

ومعنى الحَوْر بعد الكون في الحديث: أي الرجوع من الإيمان إلى الكفر ومن الطاعة إلى المعصية.

وفي البخاري^(١) كانت بين أبي بكر^(٢) وعمر^(٣) رضي الله عنهما محاوراة... الحديث^(٤). وغير ذلك مما ورد فيه مادة حور.

ويظهر في جميع تلك المواضع أن أصل مادة (حور) تطلق على الرجوع ومنه الحوار والمحاوراة بمعنى مراجعة الكلام وتداوله، كما تقدم في المعنى اللغوي.

إذاً يتلخص لدينا مما سبق: أن الحوار في اللغة: هو الرجوع والمجاوبة.

وفي الاصطلاح: مراجعة الكلام وتداوله بين شخصين.

وعرفه بعضهم بأنه: نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب، وهو ضرب من الأدب الرفيع، وأسلوب من أساليبه^(٥).

أما المجادلة: فأصل الاشتقاق من الجدل وهو شدة الفتل، ومنه قيل لزمناقة جدليل.

١- هو أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم البخاري صاحب الصحيح. ولد سنة ١٩٤ هـ وطلب العلم وهو صغير وتنقل بين الأمصار لطلبه. قال الإمام أحمد بن حنبل: ما أخرجت خراسان مثل محمد بن اسماعيل، توفي رحمه الله سنة ٢٥٦ هـ وله ٦٢ سنة. (انظر تهذيب التهذيب ٣/ ٥٠٨ وانظر سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٩١-٤٧١).

٢- هو عبدالله بن عثمان بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي سمي بالصديق لصدقه، وهو أول من آمن من الرجال، شهد جميع المشاهد مع رسول الله ﷺ وولي الخلافة بعده، وهو أول من جمع القرآن، أسلم على يديه خمسة من العشرة حارب المرتدين وتوفي يرحمه الله سنة ثلاث عشرة من الهجرة (انظر صفة الصفوة ١/ ١٢٣، وانظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٣/ ٦٤-٧١ ترجمة رقم ٣٣٩).

٣- عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزيز بن رباح بن عبدالله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي. قال أهل السير: أسلم عمر وهو ابن ست وعشرين سنة بعد أربعين رجلاً وعشر نساء، وافقه القرآن في عدة مواضع، وهو محدث هذه الأمة ووردت عدة أحاديث في فضله رضي الله عنه، تولى الخلافة بعد أبي بكر، طعن وهو يصلي ومات سنة ثلاث وعشرين وهو ابن ثلاث وستين سنة. (انظر صفة الصفوة ١/ ٣٩ - انظر الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٤٨٤-٤٨٦ رقم [٥٧٥٢]).

٤- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب تفسير سورة الأعراف باب (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً... الآية) ٦/ ١٩٧.

٥- مناهج المجدل في القرآن الكريم ص ٣٠ تأليف د. زاهر بن عواض الألمعي ١٤٠٤ هـ الناشر: مطابع الفرزدق التجارية.

قال امرؤ القيس (١):

وكشع (٢) لطيف كالجديل مخصرٍ وساقٍ كأنبوب السقي المذل (٣).

يقال: جدل الشيء يجده جَدلاً: أحكم فتله.

والجدل: هو اللدد في الخصومة والقدرة عليها، وقد جادله مجادلة وجدالاً، ورجل جدل ومجدل ومجدال: شديد الجدل، يقال: جادلت الرجل فجدلته جدلاً: أي غلبته ورجلٌ جدلٌ إذا كان أقوى في الخصام، وجادله أي خاصمه مجادلة وجدالاً، والاسم: (الجدل) وهو شدة الخصومة (٤).

والجدل معناه الصرعُ على الجدالة وهي الأرض سميت بذلك لشدتها (٥).

وفي الحديث عن العرياض بن سارية السلمية (٦) -رضي الله عنه- قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني عبد الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم (٧) لمنجدل في طينته» (٨). أي ملقى على الجدالة وهي الأرض (٩).

١- هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، أشهر شعراء العرب، ولد بنجد سنة ١٣٠ قبل الهجرة ويسمى الملك الضليل، قال الشعر منذ صغره وكان يدين بالمزدكية وهي ديانة فارسية مات سنة ٨٠ قبل الهجرة (انظر الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والمستشرقين والمستعمرين والنساء من العرب) ١/ ٣٥١-٣٥٢ تأليف: خير الدين الزركلي. الطبعة الثالثة، الناشر: وزارة المعارف (المكتبات المدرسية).

٢- الكشعُ: ما بين الخاصرة إلى الضلع - وهو من لدن السرة إلى المتن (انظر لسان العرب ٣/ ٤٠٧ فصل الكاف حرف الحاء).

٣- ديوان امرؤ القيس ص ١٧ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الرابعة، الناشر: دار المعارف.

٤- لسان العرب ٨٠١/ ٣١-٩٠١، فصل الجيم حرف اللام.

٥- القاموس المحيط ٦٥٣/ ٣، فصل الجيم باب اللام.

٦- هو أبو نجيح عرياض بن سارية السلمية، صحابي مشهور من أهل الصفه سكن الشام وتوفي رحمه الله سنة خمس وسبعين وقيل، توفي في فتنة ابن الزبير (انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ٤/ ١٩ ترجمة رقم ٣٦٣٠، وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٣٩٨-٣٩٩ ترجمة رقم ٥٥١٧).

٧- إنما سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض انظر تاريخ الرسل والملوك ص ٩١ لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الثالثة، الناشر: دار المعارف).

٨- أخرجه الإمام أحمد في مسند عرياض بن سارية ٤/ ١٢٨، ورواه الحاكم في المستدرک ٢/ ٨١٤ كتاب التفسير ورواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٨٩-٩٠) ترجمة أبي بكر الغساني. أما أبو نعيم فيلفظ أحمد. وأما لفظ الحاكم... وأبي منجدل بدل آدم وزاد في آخره ثم تلا: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً...﴾ الآية ولم يرد عنده ذكر الشام، وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

قال الألباني: (وفيه سعيد بن سويد مدلس وأبو بكر بن أبي مريم مختلط) وقد أورده الألباني في الضعيفة برقم ٢٠٥٨ وصححه لشواهد في السنة ١/ ١٧٩ برقم ٤٠٩ وقال حديث صحيح وإسناده ضعيف.

٩- النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٢٤٧ تأليف الإمام مجد الدين ابن الأثير الجزري. تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود أحمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية بيروت.

وخلاصة المعنى اللغوي للجدل أنه: اللدد في الخصومة والقدرة عليها وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام، فالجيم والبدال واللام أصل واحد، وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه امتداد الخصومة ومراجعة الكلام^(١).

والجدل اصطلاحاً: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم.

قال ابن سينا^(٢): (أما المجادلة فهي مخالفة تبغي إلزام الخصم بطريق مقبول محمود بين الجمهور)^(٣).

وقال الفيومي^(٤) بعد أن ذكر المعنى اللغوي للجدل: (ثم آستعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها وهو محمود إن كان للوقوف على الحق وإلا فمذموم)^(٥).

وقال الجرجاني^(٦) -رحمه الله-: (الجدل عبارة عن مرأء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها)^(٧).

١- معجم المقاييس في اللغة ص ٢٠٥ كتاب الجيم باب الجيم والبدال وما يثلثهما تأليف: أبي الحسن أحمد بن فارس تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر.

٢- هو أبو علي الحسين بن عبدالله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي ثم البخاري صاحب التصانيف في الطب والفلسفة والمنطق. وُلد سنة سبعين وثلاثمائة حفظ القرآن وعمره عشر سنوات وكان يختلف إلى الفقه ويناظر وله ست عشرة سنة له مصنفات كثيرة منها كتاب (القانون) (الإنصاف) وله كتاب «الشفاء» وغيره، وقد كُفره الغزالي في كتاب «المنقذ من الضلال» توفي يرحمه الله سنة ثمان وعشرين وأربعمائة بهمدان ودفن بها - (انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ١٥٧/٢-١٥٨ وانظر سير أعلام النبلاء ١٧/١٧-٥٣١/٥٣٦).

٣- الشفاء: كتاب الجدل ١/٢٣.

٤- هو أبو العباس أحمد بن محمد الفيومي، الحموي فقيه لغوي، نشأ بالفيوم وكان رجلاً فاضلاً جمع العربية عن أبي حيان ثم ارتحل إلى حماة فقطنها من مصنفاته. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير توفي يرحمه الله سنة ٧٧٠هـ (انظر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١/٣٣٤ لابن حجر العسقلاني، حققه وقدم له: محمد سيد جاد الحق الناشر: دار الكتب الحديثة بمصر).

٥- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ١/١١٤ كتاب الجيم باب الجيم مع الدال وما يثلثهما للعلامة: أحمد بن محمد المقرئ الفيومي. الطبعة الثانية ١٣٢٤هـ - الناشر: وزارة المعارف المصرية.

٦- هو علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني ولد سنة ٧٤٠هـ. اشتغل ببلاده وقرأ المفتاح على شارحه. تنقل بين مصر وبلاذ الروم ثم لحق ببلاذ العجم وصار إماماً في جميع العلوم العقلية وغيرها - طار صيته في الآفاق وانتفع الناس بمصنفاته في جميع البلاد. تصدى للأقراء والإفتاء وأخذ عنه علماء العجم والروم وبالغوا في تعظيمه. (انظر البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ١/٤٤٨-٤٨٩ للعلامة محمد بن علي الشوكاني الناشر: دار المعرفة، بيروت).

٧- التعريفات ص ١١ تأليف علي بن محمد بن علي الجرجاني حققه: إبراهيم الإبياري الطبعة الثانية ١٤١٣هـ دار الكتاب العربي.

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي^(١) - رحمه الله - في تعريف المجادلة: (وهي في اصطلاحهم - أي المناطقة - : المنازعة لا لإظهار الحق بل لإلزام الخصم)^(٢).

لذا فقد ورد لفظ الجدل في القرآن تسعاً وعشرين مرة، كلها في سياق الذم إلا في ثلاثة مواضع:

أحدها في سورة النحل: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾^(٣).

ثانيها في سورة العنكبوت: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾^(٤).

ثالثها في سورة المجادلة: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾^(٥).

أما في السنة فقد بوّب الأئمة - رحمهم الله - في كتبهم ما يدل على كراهية الجدل، إذ إن الأصل فيه الخصومة والشدة، فمن ذلك:

ما بوب به الإمام ابن ماجه^(٦) - رحمه الله - في مقدمة السنة قال: (باب اجتناب البدع والجدل)^(٧)

١- هو محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، ولد بشنقيط سنة ١٣٢٥هـ وحفظ القرآن وهو في سن العاشرة، برع في التفسير والفقه واللغة والمنطق، انتقل إلى المدينة ودرس بالرياض - قال عنه الشيخ محمد بن إبراهيم، ملئ علماً من رأسه إلى أخمص قدميه. من مؤلفاته: أضواء الميان في تفسير القرآن بالقرآن، آداب البحث والمناظرة توفي رحمه الله سنة ١٣٩٣هـ. (انظر مقدمة كتاب أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الجزء الأول بقلم تلميذه محمد عطيه سالم وانظر ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ص ٢٢٣ جمعها وصنفها عبدالرحمن بن عبد الله السديس، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، الناشر: دار الهجرة للنشر والتوزيع - الرياض) ..

٢- آداب البحث والمناظرة ٢ / ٧٥ تأليف: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، الناشر: دار ابن تيمية للطباعة والنشر - القاهرة).

٣- النحل: ١٢٥.

٤- العنكبوت: ٤٦.

٥- المجادلة: ١.

٦- هو محمد بن يزيد الحافظ الكبير الحجة المفسر، أبو عبدالله بن ماجه القزويني مصنف « السنة » و« التفسير » ولد سنة ٢٠٩هـ. قال الذهبي: كان حافظاً صادقاً، واسع العلم، توفي يرحمه الله في رمضان سنة ٢٧٣هـ. (انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٤ / ٢٧٩ سير أعلام النبلاء ١٣ / ٢٧٧-٢٨١).

٧- سنن ابن ماجه في المقدمة باب اجتناب البدع والجدل ١ / ١٨-١٩، رقم ٤٨٤٧.

وذكر فيه حديث عائشة^(١) - رضي الله عنها - قالت: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَوْلُو الْأَلْبَابِ﴾^(٢) فقال: يا عائشة: إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عناهم الله فاحذروهم^(٣) وذكر حديث: «ما ضلَّ قوم بعد هدى إلا أوتوا الجدل^(٤)»، ثم تلا هذه الآية: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾^(٥).

وكذا بوب الإمام أبو داود^(٦) - رحمه الله - في سنته في كتاب السنة قال: باب النهي عن الجدل في القرآن وذكر فيه قول أبي هريرة^(٧) - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: (المراء في القرآن كفر)^(٨).

فهذه الأحاديث تدل على معنى الجدل بالباطل واللدن في الخصومة.

وقد وردت نصوص أخرى أُطلقت فيها المجادلة على المحاوره ونحوها فمن ذلك:

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ

١- هي عائشة أم المؤمنين بنت الإمام الصديق أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عمرو بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشية التيممية زوجة النبي ﷺ وأفقته نساء الأمة على الإطلاق أمها هي أم رومان دخل بها النبي ﷺ في شوال سنة اثنتين وهي ابنة تسع، روت عنه علماً كثيراً (انظر الطبقات الكبرى ٨/ ٣٩-٥٦ وانظر سير أعلام النبلاء ٢/ ١٣٥-١٣٩).

٢- آل عمران: ٧.

٣- أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٤٨، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة باب اجتناب البدع والجدل ١/ ١٨-١٩ رقم ٤٧ وصححه الألباني في سنن ابن ماجه ١/ ١٤-١٥ رقم ٤٤.

٤- أخرجه الإمام أحمد ٥/ ٢٥٢، ٢٥٦ وأخرجه ابن ماجه في المقدمة ١/ ١٩ رقم ٤٨ وأخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة الزخرف ٥/ ٥٥-٥٦ وقال حسن صحيح.

٥- الزخرف: ٥٨.

٦- أبو داود هو سليمان بن الأشعث بن شداد بن عمرو بن عامر السجستاني الحافظ ولد سنة ٢٠٢ كان أحد حفاظ الإسلام للحديث وعلمه وغلله وسنده في أعلى درجة مع النسك والعتاف والصلاح والورع توفي لأربع عشرة بقين من شوال سنة خمس وسبعين ومئتين (انظر تهذيب التهذيب ٢/ ٨٣-٨٥).

٧- هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني الإمام الفقيه الحافظ صاحب رسول الله ﷺ، سمي بأبي هريرة لهرة كان يحملها في كفه، حدث عنه خلق كثير من الصحابة توفي يرحمه الله سنة سبع وخمسين (انظر الطبقات الكبرى ٤/ ٥٢-٦٣ وانظر سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٧٨-٦٢٦).

٨- أخرجه أبو داود في كتاب السنة باب النهي عن الجدل في القرآن ٤/ ١٩٩ رقم ٤٦٠٣ ورواه الحاكم في كتاب التفسير ٢/ ٢٢٣ من حديث أبي هريرة بلفظين:

بلفظ مراء في القرآن، ولفظ الجدل وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي في مشكاه المصابيح ١/ ٧٩ رقم ٢٣٦ وذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٣١ بلفظ ثان وعزاه إلى الحاكم وقال تورع في تصحيحه ورواه أبو نعيم في الحلية ٥/ ١٩٢ من حديث أبي هريرة وقال غريب من حديث مكحول. وقال الألباني إسناده حسن.

يَسْمَعُ تَحَاوُرُكُمْ»^(١)، فأطلق الجدال والحوار على شيء واحد، وهو مراجعة الكلام بين النبي ﷺ وخولة بنت ثعلبة^(٢) رضي الله عنها.

ومثله حديث أبي سعيد الخدري^(٣) - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «ما مجادلة أحدكم في الحق يكون له في الدنيا بأشدَّ مجادلة من المؤمنين لربهم في إخوانهم الذين أدخلوا النار...»^(٤) الحديث، فبين الحديث أن المجادلة قد تكون في الحق وهي عندئذٍ غير مذمومة.

والخلاصة: أن الجدال نوعان منه ما هو ممدوح وهو ما قُيد بالحسنى أو بالحق كما في قوله تعالى: ﴿جَادِلْهُمْ بَاتِّبِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٥).

ومنه ما يكون مذموماً وهو الأصل، ما لم يُقيد، كما تدل على ذلك الآيات والأحاديث التي أُطلق فيها.

ومن ذلك يتبين الفرق بين الحوار والجدل.

فهما يلتقيان في كونهما حديثاً أو مراجعة للكلام بين طرفين.

ويفترقان في أن الجدال فيه لدُّ في الخصومة وشدة في الكلام مع التمسك بالرأي والتعصب له.

وأما الحوار فهو مجرد مراجعة الكلام بين الطرفين دون وجود خصومة بالضرورة بل الغالب عليه الهدوء والبعد عن التعصب ونحوه. فالحوار أعم من الجدل من هذا الوجه.

١- المجادلة: ١.

٢- خولة بنت ثعلبة بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف من ربات الفصاحة والبلاغة تزوجها أوس بن الصامت وهي المجادلة (انظر الطبقات الكبرى ٢٧٥/٨ وانظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ٩٢/٧).

٣- هو سعيد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن الأبيجر بن عوف بن الحارث بن الخزرج، شهد الخندق وبيعة الرضوان وحدث عن النبي ﷺ وكان أحد الفقهاء المجتهدين، توفي سنة أربع وسبعين، (انظر صفة الصفوة ١/٣٧٢ وانظر سير أعلام النبلاء ٣/١٦٨-١٧٢).

٤- أخرجه الإمام أحمد في مسند أبي سعيد الخدري ٩٤/٣ وأخرجه ابن ماجه في المقدمة باب في الإيمان ٢٣/١ رقم ٦٠ وأخرجه النسائي كتاب الإيمان وشرائعه باب زيادة الإيمان ١١٢/٨ رقم ٥٠١٠.

وأصله في البخاري في كتاب التوحيد وفيه: «فما أنتم بأشد لي مناشدة في الحق قد تبين لكم من المؤمن يومئذ للجبار... الحديث. باب قول الله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ رقم ٧٤٤٠.

وكذلك أخرجه مسلم بمعناه كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية وفيه «فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين بالله.. الحديث» ١/١٦٧-١٦٩، رقم ١٨٤.

٥- النحل: ١٢٥.

أما المناظرة: فهي من النظر وهو تأمل الشيء بالعين، والنظر: الانتظار^(١).

والتناظر: التقابل، يُقال: تناظرت الداران: تقابلتا، ونظر إليك الجبل: قابلك، والنظر: الفكر في الشرع تقدره وتقيسه منك.

والمناظرة: أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه^(٢). والتناظر: التفاوض في الأمر. ونظيرك: الذي يراوضك وتناظره، وناظره من المناظرة، والنظير: المثل، ويُقال: ناظرت فلاناً أي صرت نظيراً له في المخاطبة، وناظرت فلاناً أي جعلته نظيراً له^(٣).

أما مادة نظر فقد جاءت في القرآن على معانٍ ثلاثة:

منها التأمل بالعين، ومنها التأخير والإمهال، ومنها الفكر والتقدير.

فمن الآيات التي وردت على المعنى الأول -النظر بالعين- قوله تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ﴾^(٤) وقوله: ﴿تَسْرُ النَّاطِرِينَ﴾^(٥)، وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ﴾^(٦)، وغيرها كثير.

ومن الآيات التي وردت حول المعنى الثاني -التأخير والإمهال- قوله تعالى: ﴿فَنظِرَةً إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾^(٧)، وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَاهُ﴾^(٨).

أما الآيات التي وردت حول المعنى الثالث -الفكر والتقدير- فمنها قوله تعالى: ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾^(٩) وكذلك الآيات التي تأمر بالنظر والتأمل في مخلوقات الله كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾^(١٠)، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ﴾^(١١) ونحوها.

١- الصحاح ٢ / ٨٣٠.

٢- لسان العرب ٧ / ٧٧ فصل النون حرف الراء.

٣- انظر القاموس المحيط ٢ / ١٥٠ فصل النون باب الراء.

٤- الأنعام: ٩٩.

٥- البقرة: ٦٩.

٦- الأعراف: ١٠٨.

٧- البقرة: ٢٨٠.

٨- الأحزاب آية: ٥٣.

٩- النمل: ٣٣.

١٠- العنكبوت: ١٧.

١١- العنكبوت: ٢٠.

ولم ترد المناظرة في القرآن بمعنى الحوار والجدال وقد استعملت مادتها في السنة بالمعاني التي ذكرت في القرآن .

أما التعريف الاصطلاحي للمناظرة فهو: تردد الكلام بين شخصين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه مع رغبة كل منهما في ظهور الحق^(١) .

والحاصل: أن المعنى الاصطلاحي للمناظرة يرجع إلى النظر والمقابل في المخاطبة والكلام، أو إلى النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب^(٢) .

وعلى المعنى الثاني فهي ممدوحة وقريبة من معنى الحوار، إلا أن المناظرة أدل في النظر والتفكير، كما أن الحوار أدل في مراجعة الكلام وتداوله^(٣) .

ويرى إمام الحرمين الجويني^(٤) -رحمه الله- أنه لا فرق بين المناظرة والجدال والمجادلة والجدل في عرف العلماء بالأصول والفروع، وإن فرّق بين الجدل والمناظرة على طريقة اللغة لأن الجدل في اللغة مشتق من غير ما اشتق منه النظر^(٥) .

وهناك لفظ الحاجة وهو يُطلق في اللغة على التخاصم والجدال . ويُقال: رجلٌ مُحجَّجٌ أي جدلٌ، والتَّحاجُّ: التخاصم^(٦) .

والحُجج: القصدُ والكفُّ والقدومُ والغلبة بالحُجة وكثرة الاختلاف والتردد^(٧) بخلاف

١- مناهج الجدل في القرآن الكريم ص ٣٠ .

٢- انظر التعريفات ص ٢٩٨ .

٣- انظر الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه في الكتاب والسنة ص ١٠٨ للباحث: خالد بن عبدالله القاسم الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ دار المسلم للنشر والتوزيع .

٤- أبو المعالي عبد الملك بن أبي محمد عبد الله بن أبي يعقوب يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه الجويني الفقيه الشافعي الملقب ضياء الدين المعروف بإمام الحرمين، ولد في سنة تسع عشرة وأربعمائة . تفقه في صباه على يد والده أبي محمد فلما توفي أتى على جميع مصنفااته وتصرف فيها بالتدقيق والتحقيق وقعد للتدريس مكان والده . تولى الخطابة بالمدرسة النظامية التي بناها بمدينة نيسابور . توفي -رحمه الله- سنة ثمان وسبعين وأربعمائة . (انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٣ / ١٦٨ رقم ٣٧٨ وانظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٣ / ٣٥٨-٣٦٠، وانظر سير أعلام النبلاء ١٨ / ٤٦٨-٤٧٦) .

٥- انظر الكافية في الجدل ص ٤٤ للإمام الجويني إمام الحرمين من تقديم وتحقيق د. فوقية حسين محمود . الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة ١٣٩٩ هـ .

٦- لسان العرب ٣ / ٥١ فصل الهاء حرف الجيم .

٧- القاموس المحيط ١ / ١٨٨ فصل الجيم والحاء باب الجيم .

الحُجَّة التي هي : البرهان تقول : حَاجَةٌ فَحَجَّه أَي عَلَبَهُ بِالْحُجَّةِ^(١) . وفي المثل «لَجَّ فَحَجَّ»^(٢) .
والصحيح أن الحُجَّة هي ما دُفِعَ به الخصم ، وبمعنى آخر هي : الوجه الذي يكون به
النظر عند الخصومة ، وإنما سُميت حُجَّةً لأنها تُحَجُّ أَي تقصد^(٣) .

وقد جاء في القرآن لفظ الحُجَّة أو التَّحَاجُّ عشرين مرة ، أُطلق بمعنى التخاصم والجدال
في بعضها كما في قوله تعالى : ﴿ هَآئِنَّمْ هُوَآءِ حَآجَّتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا
لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى النَّارِ ﴾^(٥) . وقوله أيضاً : ﴿ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ ﴾^(٦) .

وجاءت بمعنى البرهان أو ما دُفِعَ به الخصم كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَلَّكَ حُجَّتْنَا آتَيْنَاهَا
إِبْرَاهِيمَ^(٧) عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾^(٨) ، وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ
حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾^(٩) .

وكذلك جاءت الحجة في السنة بمعنى -التخاصم والجدل- في بعض المواضع كما في
حديث : «احتج آدم وموسى^(١٠)» ، وحديث : «تخاصمت الجنة والنار»^(١١) .

وجاءت بمعنى -الدليل والبرهان- كما في حديث : «والقرآن حجة لك أو

١- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ٣٠٤/١ .

٢- مجمع الأمثال ١٩٧/٢ لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني تحقيق : محمد
محيي الدين عبد الحميد ، الناشر : دار المعرفة بيروت .

٣- لسان العرب ٥١/٣ فصل الحاء حرف الجيم .

٤- آل عمران : ٦٦ .

٥- غافر : ٤٧ .

٦- الأنعام : ٨٠ .

٧- هو أبو الأنبياء خليل الرحمن وأحد أولي العزم من الرسل واسمه إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن أرغو ابن
فالغ بن عابر بن شالخ بن فينان بن أرفخشذ بن سام بن نوح كان مولده ببابل في عهد النمرود بن كوش (انظر تاريخ
الرسول والملوك ٢٣٣/١ وانظر الطبقات الكبرى ٢١/١ وانظر البداية والنهاية ١٣٢/١ تأليف : أبي الفداء الحافظ بن
كثير الدمشقي دقق أصوله وحققه : د. أحمد أبو ملحم ، د. علي نجيب عطوي ، الأستاذ : فؤاد السيد ، الأستاذ : مهدي
ناصر الدين ، الأستاذ : علي عبدالستار . الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ، الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت) .

٨- الأنعام : ٨٣ .

٩- الشورى : ١٦ .

١٠- أخرجه البخاري في صحيحه في مواضع عدة في كتاب الأنبياء باب وفاة موسى وذكر بعد ١٣١/٤ وأخرجه
أيضاً في كتاب القدر باب تحاج آدم وموسى عند الله ٢١٤/٧ وأخرجه في كتاب التوحيد باب ما جاء في قوله عز
وجل ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ ٢٠٣/٨ ، وأخرجه الإمام مسلم كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما
السلام ، ٢٠٤٢/٤ ، رقم ٢٦٥٢ .

١١- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب تفسير سورة (ق) باب قوله ﴿ وتقول هل من مزيد ﴾ ٤٨/٥ .
وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الجنة ونعيمها وأهلها باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء
٢١٨٧/٤ ، رقم ٢٨٤٦ .

عليك»^(١). وقوله في الحديث: «فَحَجَّ آدمُ موسى»^(٢) أي غلبه بالحجة والبرهان^(٣).

فتبين بذلك أن المحاجة تطلق لغةً وشرعاً على التخاصم والجدال، وهي عندئذٍ مذمومة، وتطلق على البرهان والدليل وما يُردُّ به على الخصم. فإن كانت حقاً وصحيحة فهي ممدوحة مطلوبة كما في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾^(٤).

وإن كانت باطلة فهي مذمومة، كما في قوله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾^(٥). والغالب في إطلاق المحاجة الدم، وذلك بالنظر إلى المقصد، وهو دفع الخصم بغض النظر عن الحق، وكذا فإن كثيراً من المفسرين يُفسر المحاجة بالجدال وكذلك العكس، كما يفسرونها بالخصام.

فالطبري - رحمه الله - يقول في معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾^(٦). (يعني الذي خاصم إبراهيم .. حاجه فخاصمه في ربه)^(٧).

وكذا يقول ابن الجوزي^(٨) رحمه الله: (حاج بمعنى خاصم)^(٩).

١- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الطهارة باب فضل الوضوء ١/ ٢٠٣، رقم ٢٢٣.

٢- سبق تخريجه ص ٣١.

٣- النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٣٤١.

٤- الأنعام: ٨٣.

٥- الشورى: ١٦.

٦- البقرة: ٢٥٨.

٧- جامع البيان في تفسير القرآن ٣/ ٢٣.

٨- ابن الجوزي هو أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبدالله حمادي بن أحمد بن أبي بكر الصديق القرشي التيمي البكري البغدادي الحنبلي الواعظ المتفنن صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة في أنواع العلم من التفسير والحديث والفقه والزهد والوعظ والأخبار والتاريخ والطب وغير ذلك وعظ من صغره وفاق فيه الأقران ونظم الشعر المليح توفي سنة سبع وتسعين وخمسائة (انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٢/ ٣٣١-٣٣٢ وانظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٤/ ٣٢٩-٣٣١).

٩- زاد المسير في علم التفسير ١/ ٣٠٧ للإمام أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ - الناشر: المكتب الإسلامي.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾^(١).
يقول الطبري - رحمه الله - في معنى حاجوك: أي (خاصموك بالباطل)^(٢).
يقول ابن الجوزي - رحمه الله - أيضاً في الآية نفسها: (حاجوك: أي جادلوك
وخاصموك)^(٣).

وقال أيضاً ابن كثير^(٤) - رحمه الله - : (أي جادلوك في التوحيد)^(٥).
وفي قوله تعالى: ﴿أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾^(٦).
قال الطبري: (أتجادلونني في توحيد الله)^(٧).
وقال ابن كثير: (أي: أتجادلونني في أمر الله)^(٨).
فنجد أن هؤلاء المفسرين فسروا المحاجة بالجدال والمخاصمة، وكان ذلك على وجه الظم
والمقت.

وعلى الوجه الآخر فقد فسّر بعض علماء التفسير - كابن كثير - الجدال بالمحاجة كما في
تفسيره رحمه الله لقوله تعالى: ﴿أَتُحَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾^(٩).
حيث قال: (أي: أتجادلونني في هذه الأصنام)^(١٠).

-
- ١- آل عمران: ٢٠.
 - ٢- جامع البيان في تفسير القرآن ٣/ ٢١٤.
 - ٣- زاد المسير في علم التفسير ١/ ٣٦٣.
 - ٤- عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصري ثم الدمشقي الفقيه الشافعي ولد سنة ٧٠٠هـ ذكره الذهبي فقال:
الإمام المحدث المفتي البارع، ووصفه بحفظ المتون وكثرة الاستحضار، لازم ابن تيمية والحافظ المزني، وانتهت إليه رئاسة
العلم في التاريخ والحديث والتفسير. من مصنفاته: تفسير القرآن العظيم، البداية والنهاية وغيرها توفي رحمه الله سنة
٧٧٤هـ (انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٦/ ٢٣١).
 - ٥- تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٥٤ تأليف أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي طبع سنة ١٤٠١هـ الناشر: دار الفكر
للطباعة والنشر.
 - ٦- الأنعام: ٨٠.
 - ٧- جامع البيان في تفسير القرآن ٧/ ٢٥٢.
 - ٨- تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٠٣.
 - ٩- الأعراف: ٧١.
 - ١٠- تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٢٥.

وكذا في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ^(١) قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾^(٢)، أي:
(حاججتنا فأكثرت من ذلك)^(٣).

والخلاصة: أن الحججة قد تُمدح وقد تُذم، وذلك بحسب إطلاقها لأنها تُطلق على
البرهان الصحيح، كما تُطلق على الشبهة المزعومة^(٤).

أمّا المحاجة فإنها في الغالب مذمومة، إذ القصد منها دفع الخصم وردّه، لا لبيان الحق،
وهي قريبة من معنى الجدال والمخاصمة.

وبهذا يتبين أن الحوار لفظ عام يشمل صوراً عديدة، منها: المناظرة، المجادلة، المحاجة،
المناقشة، المباحثة ونحوها.

جميعها ترجع في نهاية أمرها إلى طريقة البيان التي أودعها الله في بني الإنسان جبلة
وطبعاً، فكلها تشترك مع الحوار في أنها مراجعة في الكلام ومداولة بين طرفين، فهي تدخل
في معنى الحوار من هذه الجهة، ثم تفترق المناظرة في دلالاتها على النظر والتفكير، والجدال
والمحاجة في دلالتها على المخاصمة والمنازعة.

١- هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ وهو إدريس بن يرد بن مهلاييل بن قين بن آتوش بن شيث بن آدم أبي
البشر كان مولده بعد وفاة آدم بمائة وست وعشرين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعباد لما عبدت الأصنام والطواغيت
وشرع الناس في الضلالة والكفر فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض. (انظر الطبقات الكبرى ١/١٧ وانظر البداية
والنهاية ١/٩٣).

٢- هود: ٣٢.

٣- تفسير القرآن العظيم ٢/٤٤٤.

٤- رسالة استخراج الجدال في القرآن الكريم ضمن مجموعة الرسائل المنبرية ص ٤٤ لأبي الفرج عبدالرحمن الأنصاري،
إدارة الطباعة المنبرية ١٣٤٦هـ.

ثانياً : أهمية الحوار :

بعد أن تبين لنا معنى الحوار والمقصود به، ظهر لنا مدى الحاجة إليه وضرورة استعماله، فإذا كان المسلم يسعى لنشر دعوته من خلال وسائل وطرق، فإن عليه أن يتذكر أن عمدة هذه الوسائل هي وسيلة القول الذي يتجلى في أسلوب الحوار، فبه يتمكن الداعية من عرض رسالته على الآخرين ابتداءً أو الدفاع عنها حيال شبهة أو فرية، كما أنه سبيله الأول في التعامل مع الآخرين من أمثاله خاصة إذا تباينت بينه وبينهم وجهات النظر في قضية أو أسلوب أو أولوية .

لذلك يمكن أن يُقال إنه بالمقدار الذي يكون الداعية فيه متمكناً من فن الحوار، محيطاً بجوانبه المختلفة، يُرجى أن يكون أقدر على النجاح^(١). ولذلك كان لابد من دراسة هذا الموضوع، والعناية به وتأصيله عن طريق دراسة القصة القرآنية، وما حوته من حوار على ألسنة أنبياء الله ورسله، وكذا ما ورد في السنة النبوية، حتى يتسنى لنا الرجوع إليه بين الحين والآخر ليحاكم الداعية طريقته في النقاش، وأسلوبه في عرض الدعوة، فيحسن أداءه ويصلح أخطائه، ليتحقق له بذلك الهدف والغاية من كلامه وحواره. ويمكن معرفة أهمية الموضوع من خلال النقاط التالية :

أولاً : كثرة استعمال الحوار في الكتاب والسنة، وكثرة وقوعه من الأنبياء، بل تكراره واستخدامه في التاريخ كله، فلا يخلو منه زمان، ولا يستغن عنه نبي ولا عالم ولا داعية، وكما هو واقع في الدنيا فهو موجود في الآخرة كذلك بل في الجنة والنار ففيهما حوار وجدال ومُحاجة ومُخاصمة كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «تُحاجت الجنة والنار، فقالت النار، أوثرتُ بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة : فمالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس

١- انظر المطلب الأول من هذا البحث ص ٥ .

وسَقَطَهُمْ وَغَرَّتَهُمْ، فقال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي، أُعَذِّبُ بِكَ مِنْ أَشْيَاءِ مِنْ عِبَادِي، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار: فلا تمتلئ حتى يضع رجله وفي رواية أخرى حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله - فتقول: قط قط قط، فهنالك تمتلئ ويُزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً^(١).

والحوار يرد كثيراً في القرآن وإن لم تستعمل مادته، بل تستعمل أحياناً كلمة «قال» التي وردت في القرآن الكريم سبعا وعشرين وخمس مائة مرة، منها على سبيل المثال:

ما دار بين الله عز وجل وملائكته في موضوع خلق آدم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(٢).

ومنها ما دار بين الله - سبحانه وتعالى - وإبراهيم - عليه السلام - حين طلب أن يريه كيف يحيي الموتى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُونَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٣).

ومنها قصة داود^(٤) - عليه السلام - مع الخصمين التي وردت في سورة (ص) وهي

١- سبق تخريجه ص ٣١ هامش (١١).

٢- البقرة: ٣٠-٣٢.

٣- البقرة: ٢٦٠.

٤- هو داود بن إيشار بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن آدم بن حصرون بن فارص ابن يهوذا ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عبدالله ونبيه وخليفته في أرض بيت المقدس. كان عليه السلام ذا قوة في العبادة والعمل الصالح والفقه في الدين قال عنه قتادة: ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر. (انظر البداية والنهاية ٩/٢-١٠).

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْمَتِكَ إِلَيْنِ نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (١).

ومنها كذلك ما قصه الله علينا من الحوار الذي جرى بين قارون (٢) وقومه قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوْ لَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٣).

١- سورة ص: ٢١-٢٤.

٢- قال الطبري: (إن قارون هو ابن عم موسى -عليه السلام- وهو ابن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب ومن ثم تربطه بنبي الله وأخيه رابطة القربى أو صلة الرحم وكان يسمى (المنور) لحسن صورته وقيل لحسن صوته فقد كان أقرأ بني إسرائيل للتوراة ولكنه نافق) تاريخ الرسل والملوك ١ / ٢٣٠.

وقال ابن عباس -رضي الله عنه-: (إنه كان ابن عم موسى -عليه السلام-). وقال ابن اسحاق: (إن موسى كان ابن أخ قارون) أي أن قارون هو عم موسى -عليه السلام- (انظر تفسير القرآن العظيم ٣ / ٣٩٨).

ويؤيد قول ابن اسحاق أن قارون بعد أن خسف الله به الأرض ومات قال بنو إسرائيل (إن موسى طلب من الله هلاك عمه لكي يرث ثروته الطائلة بعد موته).

٣- القصص: ٧٦-٨٢.

وكذا قصة بلقيس^(١) مع قومها ومع سليمان^(٢) عليه السلام، وحوار الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم كما في سور الأعراف وهود والأنبياء والشعراء والنمل وغيرها.

وإضافة إلى كثرة استعمال الحوار - كما تقدم - فإن أثره الإيجابي في الواقع أكبر دليل على أهميته وأثره، فكم من كافر دخل الإسلام بفضل الله - عز وجل - ثم بسبب الحوار والمناظرة، وكم من عاصٍ تاب إلى ربه ورجع إلى عقله بعد محاورته، ومن ذلك الحوار الذي كان سبباً في إسلام عمر بن الخطاب^(٣) - رضي الله عنه -، وكذا حوار ابن عباس^(٤) - رضي الله عنهما - مع الخوارج الذي كان سبباً في رجوع ألفين منهم عن بدعتهم^(٥)، ومن ذلك أيضاً الحوارات المصيرية الحاسمة التي كانت - بعد الله - سبباً في كبت الفتن، وتوحيد الكلمة، وإنهاء النزاع والخلاف كالحوار الذي كان بين المهاجرين والأنصار^(٦) في سقيفة بني ساعدة^(٧)، والحوارات بين عبدالرحمن بن عوف^(٨) وأصحاب الشورى بعد وفاة عمر رضي الله عنهم أجمعين^(٩)، وحوار أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في قتال المرتدين^(١٠) وكذا حوارهما في جمع القرآن^(١١).

١- بلقيس قال ابن جرير هي بلقيس ابنة أيلي شرح بن ذي جدان بن أيلي شرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ملكة سبأ في بلاد اليمن. قال ابن كثير: كان أبوها من أكابر الملوك دعاها سليمان - عليه السلام - إلى الإسلام فأسلمت وحسن إسلامها، وقيل إنه زوجها بملك همدان وأقرها على ملك اليمن (انظر تاريخ الرسل والملوك ١/ ٤٨٩-٤٩٥)، وانظر الكامل في التاريخ ١/ ١٧٦-١٨١ للإمام أبي الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، تحقيق: أبي الفداء عبدالله القاضي الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، وانظر البداية والنهاية ٢/ ١٩-٢٢).

٢- سليمان بن داود بن إيثار بن عويد بن عابر بن سلمون بن يخشون بن عويناذب بن آدم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبي الربيع نبي الله ابن نبي الله (انظر البداية والنهاية ٢/ ١٧).

٣- قال ابن حجر في الإصابة ٤/ ٣٧٠ في ترجمة فاطمة: (قال أبو عمر خيرها في إسلام عمر خير عجيب، قلت: أخرجه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه وأبو نعيم في طريقه ثم ساق القصة ..)

٤- هو عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب، يكنى بأبي العباس، ولد في الشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، وتوفي النبي ﷺ وهو ابن ثلاث عشرة سنة وكان حبر الأمة ويسمى البحر لغزارة علمه، توفي رضي الله عنه بالطائف سنة ثمان وستين وهو ابن إحدى وسبعين سنة (انظر صفة الصفوة ١/ ٣٧٩-٤٨٣، وانظر الطبقات الكبرى ٢/ ١٢٠).

٥- أخرجه البخاري في الكبير ١٠/ ٣٠٤ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣١٠.

٦- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً ٤/ ١٩٣-١٩٥.

٧- سقيفة بني ساعدة: بالمدينة وهي ظلة كانوا يجلسون تحتها، فيها بويع أبو بكر الصديق رضي الله عنه. قال الجوهري: السقيفة الصفة، ومنه سقيفة بني ساعدة. وأما بنو ساعدة الذين أضيفت إليهم السقيفة فهم حي من الأنصار وهم بنو ساعدة كعب بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو (انظر معجم البلدان ٣/ ٢٢٩ لياقوت الحموي، الناشر: دار صادر للطباعة والنشر ودار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ).

٨- هو عبدالرحمن بن عوف بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي. أبو محمد أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد السابقين البدرين وأحد الستة من أهل الشورى. توفي سنة اثنين وثلاثين ودفن بالبيع عاش خمسا وسبعين سنة (انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣/ ٤٧٥-٤٨٠ ترجمة رقم (٣٣٧٠) وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٢٩٠-٢٩٣ ترجمة رقم (٥١٩٥) وانظر سير أعلام النبلاء ١/ ٦٨-٩٢).

٩- للاستزادة انظر: صحيح الإمام البخاري مع الفتح كتاب المناقب - باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان ٥٩/٧، رقم ٣٧٠٠.

١٠- للاستزادة انظر: صحيح الإمام البخاري كتاب استتابة المرتدين باب قتل من أبي قبول الفرائض وما نسبوا إلى الردة ٨/ ٥٠.

١١- للاستزادة انظر: صحيح الإمام البخاري كتاب الأحكام باب يستحب للكاتب أن يكون أميناً عاقلاً ٨/ ١١٨-١١٩.

هذا عدا المناظرات العلمية الكثيرة الي كانت تجرى بين الصحابة كتلك التي تجرى بين العلماء في مسائل مختلفة والتي بينت أرجح الأقوال في تلك المسائل كمناظرة ابن عباس وابن الزبير^(١) رضي الله عنهم في حكم المتعة^(٢)، ومحاورة عائشة ومسروق^(٣) رضي الله عنهما في رؤية النبي^(٤) لربه، ومناظرة الإمام أحمد^(٥) في خلق القرآن^(٦) وغير ذلك كثير. وعلى كل حال فإن أثر هذه الحوادث والمناظرات أكثر من أن يُحصر وهذا يدل على أهمية الحوار وضرورته.

من هنا دعت الحاجة إلى طرح هذا الموضوع عن طريق ما ورد في القرآن والسنة من قصص الأنبياء مع أقوامهم كقصة موسى - عليه السلام - مع قومه.

ثانياً: أقوال علماء الأمة في أهمية المناظرة، وضرورة استخدامها إذ إن المناظرة قريبة من الحوار - كما تقدم - في التعريفات - وتشارك معه في الغاية وهي الوصول إلى الحق وإظهار

١- هو عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي بن كلاب بن مرة. كان أول مولودٍ للمهاجرين في المدينة ولد سنة اثنتين وقيل سنة إحدى. قتل في جمادى الآخرة في سنة ثلاث وسبعين عاش نيفاً وسبعين سنة رضي الله عنه (انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣/ ٢٤١-٢٤٥ رقم (٢٩٤٩) وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٧٨-٨٢ رقم ٤٧٠٠ وانظر سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٦٣-٣٧٩).

٢- للاستزادة انظر: صحيح الإمام مسلم كتاب النكاح باب نكاح المتعة وبيان أنه أبيض ثم نسخ ٢/ ١٠٢٣، رقم ١٤٠٤.

٣- هو مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية بن عبدالله بن مر بن سليمان بن معمر أبو عائشة الوادعي، يقال أنه سرق وهو صغير ثم وجد فسمي مسروقاً. تبنته عائشة رضي الله تعالى عنها فسمي ابنته عائشة. صلى خلف أبي بكر لقي عمر وعلياً وعداده في كبار التابعين وفي المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي ﷺ كان عالماً بالفتوى توفي يرحمه الله سنة اثنتين وستين. (انظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٣-٦٨).

٤- للاستزادة انظر: صحيح الإمام البخاري كتاب بدء الخلق باب وإذ قال أحدكم أمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه ٤/ ٨٤ وأخرجه في كتاب تفسير سورة النجم (بدون اسم باب) ٥/ ٥٠. وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب وهل رأي النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء ١/ ١٥٩ رقم ١٧٧.

٥- هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني الوائلي إمام السنة وأحد الأئمة الأربعة ولد ببغداد سنة ١٦٤هـ وبها سكن نشأ منكباً على طلب العلم وسافر في سبيله أسفاراً كثيرة. صنف المسند في ستة مجلدات وله كتب في التاريخ والناسخ والمنسوخ والتفسير وفضائل الصحابة وغير ذلك كثير.

ابتلي في فتنه القول بخلق القرآن فلم يوافقهم فسجن في زمن المعتصم وولد توفي ليلة الجمعة في سنة ٢٤١هـ. وله ثمان وسبعون سنة (انظر تهذيب التهذيب ١/ ٤٣-٤٤، وانظر سير أعلام النبلاء ١١/ ١٧٧-٣٥٨).

٦- انظر مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ٣٨٥-٤٦٢ تأليف الحافظ أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي حققه وقدم له وعلق عليه: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي. قابل نسخه وصححه د. علي محمد عمر. الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ الناشر: مكتبة الخانجي بمصر، وانظر سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٣٢-٢٧٩.

الصواب، ولا بأس من إيراد بعض تلك الأقوال، لنستشف منها أهمية الحوار وضرورته .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية^(١) -رحمه الله تعالى- : (فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابره لم يكن أعطى الإسلام حقه ولا وفى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور، وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين)^(٢) .

وقال أبو العباس الفتوحى^(٣) (أعلم وفقنا الله وإياك أن معرفة هذا العلم لا يستغني عنه ناظر، ولا يتمشى بدونها كلام مناظر، لأن به تتبين صحة الدليل من فساده تحريراً وتقريراً، وتصح الأسئلة الواردة من المردودة إجمالاً وتفصيلاً، ولولاه لاشتبه التحقيق في المناظرة بالمكابرة ولو حُلي كل مدعٍ ومدعى ما يرومه على الوجه الذي يختار، ولو مُكِّن كل مانع من ممانعة ما يسمعه متى شاء، لأدى إلى الخبط وعدم الضبط، وإنما المراسم الجدلية تفصل بين الحق والباطل، وتبين المستقيم من السقيم، فمن لم يحط بها علماً؛ كان في مناظرته كحاطب ليل)^(٤) .

فإذا كان هذا كلام بعض الأئمة في علم الجدل والمناظرة، مع ما ورد عن غيرهم من كراهية أو تحريم لهما لتعلقهما بالمنطق، فإن الحوار المفيد الهادئ، البعيد عن الخصومة والتعصب يدخل من باب أولى في ثناء العلماء وتقرير أهميته، خاصة وأن الحوار يحقق

١- هو شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية ولد بحران سنة ٦٦١هـ كان إماماً في التفسير والحديث واللغة والفقه له تصانيف كثيرة توفي سنة ٧٢٨هـ. (انظر البداية والنهاية ١٤ / ١٤١-١٤٦)، وانظر البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ١ / ٦٣-٧٢).

٢- مجموع الفتاوى ٢٠ / ١٦٤-١٦٥ لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي .

٣- هو شهاب الدين أحمد بن عبدالعزيز الفتوحى الشهير بابن النجار ولد بمصر سنة ٨٩٨هـ ونشأ بها وأخذ العلم عن والده وكبار علماء عصره، انتهت إليه الرياسة في مذهب الإمام أحمد، من أشهر مصنفاته: منتهى الإدارة في جمع المقنع مع التنقيح، توفي يرحمه الله سنة ٩٧٢هـ (انظر السحب الوابلة علي ضرائح الحنابلة ص ٦٨-٧٠ للإمام محمد بن عبدالله بن حميد الحنبلي الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، الناشر: مكتبة الإمام أحمد .

٤- شرح الكوكب المنير المسمى مختصر التحرير في أصول فقه السادة الحنابلة ٤ / ٣٧٠ تأليف شهاب الدين أبي العباس أحمد بن عبدالعزيز بن علي الفتوحى . تحقيق: محمد حامد الفقى طبعة ١٣٧٢هـ. الناشر: مطبعة السنة المحمدية .

الهدف والغاية التي من أجلها مدح أولئك العلماء الجدل والمناظرة، وهو التوصل إلى الحق، وإظهار الصواب ورد الشبه وإبطالها.

ثالثاً: لقد ظهرت في الآونة الأخيرة حركات جديدة، يكثر فيها المنافقون من العلمانيين وأعدائهم من طرح موضوع الحوار والدعوة إليه بكتابة المقالات وإجراء التحقيقات في الصحف والمجلات، ويهدفون من وراء ذلك إلى إسكات صوت الحق الذي يجاهدونهم باللسان استجابة لقوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(١).

فيقصدون بالدعوة إلى الحوار الهادي من أجل إلباس الدعاة والمصلحين غير لباسهم وهو أنهم يميلون إلى التعصب وعدم التفاهم - هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى وهي الطامة الكبرى أنهم يهدفون إلى المرحلة التي يطرحون فيها كل قضايا الشريعة للنقاش والحوار دون التسليم أو الاعتراف بالأصول والأسس التي لا تقبل الخلاف أصلاً. ومع علمنا بأن هؤلاء العلمانيين حينما تُكشَفُ مؤامراتهم ويبين نفاقهم ويكتب عن سوء نياتهم وتربصهم بالإسلام وأهله يدعون إلى الحوار الهادئ، ويطرحون أدب الخلاف في الإسلام، أما حين يكتبون هم ويتكلمون فلا يتورعون عن الكذب والافتراء والتلفيق والطعن في الدين، ونبز العلماء والدعاة تصريحاً أو تلميحاً دون مراعاة لأدب الحوار أو احترام الرأي الآخر عند الاجتهاد، وأما في دعواتهم الهدامة كالدعوة إلى فصل الدين عن الحياة والدعوة إلى تحرير المرأة.. فهم عند ذلك يُعرضون عن الكتاب ويعتبرون الرجوع إليه تخلفاً ورجعية، وأن أحكامه لا بد أن تتغير بتغير الزمن.

ومع العلم بهذا كله فلا بد أن نُؤكد على أمر مهم، وهو أن أهل الإسلام وعلماءه

١- التوبة: ٧٣.

ودعائه وطلبة العلم فيه، أحق بالكلام في أدب الحوار وحكم الاجتهاد وفقه الخلاف، وأولى بدراسة واستنباط هذه الآداب من نصوص الكتاب والسنة.

رابعاً: ما يظهر في هذه العصور المتأخرة من كثرة الخلاف بين المسلمين وخروج الحوار عن أهدافه وغاياته، وما يطرأ عليه أحياناً من سوء الأدب وحادّة الكلام، الأمر الذي يستدعي دراسة موضوع الحوار واستنباط آدابه من خلال دعوات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

خامساً: أن هذا الموضوع له تعلق كبير بعلوم أخرى مستقلة كعلم الجدل وعلم البحث والمناظرة وقد ذكر العلماء آداباً لتلك العلوم مما يُستفاد منها في الحوار وتحتاج إلى جمع وترتيب من جديد.

سادساً: أنه قد شاع في العصر الحديث تخصص يتصل بهذا الموضوع، وهو (فن العلاقات العامة) وماهية هذا الفن هي كيفية الاتصال بالآخرين لإقناعهم بآراء معينة، أو تصحيح أفكارهم نحو قضية ما أو غير ذلك. لذلك فدراسة هذا الموضوع واستنباط الآداب المتعلقة به يساعد في إثراء هذه العلوم وفي إحياء ما اندثر من تلك الآداب التي تمثلها الأنبياء والعلماء ومحاولة السير على نهجهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾^(١).

سابعاً: إن المسلمين يواجهون غزواً فكرياً مركزاً يتمثل في المادية الجدلية، والتي هي امتداد لتلك الماديات القديمة التي لاكتنها ألسنة ملاحدة اليونان مثل: (أرسطو ديموس^(٢)) الذي كان ينكر الإله، ومثل (ديموقريطس^(٣)) الذي كان مذهبه مادياً صرفاً إذ لا يقول بغير

١- الأنعام: ٩٠.

٢- أرسطو ديموس فيلسوف يوناني ولد عام ٣٨٤ ق.م في بلدة استاجيرا شمالي اليونان وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمرة التحق بمدرسة أفلاطون في أثينا. أنشأ مدرسته المعروفة باسم الليسيوم وأطلق على تلاميذه اسم المشائين لأن أرسطو كان يلقي دروسه أثناء المشي والتجوال بصحبة تلاميذه. مات سنة ٣٢٢ ق.م في مدينة كلسيس وهي المعروفة الآن باسم (كلكيس). (انظر الموسوعة العربية العالمية ١/ ٤٧٨-٤٧٩ الطبعة الأولى، الناشر: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع).

٣- ديموقريطس فيلسوف يوناني ولد في أبديرا بشمالي اليونان سنة ٤٦٠ ق.م وكتب في علم الأخلاق والفيزياء والرياضيات والأدب واللغة. حاول أن يبرهن على أن العالم مكون من عدد غير محدود من الذرات يتحرك في فراغ لا حدود له كما اعتقد أن الإحساس بجميع أنواعه نوع من اللمسات ناتج عن ذرات تصطدم بأعضاء الحس - مات سنة ٣٧٠ ق.م. (انظر الموسوعة العربية العالمية ١٠/ ٥٦٦).

المحسوسات، وغيرهما من الماديين الملحدّين، فالمذاهب المادية الحديثة التي تحارب الأديان السماوية هي امتداد لتلك الحركات الإلحادية القديمة.

فجهل المسلمين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ يجعلهم غير قادرين على كشف أسرار المذاهب المادية الحديثة وما يروجه أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم الذين يتهمون الإسلام بأنه دين تلقيني عاطفي، بضاعته مُسلّمات، وقضاياها خطايبات، وأنه يفر من الجدل ويكره النقاش والحوار، لكنّ المطلع على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يكشف مدى كذب هؤلاء وافتراءهم على الإسلام بل إنّنا نستطيع أن نردّ عليهم من واقع آيات القرآن نفسه من خلال استعراض قصص الأنبياء والرسل، ومن خلال استعراض الآيات التي أشادت بالحكمة والتفكير والبرهان والحوار والحجة كما ورد ذلك على لسان الأنبياء والرسل في القرآن، فدراسة حوار الأنبياء مع أقوامهم وخصائص هذا الحوار ومميزاته يجعلنا قادرين على الوقوف أمام تلك التيارات المادية وبيان زيفها.

ثالثاً: أنواع الحوار

الحوار سلاح ذو حدين، وقد اشتبه هذا الأمر على قوم قصرت علومهم، وندت أفهامهم، فذهبوا ينكرون الحوار والجدل والمناظرة ويرون ذلك من الأمور الدخيلة على الإسلام والمسلمين فجنى هؤلاء على الإسلام من حيث لا يشعرون، إذ لم يحرروا أقوالهم ويفرقوا بين ما يبيحه الشرع وما يمنعه، وما تقتضيه ضرورة البلاغ لرسالة الله تعالى والدفاع عنها من الحجة والبرهان، وبين ما يكون فضولاً من القول ورجماً بالغيب وخوضاً في لجج الباطل.

بينما يقابل هؤلاء قوم فرطوا في الحوار والجدل والمناظرة في الدين، وأطلقوا العنان للعقول دون قيود أو حدود، وعدوا العقل هو الركيزة الأولى التي تُبنى عليها الأحكام ويتفرع عنها الحكم على كل قول أياً كان مصدره. وهؤلاء قد حكموا للعقل بالعصمة من الخطأ وقدّموا أدلته على أدلة الشرع إذ أن العقل الصحيح يوافق النقل الصريح.

غير أن هناك حقيقة لا بد وأن نسلّم بها وهي أن العقول مهما بلغت من الإدراك فطاقاتها محدودة وهي عاجزة عن اقتحام علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه، وهناك حقائق ثابتة لوجود الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، ولكن العقل عاجز عن إدراك كنهها، فليس لنا أن نجعل العقل مهيمناً على نصوص الشريعة، ينسخ منها ما يريد ويغير ما لا يدرك حقيقته وكنهه.

ولكننا نستخدم العقل في التمييز بين الحق والباطل، ونعمله في جميع شؤون الحياة نتأمل به في خلق الله وبدائع صنعه، ونسلك به الطريق المستقيم مستنيرين بنور الوحي وهدى النبوة، علماً بأن العقل السليم لا يخالف النصوص الصحيحة التي جاء بها الشرع.

وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - كتابه: (درء تعارض العقل والنقل) المسمى: (موافقة المنقول لصريح المعقول) وتحدث عن هذا الموضوع بشكلٍ مستفيض.

وقصارى القول إن إنكار الحوار والجدال وذمهما مطلقاً فيه تعسف ومكابرة للحق والواقع، وقبولهما والدعوة إليهما مطلقاً فيه أيضاً تعسف ومكابرة.

وقد وردت نصوص من الكتاب والسنة تأمر بالحوار والجدل والمناظرة، وأخرى تنهى

عن ذلك فعلمنا يقيناً أن الحوار الذي تأمر به هذه النصوص غير الحوار الذي تنهى عنه، وكذا في الجدل والمناظرة، لأن نصوص القرآن الكريم والسنة الصحيحة لا تتعارض في حقيقة الأمر في بعضها بل تتوافق ويصدق بعضها بعضاً.

إذاً ما الحوار الذي تأمر به هذه النصوص وتدعو إليه؟ وما الحوار الذي تنهى عنه وتذمه؟

للإجابة عن هذا السؤال يمكن القول إن الحوار ينقسم إلى قسمين: حوار ممدوح، وحوار مذموم، وسنوضح كلا النوعين فيما يلي:

الحوار الممدوح:

لكل أمر دافع وطريقة ونتيجة، ولا بد من سلامة الثلاثة ليكون الأمر صحيحاً، فالحوار الممدوح هو كل حوار أيد الحق أو أفضى إليه بنية خالصة وطريق صحيح.

وعند استقصاء نصوص الشريعة وأقوال العلماء في جواز الحوار لإيضاح الحق والدعوة إليه؛ فإننا نخرج عن حد الاختصار المعقول المفيد، ولكن ذلك لا يمنعنا من ذكر بعض النصوص من الكتاب والسنة وما أثر عن السلف وذلك توضيحاً للمقصود:

أولاً: الاستدلال بالقرآن الكريم

١- قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ مِنْ قُلِّ قَاتُوا بِكِتَابٍ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴿١﴾

ووجه الدلالة من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يأمر رسوله أن يقول هذا شكاً في صدق ما يدعوا إليه، ولكن قطعاً لحجتهم وحسماً لدعواهم وإلزاماً وإفحاماً لهم، فقد التزم ﷺ بالرجوع إلى السبيل الأهدى والأمر الأصوب، وثقته بأنه على الهدى والصواب، وهذا ضرب من الحوار الهادئ لإفحام الخصم.

٢- قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١). أي وخاصمهم وناظرهم بالخصومة التي هي أحسن من غير فظاظة ولا تعنيف^(٢).

ويقول ابن كثير - رحمه الله -: (من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب)^(٣).

ثانياً: الاستدلال بالسنة

لم يكن الرسول ﷺ يمانع من الحوار إذا كان لطلب الحق والاسترشاد وتقرير القضايا المتعلقة بأمور الدين والدنيا. يدل على ذلك حواره ﷺ مع أصحابه ومن ذلك على سبيل المثال:

١- حوار سعد بن معاذ^(٤)، وسعد بن عباد^(٥) زعيمي الأنصار لرسول الله ﷺ في غزوة الأحزاب حينما استشارهما في الصلح الذي عرضته عليه قبيلة غطفان وهو أن يعطوا ثلث ثمار المدينة^(٦) لعام كي ينصرفوا عن قتال المسلمين الذين اشتد عليهم البلاء فقالا له: « لا والله ما أعطينا الدنية^(٧) من أنفسنا في الجاهلية فكيف وقد جاء الله بالإسلام » وفي رواية أخرى أنهما

١- النحل: ١٢٥.

٢- انظر معالم التنزيل ٥٢/٥ للإمام محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي حققه وخرج أحاديثه محمد عبدالله النمر، عثمان جمعه ضميره، سليمان مسلم الحرش. الطبعة الثانية ١٤١٤هـ، الناشر: دار طيبة.

٣- تفسير القرآن العظيم ٥٩١/٢.

٤- هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل السيد الكبير أبو عمرو الأنصاري الأوسي الأشهلي الذي اهتز العرش لموته أسلم على يد مصعب بن عمير وشهد بدرًا ورمي يوم الخندق سنة خمس من الهجرة فعاش شهراً ثم انتقض جرحه فمات وهو يومئذ. ابن سبع وثلاثين سنة فصلى عليه الرسول ﷺ ودفن بالبيقع (انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ٤٦١-٤٦٤ رقم (٢٠٤٦) وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ٧٠-٧٢ رقم (٣٢١٢) وانظر سير أعلام النبلاء ٢٩٠/١).

٥- سعد بن عباد بن دليم بن حارثة بن أبي خزيمة بن ثعلب بن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج شهد بدرًا وله أحاديث يسيرة عشرون بالمركر توفى سنة أربع عشرة بحوارن (انظر الإصابة في تمييز الصحابة ٥٥-٥٦ رقم (٣١٨٠) وانظر سير أعلام النبلاء ٢٧٠/١).

٦- مدينة الرسول ﷺ وهي في حرة سبخة الأرض ولها نخيل كثيرة ومياه وللمدينة سور والمسجد نحو وسطها، وقبر النبي في شرقي المسجد - لها تسعة وعشرون اسماً، وأهل المدينة الأنصار عليهم الرحمة والرضوان وقد وردت أحاديث كثيرة في فضلها (انظر معجم البلدان ٨٢/٥ وانظر آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٠٧ لذكر بن محمد بن محمود القزويني ١٤٠٤هـ. دار بيروت للطباعة).

٧- الدنية: الخصلة المذمومة والأصل فيه الهمز، وقد تخفف وهو غير مهموز أيضاً بمعنى الضعيف الخسيس (انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ١٣٧/٢).

قالا: « يا رسول الله: أوحى من السماء، فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك؟ فرأينا تبع هواك ورأيك، فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا، فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواءٍ ما ينالون منا ثمرة إلا شراءً أو قرى^(١)» فقطع رسول الله المفاوضة مع الأعراب.

٢- حوار عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في صلح الحديبية

عن أبي وائل^(٢) قال: « كنا بصفين^(٣) فقام سهل بن حنيف^(٤)، فقال: أيها الناس أمهلوا أنفسكم، فإننا كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية^(٥)، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، فقال: يا رسول الله: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: « بلى »، فقال: أليس قتلنا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال « بلى » قال: فعلى ما نعطي الدنيا في ديننا؟ أنرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: « ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً ».

فانطلق عمر إلى أبي بكر - رضي الله عنهما -، فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ فقال: إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً. فنزلت سورة الفتح، فقرأها رسول الله ﷺ على عمر إلى آخرها. فقال عمر - رضي الله عنه -: يا رسول الله أوفتح هو؟ قال نعم^(٦). فلم يسخط رسول الله ﷺ على عمر - رضي الله عنه - ولا أنكر عليه حق الحوار فيما لم يقتنع به في

١- أخرجه البزار والطبراني بإسنادين كلاهما حسن انظر كشف الأستار (١/٣٣١-٣٣٢) ومجمع الزوائد (١٣٢/٦) وفي رواية ابن إسحاق أن سعد بن معاذ تناول الصحيفة فمحا ما فيها من الكتابة. ثم قال: « ليجهدوا علينا ».

٢- أبو وائل شقيق بن سلمة الأسدي صاحب ابن مسعود ولد في سنة إحدى من الهجرة، أدرك النبي ﷺ وهاجر بعده وروى عن أبي بكر وعمر وعلي وغيرهم (انظر الإصابة في تمييز الصحابة ١٦٧/٢-١٦٨ ترجمة رقم ٣٩٨٢).

٣- صفين هو موضع يقرب الرقة على شاطئ الفرات في العراق من الجانب الغربي بين الرقة وبالس، وفيها حدثت موقعة صفين بين علي ومعاوية رضي الله تعالى عنهما سنة ٣٧هـ (انظر معجم البلدان ٤١٤/٣).

٤- سهل بن حنيف بن واهب بن العكيم بن ثعلبة بن مجدعة بن الحارث أبو ثابت الأنصاري الأوسي العوفي شهد بدرًا وكان من أمراء علي رضي الله عنه مات بالكوفة سنة ثمان وثلاثين وصلى عليه علي رضي الله عنهما وحديثه في الكتب الستة (انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ٥٧٢/٢-٥٧٣ رقم (٢٢٨٩) وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ١٦٥/٣-١٦٦ رقم (٣٥٤٠) وانظر سير أعلام النبلاء ٣٢٥/٢).

٥- الحديبية قرية متوسطة، سميت ببئر هناك عند الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها. قال الخطابي: سميت الحديبية بشجرة حديباء كانت في ذلك الموضع وبين الحديبية ومكة مرحلة وبينها وبين المدينة تسع مراحل (انظر معجم البلدان ٢٢٩/٢).

٦- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجزية والموادعة باب (بدون اسم) ٧٠/٤ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسير باب صلح الحديبية في الحديبية ١٤١١-١٤١٢ رقم (١٧٨٥).

بادئ الأمر، بل لعله ﷺ قدّر صلابة موقف عمر -رضي الله عنه- محاوراً لم يعتقد أنه حق .
ثم إن عمر -رضي الله عنه- هو الذي راجع نفسه لما بُينت له حكمة ذلك الصلح الذي عدّه القرآن (فتحاً مبيناً) .

ومثل عمر -رضي الله عنه- من يبادر فيعترف بالخطأ بمثل الشجاعة التي واثته حين حاول إبداء رأيه عن طريق الحوار دون أن يخشى لومة لائم .

غير أنني لا أقصد من هذا أن الصحابة -رضي الله عنهم- كانوا يُدلّون بآرائهم قبل رأي الرسول ﷺ أو يحاورون فيما تبين لهم فيه أنه حكم الله، وقد تقدم قول سعد بن معاذ وسعد بن عباد -رضي الله عنهما- لرسول الله ﷺ : (يا رسول الله أوحى من السماء فالتسليم لأمر الله أو عن رأيك أو هواك؟ فرأينا تبع هواك ورأيك فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا والله لقد رأيتنا وإياهم على سواء ما ينالون منا ثمرة إلا شراء أو قرى^(١)) .

وخلاصة القول: إن الرسول ﷺ لم ينكر عليهم الحوار مادام الغرض منه حسناً .

ثالثاً: الاستدلال بالآثار

ومما أثر عن السلف الصالح حوار المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة . والتي انتهت بمبايعة أبي بكر -رضي الله عنه- خليفة للمسلمين بعد الخلاف والحوار الطويل الذي كان بين أبي بكر وعمر وأبي عبيدة^(٢) -رضي الله عنهم- من جانب وبين سعد بن عباد والحباب بن المنذر^(٣) -رضي الله عنهما- من جانب آخر .

١- سبق تخريجه ص ٤٧ هامش (٦) .

٢- أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح أحد السابقين الأولين يجتمع في النسب مع النبي ﷺ في فهر شهد له النبي ﷺ بالجنة، وسماه أمين الأمة ومناقبه شهيرة جمة روى أحاديث معدودة وغزا غزوات مشهودة توفي سنة ثمان عشرة وله ثمان وخمسون سنة (انظر صفة الصفوة ١/١٩٢، وانظر سير أعلام النبلاء ١/٥-٢٣) .

٣- الحباب بن المنذر بن الجُمُوح بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري الخزرجي ثم السلمي يكنى بأبي عمر . شهد بدرًا وهو الذي قال يوم السقيفة أنا جذيلها المحكك وعذيقتها المرجب (انظر الإصابة في تمييز الصحابة ٩/٣) .

وكذا حوار عبدالله بن عباس -رضي الله تعالى عنهما- للخوارج^(١) بأمر علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وما أنكر أحد من الصحابة قط الحوار ولا الجدال في طلب الحق .

رابعاً: الاستدلال بأقوال الأئمة والعلماء

أ- قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وُقِيَ بموجب العلم والإيمان ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس ولا أفاد كلامه العلم واليقين)^(٢).

ب- ومثله كلام ابن القيم^(٣) -رحمه الله- عند ذكره للفوائد من قصة وفد نجران^(٤) حيث قال: (ومنها جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم واستحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم، وإقامة الحججة عليهم، ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحججة فليول ذلك إلى أهله وليخل بين المطي^(٥) وحاديها والقوس وباريها)^(٦).

١- سبق تخريجه ص ٣٨ هامش (٥) .

٢- درء تعارض العقل والنقل (١/٣٥٧)، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام بن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٣- هو العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، إمام الجوزية وابن قيمها ولد سنة ٦٩١هـ اشتغل بالعلم ولأزم ابن تيمية بعد رجوعه من مصر له من التصانيف الشيء الكثير توفي -رحمه الله- سنة ٧٥١هـ. (انظر البداية والنهاية ١٤/٢٤٦-٢٤٩، وانظر البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ٢/١٤٣).

٤- نجران: النجران في كلامهم خشية يدور عليها وتاج الباب ونجران يطلق على عدة مواضع منها: نجران في مخاليف اليمن من ناحية مكة كانت تدين بالنصرانية حتى فتحت صلحا في عهد النبي ﷺ في سنة عشر. ونجران أيضاً موضع بالبحرين وموضع بحوران من نواحي دمشق (انظر معجم البلدان ٥/٢٦٦-٢٧٠).

٥- المطية من الدواب التي تمط في سيرها ومنه الناقة التي يمتطي ظهرها وجمعه مطايا ومطي (انظر لسان العرب ٢٠/١٥٣-١٥٤ فصل الميم حرف الواو والياء).

٦- انظر زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/٦٣٩) لابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، الطبعة السادسة والعشرون ١٤١٢هـ، الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت ومكتبة المنار الإسلامية الكويت.

* أدلة المانعين للحوار والجدال والمناظرة :

استدل المانعون للحوار والجدال والمناظرة بأدلة من القرآن والسنة والآثار المروية عن بعض السلف الصالح ومن هذه الأدلة :

أولاً : استدلالهم بالقرآن الكريم :

١- قال تعالى : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾^(١) قال ابن كثير - رحمه الله - : (ما يدفع الحق ويجادل منه بعد البيان وظهور البرهان إلا الجاحدون لآيات الله وحُججه وبراهينه)^(٢) .

٢- قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾^(٣) .

فالذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ظاهرة واضحة جاءتهم من الله - عز وجل - إنما يحملهم على ذلك كبر في قلوبهم^(٤) .

٣- ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾^(٥) .

والمعنى إن من يجادل أحداً من المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عن طريق الهدى؛ حجتهم باطلة ولا ثبات لها وعليهم غضب من ربهم، ولهم عذاب شديد .

قال مجاهد^(٦) : (جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله ليصدوهم عن الهدى وطمعوا أن تعود الجاهلية)^(٧) .

١- غافر: ٤ .

٢- تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٧١ .

٣- غافر: ٥٦ .

٤- انظر فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ٤ / ٤٩٧ تأليف محمد بن علي الشوكاني ١٤٠٣هـ، الناشر: دار الفكر، بيروت - لبنان .

٥- الشورى: ١٦ .

٦- مجاهد بن جبر المكي أبو الحجاج المخزومي المقرئ مولى السائب بن أبي السائب ولد سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر كان عالماً بالتفسير عرض القرآن على ابن عباس ثلاث مرات يقف عند كل آية ويسأله عنها فيم نزلت؟ توفي سنة اثنتين ومائة وقيل ثلاث ومائة وهو ساجد في مكة وله من العمر ثلاث وثمانون سنة (انظر تهذيب التهذيب ٤ / ٢٥-٢٦) .

٧- تفسير القرآن العظيم ٤ / ١١١ وانظر فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ٤ / ٥٣١ .

٤- ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾^(١)
أي لا تحاجج عن الذين يخونون أنفسهم فالله لا يحب من كان خواناً أثيماً،
(وخواناً) أبلغ لأنه من أبنية المبالغة، وإنما كان ذلك لعظم قدر تلك الخيانة^(٢).

ثانياً: استدلالهم بالسنة

١- عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: قالت قال رسول الله ﷺ: «أبغض الرجال
إلى الله الألد الخصم»^(٣).

قال الإمام -النووي^(٤)- يرحمه الله-: (الألد شديد الخصومة مأخوذ من لذيدي
الوادي وهما جانباه، لأنه كلما احتج عليه بحجة أخذ في جانب آخر.
وأما الخصم فهو الحاذق بالخصومة، والمذموم هو الخصومة بالباطل في رفع حق أو
إثبات باطل)^(٥).

٢- وحديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- الذي قالت فيه:

«تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ
مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرٌ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ إلى قوله ﴿وَمَا يَذَّكُرُ إِلَّا أَلْو الْأَلْبَابِ﴾^(٦).
فقال يا عائشة: «إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عناهم الله
فاحذروهم»^(٧).

١- النساء: ١٠٧.

٢- الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٣٧٨ تأليف أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي الناشر: دار الكاتب العربي
للطباعة والنشر

٣- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب قوله تعالى ﴿ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد
الخصام﴾ ٨/ ١٨٨، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب العلم باب الألد الخصم (٤/ ٢٠٥٤ رقم ٢٦٦٨).

٤- شيخ الإسلام محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام
الفيقيه الشافعي الحافظ الزاهد أحد الأعلام النووي الدمشقي. ولد في محرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة وقرأ القرآن
ببلده وقدم دمشق بعد تسع عشرة سنة من عمره. كان زاهدا ورعا صرف جل وقته في طلب العلم والعمل به توفي ليلة
الأربعاء سنة ٦٧٦هـ (انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٥/ ٣٥٤-٣٥٦).

٥- صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/ ٢١٩ كتاب العلم باب (الألد الخصم) الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ - الناشر: المطبعة
المصرية بالأزهر.

٦- آل عمران: ٧.

٧- سبق تخريجه ص ٢٧ هامش (٣).

قال الإمام النووي: (وفي هذا الحديث التحذير من مخالطة أهل الزيغ وأهل البدع ومن يتبع المشكلات للفتنة فأما من سأل عما أشكل عليه منها للاسترشاد وتلطف في ذلك فلا بأس عليه وجوابه واجب، وأما الأول فلا يجاب بل يزجر ويعزر^(١) .

٣- عن أبي أمامة^(٢) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيم بيت في ربض^(٣) الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققاً وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً أو بيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»^(٤) .

وفي هذا الحديث وعد من الرسول ﷺ ببيت في ربض الجنة لمن ترك الجدال كسراً لنفسه - وإن كان محققاً - كيلا يرفع نفسه على خصمه بظهور فضله عليه^(٥) .

٤- قال ابن عبدالبر^(٦) -رحمه الله- في باب: (ما يكره فيه المناظرة والجدال والمراء) ما نصه: (الآثار كلها في هذا الباب المروية عن النبي ﷺ إنما وردت في النهي عن الجدال والمراء في القرآن)^(٧) .

-
- ١- صحيح مسلم بشرح النووي ٢١٨/١٦ كتاب العلم باب النهي عن إتباع متشابه القرآن والتحذير منه .
 - ٢- أبو أمامة هو صدي بن عجلان بن الحارث الباهلي مشهور بكنتيته روى عن النبي ﷺ وعن عمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة ومعاذ وغيرهم رضي الله تعالى عنهم توفي سنة ٨٦هـ وقيل غيرها وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، (انظر سير أعلام النبلاء ٣/٣٥٩-٣٦٣) .
 - ٣- ربض الجنة: ما حولها خارجاً عنها تشبيهاً بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القلاع (انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/١٨٥) .
 - ٤- أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب اجتناب البدع والجدال ١/١٩-٢٠ رقم ٥١، وأخرجه أبو داود كتاب الأدب باب في حسن الخلق ٤/٢٥٣ رقم ٤٨٠٠ وأخرجه الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في المراء ٣/٢٤٢ رقم ٢٠٦١ وقال الترمذي حديث حسن وأخرجه النسائي كتاب الجهاد باب لمن أسلم وهاجر وجاهد ٦/٢١ رقم ١٣٣٣
 - ٥- انظر عون المعبود شرح سنن أبي داود ١٣/١٥٦ ضبط وتحقيق عبدالرحمن بن محمد بن عثمان الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ - الناشر مكتبة ابن تيمية القاهرة .
 - ٦- هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي إمام عصره في الحديث والأثر . كان لديه بسطة كبيرة في علم النسب . قيل عنه أحفظ أهل المغرب، توفي يوم الجمعة سنة ثلاث وستين وأربعمائة بمدينة شاطئه من شرق الأندلس (انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٧/٦٦-٧١) .
 - ٧- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله ٢/٩٢ لأبي عمر يوسف ابن عبدالبر النمري القرطبي الأندلسي الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ١٣٩٨هـ .

ثالثاً: استدلالهم بالآثار:

- ١- قال أبو الدرداء^(١) -رضي الله عنه- (كفى بك إثماً أن لا تزال ممارياً)^(٢).
- ٢- قال عمر بن عبدالعزيز^(٣) -رحمه الله-: (من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنفل)^(٤).
- ٣- وقال مسلم بن يسار^(٥) -رحمه الله-: (إياكم والمرء فإنه ساعة جهل العالم، وعندها يبتغي الشيطان زلتة)^(٦).
- ٤- قال ميمون بن مهران^(٧) -رحمه الله-: (إياك والخصومة والجدال في الدين، لاتجادلن عالماً ولا جاهلاً، أما العالم فإنه يخزن عنك علمه ولا يبالي ما صنعت، وأما الجاهل فإنه يخشن بصدرك ولا يطيعك)^(٨).

١- أبو الدرداء هو عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجي حكيم هذه الأمة وسيد القراء بدمشق روى عن النبي ﷺ عدة أحاديث توفي سنة اثنتين وثلاثين للهجرة (انظر صفة الصفوة ١/ ٣١٨-٣١٩ وانظر سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٣٥، ٣٥٣).

٢- أخرجه الدارمي في المقدمة باب من قال العلم الخشية وتقوى الله ١/ ١٠٠-١٠١ رقم ٢٩٣، وأخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ لا تزال محاصماً باب ما جاء في المرء ٤/ ٣٥٨-٣٥٩ رقم ١٩٩٤.

٣- عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم بن أمية الخليفة الزاهد والإمام الحافظ أمير المؤمنين كنيته أبو حفص ولد سنة ثلاث وستين وتولى الخلافة سنة ٩٩هـ بعد سليمان بن عبد الملك عده الشافعي خامس الخلفاء الراشدين توفي رحمه الله سنة ١٠١هـ. (انظر تهذيب التهذيب ٣/ ٢٤٠ وانظر سير أعلام النبلاء ٥/ ١١٤-١٤٥).

٤- أخرجه الدارمي في المقدمة باب من قال العلم الخشية وتقوى الله ١/ ١٠٢، رقم ٣٠٤.

٥- مسلم بن يسار القدوة الفقيه الزاهد أو عبدالله البصري أصله من مكة سكن البصرة وروى عن بعض الصحابة. قال عنه ابن عون: كان لا يفضل عليه أحد في زمانه. توفي يرحمه الله سنة إحدى ومائة (انظر صفة الصفوة ٣/ ١٥٩-١٦٠، وانظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٥١٠-٥١٤ وانظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٢/ ٢٩٠ للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني الطبعة الخامسة ١٤٠٧هـ، الناشر: دار الكتاب العربي، دار الريان للتراث).

٦- أخرجه الدارمي في المقدمة باب اجتناب أهل الأهواء والبدع والخصومة ١/ ١٢٠، رقم ٣٩٩.

٧- ميمون بن مهران الجزري أبو أيوب الرقي الفقيه ولد سنة أربعين ونشأ بالكوفة ثم نزل الرقة - روى عن عمر والزبير وعائشة وابن عباس وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهم. وغيرهم كثير قال سعيد بن عبدالعزيز، عن سليمان بن موسى، كان علماء الناس في زمان هشام هؤلاء الأربعة، فذكر منهم ميمون توفي سنة ست عشرة ومئة بالجزيرة (انظر تهذيب التهذيب ٤/ ١٩٨-١٩٩).

٨- أخرجه الدارمي في المقدمة باب من قال العلم الخشية وتقوى الله ١/ ١٠٢، رقم ٣٠٢.

الجمع بين الأدلة :

بعد التأمل في أدلة المجيزين للحوار والمانعين له يتبين—بحمد الله— أنه لا تعارض بينهما لأن أدلة المثبتين تدل على وجوب واستحسان الحوار لنصرة الحق وإقامة الحججة والبرهان لتبليغ رسالة الله والدفاع عنها، وهذه وظيفة الرسل—عليهم الصلاة والسلام—والدعاة المصلحين .
وبهذا يندفع الإشكال ويتضح الأمر . وتُحمل أدلة المثبتين له القائلين بجوازه لنصرة الحق وتبليغ دعوة الله سبحانه . وتُحمل أدلة المانعين للحوار الدامين له على الحوار لنصرة الباطل وهوى النفس .

وبهذا يتضح أنه لا تعارض في الواقع بين أدلة الطرفين المتنازعين وهو المطلوب . ومن خلال هذا العرض يتبين لنا بياناً لا لبس فيه أن الحوار تارةً يكون بالحق، وتارةً يكون بالباطل، وهذا هو المنهج الذي يؤيده العقل والنقل .

الحوار المذموم :

وهو كل حوار ظاهر الباطل، أو أفضى إليه . والأدلة في ذلك كثيرة سواءً من الكتاب والسنة أو من أقوال سلف الأمة في ذم الحوار بالباطل .

ومن هذه الأدلة ما تقدم من النصوص في ذم الحوار مطلقاً مما يغني عن الإعادة^(١) .

والحوار المذموم قسمان :

- ١- حوار بغير علم، كالذي يدافع قبل أن يعلم الحق في أي جانب .
- ٢- حوار لنصرة الباطل بالشَّعْب والتمويه كالذي يمزج حوارهِ بكلمات مؤذية لا حاجة لها في نصرة الحججة وإظهار الحق^(٢) .

ومما تقدم من أنواع الحوار يتبين لنا ما يلي :

١- انظر المطلب الأول من هذا المبحث ص ٥٠-٥٣ .
٢- انظر تهذيب موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي ص ٢٢١ تأليف الشيخ: جمال الدين القاسمي راجعه وحقق أحاديثه محمود مهدي الاستامبولي ومحمد عيد عباسي . الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ . الناشر: دار ابن القيم للنشر والتوزيع .

- ١- أن الحوار تارةً يكون بالحق، وتارةً يكون بالباطل، والحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا، وحيث وُجد الحق كان مباحاً أو واجباً وحيث وُجد الحوار بالباطل كان محرماً، وذلك على حسب المقامات التي تقتضيها بواعث الحوار.
- ٢- أنه لا تعارض بين النصوص الواردة في النهي عن الحوار والنصوص الواردة في الأمر به لأننا نعلم يقيناً أن الحوار الذي أمر الله به غير الحوار الذي نهى عنه، فتحمّل نصوص النهي عن الحوار بالباطل ونصوص الأمر به على الحوار بالحق فتدفع الإشكال الذي قد يعرض لبُسطاء الناس.
- ٣- أن الحوار بالحق لإقامة الحجّة على أهل الإلحاد والبدع من الجهاد في سبيل الله كما جاء في الحديث عن أنس^(١) -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»^(٢) وإنما يكون الجهاد باللسان بتبيان الحق بالحجة والبرهان، لا بالشغب والهذيان والسب والشتم.
- ٤- أن الحوار بالباطل هدم لكيان المجتمع الإنساني، فكم حصل بسببه من الويلات بين الأفراد والجماعات، وكم من صراع فكري تحول إلى صراع دموي نتيجة الخوض في الباطل وعدم الإصغاء إلى برهان الحق ومنطق البيان.
- ٥- أن البشرية كلما احتكمت في فضّ نزاعاتها إلى منطق الحجّة والبرهان والتزمت آداب الحوار، كانت أقرب إلى السمو والإنسانية مما لو لجأت إلى منطق القوة والسلاح.

١- أنس بن مالك بن ضميم الأنصاري الخزرجي خادم رسول الله ﷺ وتلميذه وآخر أصحابه موتاً، روى عن النبي ﷺ علماً جماً وكان ملازماً لصحبتة ﷺ، توفي رحمه الله بالبصرة سنة ٩٣ من الهجرة وله من العمر مائة وثلاث سنوات (انظر صفة الصفوة ١/ ٣٦١-٣٦٢ وانظر سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٩٥-٤٠٦).

٢- أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد باب كراهية ترك الغزو (١٠/٣) رقم ٢٥٠٤ وأخرجه النسائي كتاب الجهاد باب وجوب الجهاد ٦/٧، وأخرجه ابن حبان ٦/١١ رقم ٤٧٠٨ والحاكم ١٢/٣٧٨ رقم ٣٤١٠. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وصححه الألباني في سنن ابن ماجه ٢/٤٧٥ رقم (٢١٨٦).

المطلب الثاني : حياة موسى - عليه السلام - :

اسمه ونسبه :

هو موسى^(١) بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .
ولد لاوي ليعقوب وهو ابن تسع وثمانين سنة، وولد قاهث للاوي وهو ابن ست وأربعين سنة، وولد لقاهث يصهر، وولد عمران ليصهر وله ستون سنة، وكان عمره جميعه مائة وسبعاً وأربعين سنة. وولد موسى ولعمران سبعون سنة، وكان عمر عمران جميعه مائة وسبعاً وثلاثين سنة^(٢). وكان اسم أمه يوخابد^(٣).

وكان فرعون مصر^(٤) في أيامه قابوس بن مصعب^(٥) صاحب يوسف^(٦) الثاني، وكانت امرأته آسية بنت مزاحم^(٧) فلما نودي موسى كان قابوس بن مصعب قد مات، وقام أخوه

- ١- سُمي موسى لأنه وجد في ماء وشجر والماء بالقبطية (مو) والشجر (سا) (انظر تاريخ الرسل والملوك ١ / ٣٩٠).
- ٢- الكامل في التاريخ ص ١٣٠ وانظر تاريخ الرسل والملوك ص ١ / ٣٨٥ .
- ٣- قيل يوحاند (انظر الكامل في التاريخ ١ / ١٣٠) وقيل باخته (انظر تاريخ الرسل والملوك ١ / ٣٨٥) وقيل يوخابد بنت لاوي بن يعقوب (انظر معالم التنزيل ٦ / ١٩٠).
- ٤- سميت مصر بمصر بن مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام، وهي من فتوح عمرو بن العاص في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سكن بها خلق من العلماء منهم الشافعي وابن تيمية والليث بن سعد وغيرهم رحمهم الله (انظر معجم البلدان ٥ / ١٣٧ وانظر آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٦٣).
- ٥- قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن السلواس بن قاران بن عمرو بن عملان بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام وهو رجل من العماليق وكان كافراً فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى أن يقبل (انظر تاريخ الرسل والملوك ١ / ١٧٢).
- ٦- يوسف عليه السلام هو الكريم بن الكريم بن الكريم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، قُسم له ولأمه من الحسن ما لم يقسم لكثير من الناس. أُلقي في الحب وعمره سبع عشرة سنة وخرج منه إلى مصر غاب عن أبيه ثمانين سنة وأرسل وعمره أربعون سنة عليه السلام توفي وعمره مائة وعشرين سنة. (انظر تاريخ الرسل والملوك ١ / ٣٣٠ - ٣٦٤، انظر البداية والنهاية ١ / ١٨٤ - ٢٠٦ وانظر الكامل في التاريخ ١ / ١٨٤ - ١١٨).
- ٧- آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد بن فرعون يوسف الأول. وقيل كانت من بني اسرائيل، وهي زوجة فرعون موسى التي كفلت موسى وهو صغير وتحملت العذاب في سبيل ذلك. بشرها الله سبحانه وتعالى ببيت في الجنة جزاء صبرها وإيمانها - (انظر تاريخ الرسل والملوك ١ / ٣٨٦ - ٣٩٠ وانظر البداية والنهاية ١ / ٢٢٤ وانظر الكامل في التاريخ ١ / ١٣٠ - ١٣٣).

الوليد بن مصعب مكانه، وكان أعتى من قابوس وأكفر وأفجر، وأمر بأن يأتيه هو وأخوه هارون بالرسالة.

وقد أشار الله -تبارك وتعالى- إلى الحالة التي كانت سائدة في مصر عند ميلاد موسى عليه السلام- في قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١). حيث بلغ ظلم فرعون وبغيه على بني إسرائيل أقصى حدود الطغيان والفساد، فجعل أهلها شيعاً، يقرب بعضهم ويستضعف طائفة منهم وهم (بنو إسرائيل)، فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويستعمل معهم صنوف الذلة، وأنواع الهوان والعذاب.

فأراد الله أن يمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض من بني إسرائيل وكانوا يومها محصورين في مصر، وأن يُبدلَ خوفهم أمناً، وأن يُمكنَ لهم في الأرض، وأن يجعل منهم أئمة هدى، ويجعلهم الوارثين^(٢) قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٣).

ولادته: كان الحقد والبغض لبني إسرائيل قد اشتعل في قلب فرعون وهامان^(٤) وجنودهما بسبب ما ألقى في روعهم أن زوال ملكهم، وتدميرهم سيكون على يد رجل من

١- القصص: ٤.

٢- انظر قصص الأنبياء، القصص الحق ص ١٧٥ تأليف: عبدالقادر شيبه الحمد الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ الناشر: مكتبة الرياض الحديثة.

٣- القصص: ٥.

٤- هو هامان بن همدان الأجاجي أحد وزراء الملك «أشعوريس» وكان عدواً لليهود عاملاً على إبادةهم. وقد أطبق الباحثون عن تواريخ بني إسرائيل وفرعون أن هامان ما كان موجوداً البتة في زمان موسى وفرعون وإنما جاء بعدهما بزمان مديد، ثم إن هذا الشخص المسمى بهامان الموجود في زمان فرعون لم يكن شخصاً خسيساً بل كان كالوزير لفرعون. يقول الإمام الرازي:

(إن وجود شخص يسمى بهامان بعد زمان فرعون لا يمنع من وجود شخص آخر يسمى بهذا الاسم في زمانه ثم إن تواريخ موسى وفرعون قد طال العهد بها واضطربت الأحوال والأدوار فلم يبق على كلام أهل التواريخ اعتماد في هذا الباب) (مفاتيح الغيب ٢٧/ ٦٧، تأليف الإمام فخر الدين أبي عبدالله محمد بن عمر بن الحسين الرازي، الطبعة الثالثة، الناشر: دار إحياء التراث العربي).

بني إسرائيل الذي وعد به الخليل إبراهيم - عليه السلام - حينما وردّ الديار المصرية وجرى له مع جبارها ما جرى حين أخذ سارة^(١) ليتخذها جارية فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه فبشر إبراهيم - عليه السلام - ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك الأقباط على يديه، فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون فاحترز فرعون من ذلك وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل^(٢)، ولكن الحذر لا ينجي من القدر، فأراد الله عز وجل أن يري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون كما أخبر القرآن الكريم بذلك.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾^(٣)

وقيل: إن فرعون رأى في منامه كأن ناراً أقبلت من بيت المقدس^(٤) حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط، وتركت بني إسرائيل فدعى السحرة، والكهنة، فسألهم عن رؤياه، فقالوا يخرج من هذا البلد يعنون بيت المقدس الذي جاء بنوا إسرائيل منه رجل يكون على وجهه هلاك مصر، فأمر أن لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح، ويترك الجواري، وقال للقبط: انظروا ممالئكم الذين يعملون خارجاً فأدخلوهم واجعلوا بني إسرائيل يلون ذلك فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم^(٥)، فذلك حين يقول الله عز وجل:

١- سارة هي ابنة هاران الأكبر عم إبراهيم عليه السلام، وقيل كانت ابنة ملك حران آمنت بالله تعالى مع إبراهيم، وكانت من أحسن الناس وجهاً. كان إبراهيم عليه السلام يحبها حباً شديداً لدينها وقرابتها منه وحسنها، رزقت منه بإسحاق وهي كبيرة السن عمرها تقريبا تسعون سنة وماتت وهي ابنة سبع وعشرين ومائة. (انظر تاريخ الرسل والملوك ١/٢٤٤-٢٤٩ وانظر البداية والنهاية ١/١٤١-١٥٢ وانظر الكامل في التاريخ ١/٧٧).

٢- تفسير القرآن العظيم ٣/٣٨١.

٣- القصص: ٥-٦.

٤- بيت المقدس: أي البيت المقدس المبارك وهو ثالث المساجد التي يشد إليها الرحال، وينسب إليه جماعة من العلماء الصالحين (معجم البلدان ٥/١٦٦-١٧٢).

٥- انظر الكامل في التاريخ ١/١٣١.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١) فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح، وكان يأمر بتعذيب الحبالى حتى يضعن، فكان يشقق القصب، ويوقف المرأة عليه فيقطع أقدامهن وكانت المرأة تضع فتتقي بولدها القصب.

قال مجاهد: (لقد ذكر لي أنه كان يأمر بالقصب فيشق حتى يجعل أمثال الشفار ثم يصف بعضه إلى بعضه، ثم يأتي بالحبالى من بني إسرائيل فيوقفهن عليه فيحز أقدامهن، حتى إن المرأة منهن لتضع بولدها فيقع بين رجلها فتظل تطؤه تتقي به حز القصب عن رجلها لما بلغ من جهدها، حتى أسرف في ذلك، وكاد يفنيهم قليل له: أفنيت الناس وقطعت النسل وإنهم خولك وعمالك، فأمر أن يقتل الغلمان عاماً ويستحيوا عاماً فولد هارون^(٢) في السنة التي يستحيا فيها الغلمان، وولد موسى في السنة التي فيها يقتلون، فكان هارون أكبر منه بسنة^(٣)).

وكان لفرعون ناسٌ موكلون بذلك وقوابل يدُرن على النساء فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها، فإذا كان وقت ولادتها لا يقبلها إلا نساء القبط، فإن ولدت المرأة جاريةً تركنها وذهبين، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا قبحهم الله.

فلما حملت أم موسى به -عليه السلام- لم تظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ولم تفتن لها القوابل، ولكن لما وضعت ذكرًا ضاقت به ذرعاً، وخافت عليه خوفاً شديداً، وأحبتة حباً زائداً وكان موسى -عليه السلام- لا يراه أحداً إلا أحبه ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾^(٤).

١- القصص: ٤.

٢- هو هارون بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ولد هارون قبل موسى عليهما السلام بسنة وهي السنة التي لم يؤمر فيها بذبح الغلمان وكان هارون أحب لبني إسرائيل من موسى لأنه أكف عنهم وألين لهم من موسى عليه السلام (انظر الكامل في التاريخ ١/ ١٣٠).

٣- قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أم موسى لما تقاربت ولادتها، كانت قابلة من القوابل التي وكلهن فرعون بحبالى بني إسرائيل مصافية لأم موسى، فلما صرب بها الطلق أرسلت إليها فقالت: قد نزل بي ما نزل، فليتنفعي حبك أي أي اليوم قالت: فعالجت قبالتها، فلما أن وقع موسى بالأرض هالها نور بين عيني موسى، فارتعش كل مفصل فيها، ودخل حب موسى قلبها، ثم قالت لها يا هذا ما جئت إليك حين دعوتين إلا ومن رأيي قتل مولودك ولكن وجدت لابنك هذا حيا ما وجدت حب شيء مثل حبه، فاحفظي ابنك فإني أراه هو عدونا. (انظر معالم التنزيل ٦/ ١٩١).

٤- طه: ٣٩.

أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر - شك إسحاق - فأعطي ناقه عشراء، وقال: بارك الله لك فيها. قال فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال شعر حسن ويذهب عني الذي قد رني الناس به فمسحه فذهب عنه وأعطي شعراً حسناً فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر أو الإبل فأعطي بقرة حاملاً، قال: بارك الله لك فيها. فأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس، فمَسَحَهُ فردَّ الله إليه بصره، قال، فأبي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شاة والداً فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر ولهذا وادٍ من الغنم... إلخ الحديث^(١). كما أن الملائكة سلّمت على عمران بن حصين^(٢) فلم يكن بذلك نبياً وذلك كما جاء في الحديث أنه - رضي الله تعالى عنه - قال: (نهى النبي ﷺ عن الكي فاكتويننا فما أفلحنا ولا أنجحنا) قال أبو داود: (وكان يسمع تسليم الملائكة فلما اكتوى انقطع عنه فلما ترك رجع إليه)^(٣).

فالمقصود أن أم موسى - عليه السلام - لما وضعت اتخذت له تابوتاً ومهدت فيه مهداً وجعلت ترضع ولدها فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعت في ذلك التابوت وسيرته في البحر^(٤).

١- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل (٤/١٤٦-١٤٧).
٢- هو عمران بن حصين بن عبيد بن خلف الإمام القدوة صاحب رسول الله ﷺ أبو نجيد الخزاعي أسلم سنة سبع وله عدة أحاديث. تولى قضاء البصرة في زمن عمر بن الخطاب وكان ممن اعتزل الفتنة ولم يحارب مع علي توفي سنة اثنين وخمسين من الهجرة (انظر سير أعلام النبلاء ٢/٥٠٨-٥١١).
٣- أخرجه أبو داود في كتاب الطب باب في الكي. رقم ٣٨٦٥.
٤- انظر تاريخ الرسل والملوك ١/٣٨٩.

التقاط آل فرعون لموسى :

قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾^(١).

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي^(٢) - رحمه الله -:

(وعند التدبر والتأمل تجد في طي ذلك من المصالح لبني إسرائيل، ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم، ومنع كثير من التعدييات قبل رسالته، بحيث إنه صار من كبار المملكة وبالطبع لا بد أن يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه، وهو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة)^(٣).

فالله - عز وجل - يلقي بين يدي فرعون وهامان وجنودهما ذلك الطفل الذي كان على يده هلاكهم أجمعين، مجرداً من كل قوة ومن كل حيلة^(٤)، عاجزاً أن يدفع عن نفسه أو حتى يستنجد بأحد، ويقتحم به على فرعون حصنه وهو الطاغية السفاح المتجبر، ولا يتعبه في البحث في بيوت بني إسرائيل، وفي أحضان نسائهم الوالدات ليكون لهم عدواً يتحداهم وحزناً يدخل إليهم في قلوبهم.

١- القصص : ٨.

٢- هو أبو عبدالله عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر آل سعدي من قبيلة تميم ولد في بلدة عنيزة في القصيم عام ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة توفيت أمه وله من العمر أربع سنين توفي والده وله سبع سنين فتربى يتيماً قرأ القرآن وحفظه على يد سليمان بن دافع في مدرسته بأم خممار ثم حفظه عن ظهر قلب وعمره أحد عشر سنة وقرأ في علم الحديث والمصطلح والأصول والفروع والتفسير. جلس للتدريس عام ١٣٥١هـ وكان يميل في فتاويه ومؤلفاته إلى اختيارات ابن تيمية وابن القيم توفي -يرحمه الله- عام ١٣٧٦هـ عن تسع وستين سنة قضاها في العلم تعلماً وتعليماً وافئاء (انظر روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين ١/ ٢٢٠-٢٢٥ تأليف: محمد بن عثمان بن صالح بن عثمان القاضي الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، الناشر: مطبعة الحلبي، وانظر علماء نجد خلال ستة قرون ٢/ ٢٢، تأليف: الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن صالح البسام الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ، الناشر: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة - مكة المكرمة، وانظر صفحات من حياة علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تأليف: د، عبدالله بن محمد الطيار الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع).

٣- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٦/ ٧. للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: مركز صالح بن صالح الثقافي بعنيزة (١٤٠٧هـ).

٤- روي أن إِم موسى -عليه السلام- كانت إذا أرضعت طفلها وضعت في تابوت عندها بعد أن تربطه بحبل -كما ذكرت سابقاً- حتى كان ذات يوم فدخل عليها من تخافه فوضعت في التابوت وأرسلته في اليم وذهلت أن تربطه فاحتلمه الماء حتى مر به على دار فرعون فالتقطته الجوارى واحتملته إلى امرأة فرعون ولا يدرين ما فيه وقد ظنن أنه مالٍ فإذا به ذلك الطفل الذي احترزوا منه.

موقف زوجة فرعون من الطفل الملتقط :

لما فُتِحَ التابوت ونظرت إليه آسية بنت مزاحم وقعت عليها رحمته وأحبهته وذلك قوله تعالى : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ (١).

أحبه الله وحببه إلى خلقه فلا يلقاه أحد إلا أحبه من مؤمن وكافر (٢). وتظهر آثار هذه المحبة التي ألقاها الله على موسى -عليه السلام- والرعاية التي تكفل بها سبحانه من خلال موقف زوجة فرعون حينما هم فرعون الطاغية بقتله خشية أن يكون من بني إسرائيل (٣) فشرعت امرأته آسية تخاصم عنه وتذبّ دونه وتحببه إلى فرعون وقالت : ﴿قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ (٤) فقال فرعون : أما لك فنعم وأما لي فلا .

والبلاء موكل بالمنطق (٥) ، فهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ (٦).

١- طه : ٣٩ .

٢- زاد المسير في علم التفسير ٥ / ٢٨٤ .

٣- قال وهب : لما وضع التابوت بين يدي فرعون فتحه فوجد فيه موسى فلما نظر إليه قال عبراني من الأعداء فغاظه ذلك ، وقال كيف أخطأ هذا الغلام الذبيح ؟ فقالت آسية : هذا الوليد أكبر من ابن سنة وإنما أمرت أن يذبح الوندان لهذه السنة فدعه يكون قرّة لي ولك . وروي أنها قالت له : إنه آتانا من أرض أخرى ليس من بني إسرائيل (انظر معالم التنزيل ٦ / ١٩٣) .

٤- القصص : ٩ .

٥- البداية والنهاية ١ / ٢١٢٤ .

٦- القصص : ٨ .

حزن أم موسى على فراق ابنها :

بعد أن قذفت أم موسى -عليه السلام- بوليدها في اليم، ولم تعرف ما حصل له، وإلى أي شيء انتهى أمره، باتت حالتها شديدة من فرط حزنها على فراقه، وعدم معرفة حاله. ولا يعني حزنها وألمها أنها غير واثقة بوعد الله لها، ولكنها عاطفة الأمومة، ونداء الفطرة، حتى إنها كادت من شدة وجدها وحزنها لتظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها، ولكن الله الذي وعدا بأنه سيرجعه إليها لم يتركها هكذا، بل ثبتها وربط على قلبها.

يقول تعالى مصوراً حالتها: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وليس هناك تصوير أحسن من هذا وأبلغ، فإن قلبها أصبح فارغاً من كل شيء من أمور الدنيا إلا من ذكر موسى -عليه السلام- لفرط حزنها عليه^(٢).

إرسال أخته للبحث عنه :

بعد أن ثبت الله فؤاد أم موسى وطمأنها، بدأ سبحانه في إظهار أسباب ما أراده من إرجاعه لها، فحرم عليه المراضع: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾^(٣). والتحریم هنا هو المنع، وهو تحريم تكويني أي أن الله ألقى في نفس الطفل الامتناع عن التقام أثداء المراضع وكراهتها، وذلك ليضطر آل فرعون إلى البحث له عن مريض يقبل ثديها، لحرصهم على حياته.

وقد علمت أم موسى -عليه السلام-: أنهم يبحثون له عن مريض، فأرسلت أخته تتبع أثره، وتأخذ خبره وتطلب شأنه من نواحي البلد لعلها تعثر عليه ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه

١- القصص: ١٠.

٢- انظر جامع البيان في تفسير القرآن ٢٠/٢٣-٢٤ - وانظر تفسير القرآن العظيم ٣/٣٨١.

٣- القصص: ١٢.

٤- قيل اسمها مريم انظر معالم التنزيل ٦/١٩٤ وانظر الكامل في التاريخ ص ١٣٢.

فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جَنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١﴾ قال قتادة: (جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده) (٢). والتعبير بأخته دون بنتها للإشعار والتصريح بمدار المحبة الموجبة للامتثال بالأمر (٣).

وبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه إذ بصرت به أخته فلم تُظهر أنها تعرفه بل قالت: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ (٤).

قيل: لما قالت ذلك قالوا لها: ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه فقالت: رغبة في صهر الملك ورجاء منفعتة (٥). فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم.

عودة موسى - عليه السلام - إلى أمه:

فلما اطمأنوا إلى كلامها وذهبوا معها إلى منزلهم دخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحاً شديداً (٦) وذهب البشير إلى آسية يعلمها بذلك فاستدعتها إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها وأن تحسن إليها، فأبت عليها وقالت إن لي بعلاً وأولاداً ولست أقدر على هذا إلا أن ترسله معي، فأرسلته معها ورتبت لها رواتب وأجرت عليها النفقات والكساوى والهبات، فرجعت به تحوزه إلى رحلها، وقد جمع الله شمله بشملها (٧) ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٨).

وقد امتن الله على موسى - عليه السلام - بهذا حينما كلمه فقال له: ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ * أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ

١- القصص: ١١.

٢- تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٨٢.

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٥/ ٧ لابي السعود محمد بن محمد العمادي الناشر: دار إحياء التراث العربي. بيروت - لبنان.

٤- القصص: ١٢.

٥- البداية والنهاية ١/ ٢٢٥.

٦- قيل إنها لما قالت ﴿ هل أدلكم على أهل بيت ﴾ قالوا لها: من؟ قالت أمي، قالوا: ولا ملك ابن قالت: نعم هارون، وكان هارون ولد في سنة لا يقتل فيها قالوا: صدقت فأتينا بها وقيل إنها قالت هي امرأة قد قتل ولدها فأحب شيء إليها أن تجد صغيراً ترضعه (انظر معالم التنزيل ٦/ ١٩٥).

٧- انظر تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٨٢-٣٨٣.

٨- القصص: ١٣.

الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوُّ لِي وَعَدُوُّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي ﴿١﴾ .

نشأة موسى في قصر فرعون :

لما تحرك الغلام وشب حملته أمه إلى آسية فأخذته ترقصه وتلعب به، وناولته فرعون فلما أخذه إليه أخذ موسى بلحيته فنتفها، قال فرعون: عليّ بالذباحين يذبحونه هو هذا قالت آسية: قال تعالى: ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ (٢) إنما هو صبي لا يعقل، وإنما فعل هذا من جهل، وقد علمت أنه ليس في مصر امرأة أكثر حلياً مني فأنا أصنع له حلياً من ياقوت وجمراً فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه، وإن أخذ الجمر فإنما هو صبي، فأخرجت له ياقوتها، ووضعت له طشتاً من جمر، فجاء جبريل (٣) - عليه السلام - فوضع يده في جمره، فأخذها فطرحها موسى - عليه السلام - في فمه فأحرقت لسانه (٤) فهو الذي يقول الله تعالى: ﴿ وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ (٥) فدرأت عن موسى - عليه السلام - بتلك القتل .

كَبُرَ موسى - عليه السلام - فكان يركب مركب فرعون، ويلبس ما يلبس ويدعى موسى ابن فرعون، وامتنع به بنو إسرائيل ولم يبق قبطني يظلم إسرائيلياً خوفاً منه ثم إن فرعون ركب يوماً وليس عنده موسى، فلما جاء موسى قيل له: إن فرعون قد ركب، فركب في أثره فأدركه المقييل بأرض منف (٦) فدخلها نصف النهار (٧)، وليس في طرقها أحد (٨) فذلك قوله

١- طه : ٣٧-٣٩ .

٢- القصص : ٩ .

٣- قال الماوردي (جبريل) اسم معناه عبدالله لأن معنى (إيل) هو الله (وجبر) هو عبد قاله ابن عباس وليس له من المفسرين مخالف (النكت والعيون ١ / ١٤٠ تأليف : أبي الحسن علي بن حبيب الماوردي البصري الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ، الناشر : مطابع مقهوي الكويت، وانظر معالم التنزيل ١ / ١٢٥) وهو اسم أعجمي عربته العرب لها فيه تسع لغات لا مجال لذكرها في هذا المقام . (انظر الجامع لاحكام القرآن ٢ / ٣٨ وانظر زاد المسير في علم التفسير ١ / ١١٩) . ونقل ابن كثير في تفسيره أن اسم جبريل في الملائكة (خادم الله) (انظر تفسير القرآن العظيم ١ / ١٣٤) .

٤- الكامل في التاريخ ١ / ١٣٣ .

٥- طه : ٢٧-٢٨ .

٦- منف : اسم مدينة فرعون بمصر، قال القضاعي : أصلها بلغة القبط (ما فه) فعربت فقيل : (منف) ، ومعنى ما فه بلسان القبط ثلاثون، وبينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ وبينها وبين عين شمس ستة فراسخ وذكر بعضهم أن من مصر لمنف ثلاثين ميلاً كانت بيوتاً متصلة وفيها بيت فرعون (انظر معجم البلدان ٥ / ٢١٣-٢١٤) .

٧- وقيل : (على حين غفلة من أهلها) هو وقت القائلة واشتغال الناس بالقبيلولة (انظر معالم التنزيل ٦ / ١٩٦) ، قال ابن عباس ذلك بين المغرب والعشاء (انظر تفسير القرآن العظيم ٣ / ٣٨٣) .

٨- انظر تاريخ الرسل والملوك ١ / ٣٩١ .

– عز وجل –: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ ^(١) مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ^(٢) .

قال سعيد بن جبیر ^(٣): (لما بلغ موسى أشدّه، لم يكن أحد من آل فرعون يخلّص إلى أحد من بني إسرائيل بظلم حتى امتنعوا كل الامتناع، وكان بنو إسرائيل قد عزوا بمكان موسى لأنهم كانوا يعلمون أنه منهم، فوجد موسى رجلين يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل، والآخر من آل فرعون ﴿ فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ ^(٤) فغضب موسى واشتد غضبه، لأنه تناوله وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم، ولا يعلم الناس إلا أنه من قبل الرضاعة من أم موسى) ^(٥) ﴿ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ^(٦) .

قال مجاهد: (طعنه بجمع كفه)، وقال قتادة: (بعضا كانت معه) ^(٧)، ولم يرد موسى – عليه السلام – قتله بالكلية وإنما أراد زجره وردعه ومع هذا قال موسى: ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ ^(٨) .

فأصبح في المدينة خائفاً من فرعون وملئه أن يعلموا أن هذا القتل الذي رفع إليه أمره إنما قتله موسى في نصره رجل من بني إسرائيل فتقوى ظنونهم أن موسى منهم، ويترتب على

١- الوكر هو الطعن .، يقال وكزه وكزاً دفعه وضربه بجمع كفه مثل (نكزه) (انظر لسان العرب ٢٩٧/٧ فصل الواو حرف الزاي) .

٢- القصص: ١٥ .

٣- هو سعيد بن جبیر بن هشام الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد كنيته / أبو محمد ويقال أبو عبدالله الأسدي الوالبي أحد الأعلام ولد في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وقتل في شعبان سنة خمس وتسعين (انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٢/ ٣٧١-٣٧٤ رقم ٢٦١، وانظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٢١، ٣٤١ .

٤- القصص: ١٥ .

٥- انظر معالم التنزيل ٦/ ١٩٧ .

٦- القصص: ١٥-١٦ .

٧- تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٨٣ .

٨- القصص: ١٥ .

ذلك أمر عظيم، فصار يسير في المدينة خائفاً مترقباً، فبينما هو كذلك إذا ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه على آخر قد قاتله فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته، فقال إنك لغوي مبین، ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي فيردعه عنه ويُخَلِّصه منه فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي قال ﴿يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ﴾^(١).

قال بعضهم: إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذي اطلع على ما كان صنع موسى - عليه السلام - بالأمس وكأنه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه لما عنفه قبل ذلك بقوله: إنك لغوي مبین فقال ما قال لموسى وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس، فذهب القبطي فاستعدى موسى إلى فرعون.

ويحتمل أن قائل هذا هو القبطي، وأنه لما رآه مقبلاً إليه خافه ورأى من سجيته انتصاراً جيداً للإسرائيلي، فقال ما قال من باب الظن والفراسة أن هذا لعله قاتل ذاك القتل بالأمس أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دله على هذا^(٢).

خروجه إلى مدين وزواجه فيها :-

لما بلغ فرعون الخبر بأن موسى هو قاتل ذلك القبطي أرسل في طلبه وسبقهم إليه رجل^(٣) ناصح من طريق أقرب فقال له:

﴿يَا مُوسَى إِنْ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(٤) فخرج من مصر على وجهه بغير زاد ولا ظهر، ولم يكن له بالطريق علم^(٥) فسلك طريقاً

١- القصص: ١٩.

٢- البداية والنهاية ١/٢٢٦-٢٢٧.

٣- قيل أنه حزقيل مؤمن آل فرعون كان على بقية من دين إبراهيم عليه السلام وكان أول من آمن بموسى (انظر الكامل في التاريخ ١/١٣٤).

٤- القصص: ٢٠.

٥- انظر زاد المسير في علم التفسير ٦/٢١٢.

أوصلته إلى مدين^(١).

فلما ورد ماءها وكان لها بئر يرده رعاء الشاء ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ (٢) تَذُدَانِ﴾ (٣) أي تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا فلما رآهما موسى -عليه السلام- ورحمهما قال: ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (٤).

قال ابن كثير -رحمه الله-:

(كان الرعاء إذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى -عليه السلام- فرفع تلك الصخرة وحده، ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم رد الحجر كما كان (٥).

فلما سقى لهما وتولى إلى الظل قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٦).

وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال (٧).

فلقد سار موسى -عليه السلام- من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل وهو

١- مدين: يطلق هذا الاسم على الأرض الممتدة من طرف خليج العقبة شمالاً إلى قرب ميناء الوجه جنوباً هذا في العهد القريب، وقد بما كانت تشمل قسماً من فلسطين وسيناء. (انظر المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية القسم الثالث ص ١٢٧. تأليف حمد الجاسر الناشر: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر).

وفي معجم البلدان ٧٤/٥: مدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو ست مراحل وهي أكبر من تبوك وبها الصخر الذي استسقى فيها موسى عليه السلام لسائمة شعيب.

٢- اسم المرأتان: قيل: (صفورة)، (ليا) قاله شعيب الجبائي، وقال ابن اسحاق (صفورة) و(شرقاً)، وقال غيرهما، الكبرى (صفراء) والصغرى (صفراء). قيل إنما زوجه الكبرى وذهب أكثرهم إلى أنه زوجه الصغرى منهما واسمها (صفورة) وهي التي ذهبت لطلب موسى (انظر الدرر المنثور في التفسير بالمتأثر ٤٠٨/٦ للإمام جلال الدين السيوطي، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، وانظر زاد المسير في علم التفسير ٢١٦/٦-٢١٧، وانظر تفسير القرآن العظيم ٣/٣٨٦).

٣، ٤- القصص: ٢٣.

٥- البداية والنهاية ١/٢٢٧.

٦- القصص: ٢٤.

٧- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١٦/٦.

صفوة الله من خلقه وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خُصرة البقل لثرى من داخل جوفه وإنه محتاج إلى شِقِّ تَمْرَةٍ^(١).

لما جلس موسى -عليه السلام- في الظل وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾^(٢) سمعته المرأتان -فيما قيل- فذهبتا إلى أبيهما فاستنكر سرعة رجوعهما فأخبرتا ما كان من أمر موسى -عليه السلام- فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه فجاءته إحداهما تمشي على استحياء^(٣) أي مشي الحرير قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرًا مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾^(٤).

وهذا تأدب في العبارة، إذ لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يُوهَم ريبة وهذا من تمام حيائها وصيانتها فلما جاءه وقصَّ عليه القصص قال الشيخ ﴿لَا تَخْفُ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٥) أي خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم.

ولقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو؟ على أقوال:

أحدها: أنه شعيب^(٦) النبي -عليه السلام- الذي أرسل إلى أهل مدين وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء وقد قاله الحسن البصري^(٧) -رحمه الله- وغير واحد.

١- تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٨٤-٢٨٥.

٢- القصص: ٢٤.

٣- قال عمر بن الخطاب: «ليست بسلفع من النساء خراجه ولاجه، ولكن جاءت مستترة قد وضعت كم درعها على وجهها استحياء» أخرجه القرطبي وابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- (انظر الدرر المنثور في التفسير بالماثور ٥/ ١٢٤) السلفع السليطة الجرينة على الرجال. وصنيعها هذا يدل على أن ما قام به موسى عليه السلام من السقى لم يجعله في نظرها بمنزلة الأجير الخادم الذي لا يستحق منه عادة بل هو عزيز النفس رأت من خلقه ومكارم أخلاقه ما أوجب لها الحياء منه.

٤-٥- القصص: ٢٥.

٦- قيل اسمه شعيب بن ميكيل بن يشحن قاله ابن إسحاق وقيل شعيب بن ضيفور بن عيفا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم وقيل غير ذلك في نسبة عليه السلام. كان يسمى خطيب الأنبياء لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالاته. بعث في أهل مدين وكانوا كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة وكانوا من أسوأ الناس معاملة يبغضون المكيال والميزان ويطففون فيهما يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب فدعاهم إلى عبادة الله وحده ونهاهم عن تلك المنكرات فأمن به بعضهم وكفر أكثرهم حتى أحل الله بهم البأس الشديد (انظر البداية والنهاية ١٧٣-١٧٤).

٧- هو الحسن بن أبي الحسن بن يسار البصري أبو سعيد مولى الأنصار يقال إنه من سبي ميسان ولد بالمدينة لستينين بقيتاً من خلافة عمر بن الخطاب، نشأ بوادي القرى وكان فصيحاً رأى عثمان وروى عنه. كان الحسن جامعاً عالماً فقيهاً وعابداً ناسكاً توفي -رحمه الله- ليلة الجمعة سنة ستة عشر ومائة. (انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٦٩/ ٢-٧٣ رقم ١٥٦، انظر تهذيب التهذيب ١/ ٣٨٨).

وقد رُوي عن سلمة بن سعد العنزي^(١) أنه وفد على رسول الله ﷺ فقال له: «مرحباً بقوم شعيب واختان موسى هديت^(٢)».

ثانيها: أنه ابن أخي شعيب .

ثالثها: رجل فوض من قوم شعيب .

وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى - عليه السلام - بمدة طويلة لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٌ^(٣) مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾^(٤) وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل - عليه السلام - بنص القرآن وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى - عليهما السلام - مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة كما ذكره غير واحد . وما قيل إن شعيباً عاش مدة طويلة إنما هو - والله أعلم - احتراز من هذا الإشكال .

ومن المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن يُنصَّ على اسمه ههنا في القرآن ثم إن الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه يثرون . ويثرون هو ابن أخي شعيب عليه السلام^(٥) .

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي - رحمه الله -:

(وهذا الرجل - أبو المرأتين - صاحبُ مدين ، ليس بشعيب النبي المعروف كما اشتهر عند كثير من الناس فإن هذا قول لم يدل عليه دليل ، وغاية ما يكون أن شعيباً - عليه

١ - هو سلمة بن سعد بن صريم العنزي بن همام بن كام لم يرو عنه غير ابنه سعيد بن سلمة (انظر الإصابة في تمييز الصحابة ٣ / ١٢٤) .

٢ - أخرجه الطبراني في الكبير ٧ / ٥٥ رقم ٦٣٦٤ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠ / ٤٥ وفيه من لم أعرفهم .

٣ - هو لوط بن هاران بن آزر ابن أخي ابراهيم - عليه السلام - أرسله الله تعالى إلى أهل سدوم وكانوا أهل كفر بالله تعالى وركون فاحشة فدعاهم لوط - عليه السلام - إلى عبادة الله تعالى وترك ما هم عليه من الفواحش فلم يستجيبوا له فأنزل الله عليهم عذابه فأهلكهم جميعاً إلا لوط ومن آمن معه . (انظر تاريخ الرسل والملوك ١ / ٢٩٢ - ٣٠٧ وانظر البداية والنهاية ١ / ١٦٤ - ١٦٨ ، وانظر الكامل في التاريخ ١ / ٩١ - ٩٣) .

٤ - هو: ٨٩ .

٥ - تفسير القرآن العظيم ٤ / ٣٨٥ ٣٨٦ .

السلام- قد كانت بلده مدين وهذه القضية جرت في مدين فأين الملازمة بين الأمرين؟
وأيضاً فإنه غير معلوم، أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه؟! ولو كان ذلك
الرجل شعيباً لذكره الله تعالى، ولسمته المرأتان، وأيضاً فإن شعيباً -عليه السلام- قد أهلك
الله قومه بتكذيبهم إياه ولم يبق إلا من آمن به .

وقد أعاد الله المؤمنين به أن يرضوا لبنتي نبيهم، بمنعهما عن الماء وصدر ماشيتهما حتى
يأتيهما رجل غريب فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرضى
موسى -عليه السلام- عنده ويكون خادماً له وهو أفضل منه، وأعلى درجة إلا أن يقال: هذا
قبل نبوة موسى -عليه السلام- فلا منافاة^(١).

والمقصود أنه لما أضافه وأكرم مثواه وقصّ عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا فعند
ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها:

﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾^(٢).

قال عبد الله بن مسعود^(٣) رضي الله عنه: (أفرس الناس ثلاثة، أبو بكر حين تفرّس في
عمر وصاحب يوسف حين قال لامرأته: أكرمي مثواه وصاحبة موسى حين قالت: ﴿ يَا أَبَتِ
اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ
هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرْنِي ثَمَانِي حَجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ
سَتَجِدْنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾^(٤))^(٥).

١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١٩/٦ .

٢- القصص: ٢٦ .

٣- عبد الله بن مسعود بن عافل بن حبيب بن شمش الإمام الخبر فقيه الأمة - أبو عبد الرحمن الهذلي المكي حليف بني
زهرة . كان من السابقين الأولين شهد بدرًا وهاجر الهجرة من مناقبه غزيرة روى علماً كثيراً وتوفي بالمدينة ودفن بالبقع
سنة اثنتين وثلاثين (انظر الطبقات الكبرى ١٠٤/٢ وانظر سير أعلام النبلاء ١/٤٦١-٤٩٩) .

٤- القصص: ٢٦-٢٧ .

٥- أخرجه الطبراني في الكبير ١٦٧/٩ رقم ٨٨٢٩، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٦٨ وقال رواه الطبراني
بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح . ورواه الحاكم في المستدرک ٣/٩٠ وصححه ووافقه الذهبي .

روي عن سعيد بن جبير قال : (سألتني يهودي من أهل الحيرة^(١) : أي الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت فسألت ابن عباس -رضي الله عنهما- فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل^(٢) .

نبوته :

أقام موسى عند شعيب يرعى له غنمه عشر سنين فلما أتم الأجلين وأكملهما سار بأهله في زمن شتاء وبرد، لما ذكره غير واحد من المفسرين أنه اشتاق لأهله فقصد زيارتهم ببلاد مصر.^(٣)

فلما كانت الليلة التي أراد الله عز وجل لموسى -عليه السلام- كرامته وابتدائه فيها بنبوته وكلامه أخطأ فيها الطريق حتى لا يدري أين يتوجه، وكانت امرأته حاملاً، فأخذها الطلق في ليلة شاتية ذات مطر ورعد وبرق، فأخرج زنده ليقدم ناراً لأهله ليصطلوا ويبيتوا حتى يصبح ويعلم وجه طريقه، فأصلد زنده ففقد حتى أعيا فرفعت له نار تأجج في جانب الطور^(٤) ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾^(٥) فإن لم أجد خيراً ﴿ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾^(٦) وكأنه -والله أعلم- رآها دونهم لأن هذه النار هي نور في الحقيقة لا يصلح رؤيتها لكل أحد، فحين قصدها رآها نوراً امتداً من السماء إلى شجرة عظيمة من العوسج^(٧) فتحير موسى -عليه السلام- وخاف حين رأى ناراً عظيمة بغير

١- الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف زعموا أن بحر فارس يتصل به، كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية، وعدد من القبائل من مذحج وحمير وطى وكنب وتميم (انظر معجم البلدان ٣٢٨/٢).

٢- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الشهادات باب من أمر بإنجاز الوعد ٦٣/٣ .

٣- البداية والنهاية ٢٣٠/١ .

٤- انظر تاريخ الرسل والملوك ٤٠٢/١ .

٥- القصص: ٢٩ .

٦- النمل: ٧ .

٧- العوسج: شجر من شجر الشوك وله ثمر أحمر مدور كأنه خرز العقيق فيه حموضة .

قال ابن سيده والعوسج المحض يقصر أنبوهه ويصغر ورقه ويصلب عوده ولا يعظم شجره فذلك قلب العوسج وهو أعتقه (انظر لسان العرب ١٤٨/٣ فصل العين حرف الجيم) .

دخان هي تلتهب في شجرة خضراء لا تزداد النار إلا عظماً ولا تزداد الشجرة إلا خضرة .
فلما دنا منها استأخرت عنه ففرع ورجع، ﴿نُودِي أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا
وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١).

فلما سمع النداء ورأى تلك الهيبة، علم أنه ربه تعالى فخفق قلبه وكلّ لسانه فأرسل الله
إليه ملكاً يشد قلبه فلما تاب إليه عقّله نودي: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ
طَوًى﴾^(٢) وإنما أمر بخلع نعليه لأنها كانت من جلد حمار ميت وقيل: لينال قدمه الأرض
المباركة^(٣).

ثم قال له تسكيناً لقلبه ﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا
وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ
تَسْعَى﴾^(٤) عظيمة الجثة في خفة حركة الجان، وهذا خارق عظيم، وبرهان قاطع، على أن
الذي يكلمه هو الله الذي يقول للشئ كن فيكون.

فلما رآها موسى - عليه السلام - ولى مدبراً ولم يعقب، فنودي يا موسى لا تخف إني
لا يخاف لديّ المرسلون أقبل ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى فيقال إنه لما استمكن منها
عادت كما كانت عصاً ذات شعبتين.

ثم قال له: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾^(٥)
فأدخلها وأخرجها بيضاء من غير سوء مثل الثلج لها نور. ثم ردها فعادت كما كانت.

قال تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ
جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ﴾^(٦).

١- النمل: ٨-٩ .

٢- طه: ١٢ .

٣- الكامل في التاريخ ١/ ١٣٧ .

٤- طه: ١٧-٢٠ .

٥- طه: ٢٢ .

٦- القصص: ٣٢ .

أي إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك وهذا وإن كان خاصاً به إلا أن بركة الإيمان به حق بأن ينفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء^(١).

وقال في سورة النمل: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(٢) فالعصا واليد هما البرهانان المشار إليهما في قوله تعالى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(٣) ومع ذلك سبع آيات أخر فتلك تسع آيات بينات وهي المذكورة في سورة الإسراء ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾^(٤) وهي المبسوطة في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾^(٥).

والمقصود أن الله سبحانه لما أمر موسى -عليه السلام- بالذهاب إلى فرعون: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾^(٦).

يقول تعالى مخبراً عن نبيه موسى -عليه السلام- في جوابه لربه -عز وجل- حين أمره بالذهاب إلى عدوه الذي خرج من ديار مصر فراراً من سطوته وظلمه حين كان من أمره ما كان في قتل القبطي ولهذا قال ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي

١- انظر تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٨٦.

٢- النمل: ١٢.

٣- القصص: ٣٢.

٤- الإسراء: ١٠١.

٥- الأعراف: ١٣٠-١٣٣.

٦- القصص: ٢٣-٣٤.

هَرُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١﴾ . أي اجعله معي معيناً ووزيراً يساعديني ويعينني على أداء رسالتك إليهم فإنه أفصح مني لساناً وأبلغ بياناً لأن مما هو معلوم أن خبر الاثنين أنجح في النفوس من خبر الواحد^(٢) ولهذا قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾^(٣) . فقال الله مجيباً له سؤاله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾^(٤) .

قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منةً على أخيه من موسى على هارون -عليهما السلام- فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملائه^(٥) ولهذا قال تعالى في حق موسى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾^(٦) كما سأل موسى ربه أن يزيل تلك اللثغة التي حصلت بسبب الجمرة التي وضعها على لسانه حينما أراد فرعون -قبحه الله- اختبار عقله فخيره بين جمرة وياقوته وقيل تمرة وجمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة -كما سبق ذكره^(٧)- فوضعها على لسانه فأصابته اللثغة بسببها فسأل ربه زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله ولم يسأل زوالها بالكلية وهذا من تأدب موسى -عليه السلام- مع ربه كما قال الحسن البصري والرسول إنما يسألون بحسب الحاجة^(٨) .

١- القصص: ٣٣-٣٤ .

٢- انظر تفسير القرآن العظيم ٣ / ٢٩٠ .

٣- القصص: ٣٤ .

٤- القصص: ٣٥ .

٥- تفسير القرآن العظيم ٣ / ٢٩٠ .

٦- الأحزاب: ٦٩ .

٧- انظر المطلب الثاني من هذا المبحث ص ٦٦ .

٨- البداية والنهاية ١ / ٢٣٣ .

علامات شخصية موسى عليه السلام:

١- سرعة الانفعال (المحمود):

تبدو شخصية موسى -عليه السلام- شخصية حارة الوجدان، قوية الاندفاع، يتجلى لنا ذلك عند استعراض بعض المواقف التي ساقها القرآن الكريم والتي منها على سبيل المثال:

موقفه مع القبطي وهو يتشاجر مع الاسرائيلي -آنف الذكر^(١)- قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾^(٢).

فالآية تشير إلى أن موسى -عليه السلام- وكز القبطي وكزة واحدة فكان فيها حتفه مما ينبئ بقوة موسى -عليه السلام- وفتوته^(٣)، ويصور كذلك انفعاله وغضبه ويعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به.

ولكن يبدو من السياق أنه لم يكن يقصد قتل القبطي، ولم يعمد إلى القضاء عليه، فما كاد يراه جثة هامدة بين يديه حتى استرجع وندم على فعلته وعزاها إلى الشيطان وغوايته، فقد كانت من الغضب.

كما تظهر هذه السمة الانفعالية في شخصية موسى -عليه السلام- في موقف آخر حينما التقى مع الإسرائيلي نفسه وهو يتشاجر مرة أخرى مع رجل قبطي: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾^(٤).

فصورة قتيل الأمس كانت ما تزال تتخايل لموسى -عليه السلام- وإلى جوارها ندمه

١- انظر المطلب الثاني من هذا المبحث ص ٦٧-٦٨ .

٢- القصص: ١٥ .

٣- يظهر ذلك من موقفه مع ابنتي صالح مدين حينما تفرست فيه إحداهما مخايل القوة والرجولة والأمانة فهو قوي على العمل أمين على المال، لأن الأمين على العرض أمين على ما سواه كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ لقد رأت من قوته ما جعل الرعاة تهابه وتفسح له الطريق فهو شاب غريب طريد والغريب ضعيف مهما اشتد، كما رأت منه تلك الأمانة التي تجعله عف اللسان والنظر.

٤- القصص: ١٨ .

واستغفاره، وعهده مع ربه ثم هذا التوجس الذي يتوقع معه في كل لحظة أن يلحقه الأذى، فإذا هو يفعل على هذا الذي يستصرخه، ويصفه بالغواية والضلال^(١) ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾^(٢).

ومع ذلك انفعلت نفس موسى بالغيظ من القبطي فاندفع يريد أن يقضي عليه كما قضى على الأول بالأمس، ولهذا الاندفاع دلالة على تلك السمة الانفعالية التي أشرت إليها، ولكن له دلالة من جانب آخر على مدى امتلاء نفس موسى -عليه السلام- بالغيظ من الظلم والنقمة على البغي، والضيق بالأذى الواقع على بني اسرائيل.

كما تظهر السمة الانفعالية بوضوح في شخصية موسى -عليه السلام- حينما عاد من مناجاة ربه وعلم ما أحدث القوم بعده في عبادتهم العجل. قال تعالى حكاية عن موسى -عليه السلام-:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

لقد عاد موسى -عليه السلام- إلى قومه غضبان أشد الغضب، يبدو انفعال الغضب في قوله ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾^(٤) كما يبدو في فعله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾^(٥).

وهي حركة تدل على شدة الانفعال، فهذه الألواح هي التي كانت تحمل كلمات ربه وهو لا يلقيها إلا وقد أفقده الغضب زمام نفسه، وكذلك أخذ برأس أخيه يجره إليه.

١- في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٨٣- تأليف سيد قطب الطبعة الخامسة عشرة ١٤٠٨هـ، الناشر: دار الشروق - القاهرة.

٢- القصص: ١٨.

٣، ٤، ٥- الأعراف: ١٥٠.

٢- الاستعجال^(١) :

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أَوْلَاءِ عَلَيَّ أَثْرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾^(٢) يخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه أنه ضرب لنبيه موسى موعداً يلقاه فيه بعد أربعين يوماً، ليتلقى عنه التكليف .

فغلب الشوق على موسى -عليه السلام- إلى مناجاة ربه، والوقوف بين يديه فاستعجل الذهاب وهو لا يعلم ما وراءه، ولا ما أحدث القوم بعده، وهنا يخبره الله -عز وجل- بما كان خلفه: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أَوْلَاءِ عَلَيَّ أَثْرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾^(٣) .

وهكذا فوجئ موسى -عليه السلام- أنه متعجل إلى ربه بعد ما تهيأ واستعد أربعين يوماً ليلقاه ويتلقى منه التوجيه الذي يقيم عليه حياة بني إسرائيل الجديدة .

ومثلما تعجل موسى -عليه السلام- في لقاء ربه تعجل في الغضب من أخيه -كما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعَدِي ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا بَنُوؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾^(٤) .

كما ظهرت هذه العجلة واضحة في رغبة موسى -عليه السلام- الملحة لرؤية الله تعالى وهي رغبة سبقه إليها أبو الأنبياء إبراهيم الخليل -عليه السلام-: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ نَنْظُرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾^(٥) .

١- الاستعجال والإعجال، والتعجل كلها بمعنى واحد، وهو الاستحاث وطلب العجلة أي السرعة ومنه استعجل الرجل الرجل: حثه وأمره أن يعجل في الأمر ومنه قوله تعالى: ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم ﴾ يونس: ١١ . (انظر لسان العرب ١٣ / ٤٥١ فصل العين حرف اللام) .

٢- طه: ٨٣-٨٥ .

٣- طه: ٨٣-٨٤ .

٤- طه: ٨٦-٩٤ .

٥- الأعراف: ١٤٣ .

وظهرت واضحة أيضاً في تصرف موسى - عليه السلام - مع الخضر^(١) كما جاء في القرآن الكريم ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَيَّ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقتلَهُ قَالَ أَقتلتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِن سَألتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا * ﴿٢﴾ .

١- اختلف العلماء في اسمه ونسبه على أقوال عدة نذكرها بإيجاز :
قال الحافظ بن عساكر يقال : إنه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه . وقال أبو عبيدة إن أطول بني آدم عمراً الخضر واسمه خضرون بن قابيل بن آدم . - وذكر بن قتيبة في المعارف عن وهب بن منبه أن اسم الخضر يليا ويقال إيليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شاغ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام . وقال اسماعيل بن أبي أديس اسم الخضر فيما بلغنا والله أعلم المعمر بن مالك بن عبدالله بن نصر بن لآزد ويقال هو رميا بن خليقا والله أعلم . وروي الحافظ بن عساكر عن سعيد بن المسيب أنه قال : الخضر أمه رومية وأبوه فارسي . قيل إن كنيته أبو العباس والأشبه - والله أعلم - أن الخضر لقب غلب عليه وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إنما سمي الخضر خضراً لحسنه وإشراق وجهه » . (انظر البداية والنهاية ١ / ٣٠٢ - ٣٠٦ . وانظر قصص الأنبياء ص ٤٢ تأليف : عبد الوهاب النجار ، الطبعة الثالثة ، الناشر : دار الكتب العلمية بيروت - لبنان) .
٢- الكهف : ٦٦ - ٧٨ .

فالعجلة والاستعجال من طبيعة الإنسان بشهادة خالقه ومدير أمره: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾^(١) وقوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾^(٢). والإسلام في نظرتة إلى الاستعجال ينظر إليه نظرة عدالة وإنصاف، فلا يحمده بالمرة ولا يذمه بالمرة، وإنما يحمده بعضه ويذم البعض الآخر:

فالمحمود منه: ما كان ناشئاً عن تقدير دقيق للآثار والعواقب، وعن إدراك تام للظروف والملايسات. ولعل هذا النوع من الاستعجال هو المعني في قوله تعالى حكاية عن موسى -عليه السلام-: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ * قَالَ هُمْ أَوْلَاءِ عَلَيَّ أَتْرَبِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾^(٣).

والمذموم منه: ما كان مجرد فورة نفسه خالية من تقدير العاقبة ومن الإحاطة بالظروف والملايسات، ومن أخذ الأهبة والاستعداد، وهذا النوع هو الذي عناه رسولنا الكريم محمد ﷺ حين قال لخباب بن الأرت^(٤) -رضي الله تعالى عنه- وقد جاء إلى النبي ﷺ يشكو ما يلقيه هو وإخوانه من الأذى والاضطهاد، ويطلب منه أن يستنصر ربه وأن يدعو، قال له: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيشق اثنتين وما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت^(٥) لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»^(٦).

١- الإسراء: ١١.

٢- الأنبياء: ٣٧.

٣- طه: ٨٣-٨٤.

٤- هو خباب بن الأرت بن جندله بن سعد التميمي ويقال الخزاعي أبو عبدالله، سبي في الجاهلية فبيع في مكة. أسلم قديماً، وكان من المستضعفين وهو أول من أظهر إسلامه فعذب لأجل ذلك عذاباً شديداً، شهد جميع المشاهد مع رسول الله ﷺ، قال عنه علي رضي الله عنه عندما مر بقبره: (رحم الله خباباً أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً وابتلي في جسمه أحوالاً، ولن يضيع الله أجره)، توفي يرحمه الله سنة ٣٧هـ وكان عمره ثلاثاً وسبعين سنة (انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ١٤٧/٢-١٥٠ رقم (١٤٠٧) وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ٢٢١/٢-٢٢٢ رقم (٢٢١٥)).

٥- حضرموت: اسم موضع واسم قبيلة والنسبة إليها حضرمي سميت بحضرميت وهو أول من نزلها، وقيل سميت بحضرموت بن يقطن بن عامر بن شالخ.

٦- وحضرموت ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف وبها قبر هود عليه السلام. وهي مخلاف من اليمن بينها وبين البحر رمال. وبينها وبين صنعاء اثنان وسبعون فرسخاً وقيل مسيرة أحد عشر يوماً. (انظر معجم البلدان ٢/٢٦٩).

٦- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإكراه باب من اختار الضرب والقتل ٨/٥٦.

الفصل الأول

الفصل الأول

أهداف الحوار في دعوة موسى - عليه السلام - وخصائصه

ويحتوي على مبحثين :

المبحث الأول : أهداف الحوار في دعوة موسى عليه السلام .

المبحث الثاني : خصائص الحوار في دعوة موسى عليه السلام .

المبحث الأول : أهداف الحوار في دعوة موسى -عليه السلام-

تمهيد :

إن معرفة أهداف الحوار لها أهمية كبيرة في دراسة هذا المبحث، فهدف الحوار هو ثمرته المطلوبة التي تحدد موضوعاته وأساليبه وآدابه. وعليه فإن الحكم على الحوار إنما يكون بمعرفة أهدافه، لأن الأمور بمقاصدها^(١)، فنجاح كل شيء متعلق بتحقيقه لأهدافه المحددة، إضافة إلى أن تحديد الأهداف هي الخطوة الأولى في كل عملية يريد أن يقوم بها الإنسان. لذلك لا بد من تحديد أهداف الحوار في دعوة موسى -عليه السلام- وقبل أن ندخل في ذلك علينا أن نعرف بالأهداف أولاً:

فالهدفُ كل ما ارتفع من بناء أو كتيب رمل أو جبل^(٢)

يقال: هدَفَ إليه: أي دخل إليه وأهدَفَ إليه: أي لجأ^(٣). وأهدَفَ منه إذا دنا وأهدف

لي الشيء فهو مهدف إذا انتصب واستقبل.

ومن ذلك أخذ الهدف لانتصابه لمن يرميه وكل شيء رأيته استقبلك استقبالاً فهو مُهدَفٌ ومستهدَفٌ^(٤).

وجاء في لسان العرب :

الهدف: الغرض المنتضل فيه بالسهم.

يقال: أهدف لك الصيد فارمه^(٥).

وقال الجوهري^(٦): ومنه سُمي الغرض هدفاً^(٧)

١- الأشباه والنظائر ص ٢٧-٥٤، تأليف: زين العابدين بن إبراهيم بن نجيم الناشر: دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٠هـ.
٢- تاج العروس من جواهر القاموس ٢٧٣/٦ (فصل الهاء باب الفاء) محمد مرتضى الزبيدي، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت-لبنان.
٣- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ١٣٤٢/٤ (باب الفاء فصل الهاء).
٤- تاج العروس من جواهر القاموس ٢٧٣/٦ (فصل الهاء باب الفاء).
٥- لسان العرب ٢٦١/١١ فصل الهاء حرف الفاء.
٦- هو إسماعيل بن حماد الجوهري، أصله من فاراب من بلاد الترك إمام في اللغة والادب يضرب بخطه المثل. وهو صاحب كتاب صحاح اللغة. وله كتاب العروض وكتاب المقدمة في النحو. توفي برحمة الله سنة ٣٩٣هـ. (انظر معجم الأدباء ١٥١/٦-١٦٥، تأليف: ياقوت الحموي الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ، الناشر: دار الفكر، وانظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١٤٢/٣-١٤٣).
٧- تاج العروس من جواهر القاموس ٢٧٣/٦ وللإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي برحمة الله، (باب الفاء فصل الهاء) طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر وانظر: القاموس المحيط ٢٣٣/٣ فصل الواو والهاء باب الفاء) ..

وتنقسم الأهداف بشكل عام إلى قسمين:

القسم الأول: أهداف مشروعة.

القسم الثاني: أهداف غير مشروعة.

فالأهداف المشروعة:

هي التي شرعها الله - عز وجل - وجمعت بين الإخلاص لله تعالى وموافقة الشريعة .
فلا تكفي النية الصالحة بل لابد من اجتماع الشرطين جميعاً، قال تعالى:

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾^(١).

أما الأول فيرجع إلى النية والقصد، وإرادة الله والدار الآخرة بعيداً عن طلب المال والجاه ومتاع الدنيا الزائل، وقد جاءت نصوص كثيرة تشير إلى أهمية هذا الأمر ومنها:

قول تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾^(٣). ويقول تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾^(٤).

ويقول تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾^(٥)

١- الكهف : ١١٠ .

٢- الإسراء : ١٨ - ١٩ .

٣- الشورى : ٢٠ .

٤- النجم : ٢٩ .

٥- النازعات : ٣٧-٣٩ .

كما جعل النبي ﷺ مدار العمل وصحته على النية كما جاء في الحديث عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١).

فالهجرة وهي من أشرف الأعمال لا تنفع إلا بالنية الصالحة الصحيحة. وكذا الجهاد في سبيل الله فقد سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل حمية وشجاعة ورياء أي ذلك في سبيل الله؟ فقال -عليه الصلاة والسلام-: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(٢).

فالإخلاص لله شرط أساسي لأي حوار يراد الدخول فيه.

وأما الشرط الثاني فهو أن يكون الهدف مشروعاً في ذاته.

والهدف العام من الحوار الذي شرعه الله هو الدعوة إلى الدين الإسلامي والدفاع عنه وبيانه للناس، قال الرازي^(٣) -رحمه الله-: (والجدل الممدوح في تقرير الحق ودعوة الخلق إلى سبيل الله والذَّب عن دين الله تعالى)^(٤)، ويندرج تحت هذا الهدف العام أهداف عديدة منها:

أولاً: الوصول إلى الحق:

ونعني به تضييق فجوة الخلاف، وتقريب وجهات النظر، وترجيح أحد الآراء المطروحة، فإننا نعيش في عصر كثرت فيه الخلافات لما روي عن العرياض بن سارية -رضي الله عنه-

١- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي ٢/١ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإمامة باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» ١٥١٥/٣-١٥١٦ رقم (١٩٠٧).

٢- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب العلم باب من سأل وهو قائم ٤٠/١ وأخرجه في كتاب الجهاد باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ٢٠٦/٣ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإمامة باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ١٥١٢/٣ رقم ١٩٠٤.

٣- هو أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسين الطبرستاني الأصل الرازي الملقب فخر الدين الإمام المفسر والفقير الشافعي، فريد عصره، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل ولد عام ٥٤٤ هـ بمدينة هراة. من تصانيفه: المحصول في علم أصول الفقه، وله كتاب في التفسير لم يتمه وغيرها من التأليف النافعة توفي يوم عيد الفطر ٦٠٦ هـ بمدينة هراة، (انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٤/٢٨٤-٢٥٢، وانظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢١/٥).

٤- مفاتيح الغيب ١٦٧/٥.

قال: قال رسول الله ﷺ: «فإنه من يعيش منكم يرى اختلافاً كثيراً»^(١) وليست المشكلة في ما يؤدي إليه الخلاف من فرقة وتباغض وتناحر وتضارب، عندما يعجز المختلفون عن التفاهم بالمحاورة أو يغفلون عن ضرورة الالتقاء لتقريب وجهات النظر، وإنما المشكلة في أن يتصور كل واحد منهم أنه لا بد من إقناع الخصم بالرأي الذي تبناه، أو لا بد من ترجيح رأيه وتخطئة رأي محاوره، وإلا فلا جدوى من الحوار ولا داعي له. فالحوار إذا لم يحسم قضية الخلاف بترجيح رأي معين فإنه على الأقل يقرب وجهات النظر، ويضيّق فجوة الخلاف، بل يحصره في حيز ضيق، ويساعد في تقارب القلوب وتفهم الأفكار، مما يكون له أثر في التماس العذر للطرف الآخر في حمله لرأيه، وخاصة إذا كان الخلاف بين العاملين في حقل الدعوة الإسلامية.

ثانياً: بيان الباطل الذي عليه الخصم:

وذلك بالرد على الشبهات والطعون الموجهة ضد الحق والصواب لإقامة الحجة على المخالف، ولإظهار الباطل على حقيقته حتى يحذره الآخرون ولتستبين طرق الضلالة كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٢) وحتى يختار كل واحد أحد الطريقتين عن بينة ووضوح ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾^(٣) فكشف الشبهات، وتفنيّد الأباطيل، يزيل الغشاوة التي ربما تكون على الأعين.

قال ابن تيمية رحمه الله: (إن كثيراً من أهل الكتاب يبلغهم الإسلام ولكن يمنعهم من الإيمان شبهات يحتاجون إلى أجوبة عليها)^(٤).

١- أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب اتباع سنة الخلفاء ١٦/١ رقم ٤٣ وأخرجه أبو داود في كتاب السنة باب في لزوم السنة ٢٠٠-٢٠١/٤ وأخرجه الترمذي في كتاب العلم باب الأخذ بالسنة ٤/١٥٠ رقم ٢٧١٦ وقال (حسن صحيح).

٢- الأنعام: ٥٥.

٣- الأنفال: ٤٢.

٤- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١/٧٦، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، الناشر: مطابع المجد التجارية.

وقد اهتم القرآن بهذا الهدف فذكر شبهات الكفار من أهل الكتاب والمشركين ورد عليها بأوضح برهان، وهذا من الحكم في نزول القرآن مفرقاً كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(١)

وقال ابن كثير -رحمه الله-: (﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾^(٢)، بحجة وشبهة، ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(٣) أي ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم)^(٤).

وعلى هذا فإن كثيراً من المختلفين يمتنعهم من التسليم بالحق والرجوع إلى الصواب شبهات وشكوك، وأباطيل تحتاج إلى جواب وتفنيذ وإبطال، والحوار يحقق هذا الهدف، فبه يمكن إزالة كل شبهة وتفنيذ كل باطل. كما جاء في رد موسى -عليه السلام- على شبهة فرعون:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾^(٥). ففي الرد على الشبه إسكات للطاعنين وبيان للحائرين، ولكن يشترط على من تولى الرد على الشبهة إحكام الرد لئلا يُقرر الشبه ويعجز عن الرد عليها.

وذكر ابن تيمية: (أن بعض الذي قرأوا دلائل النبوة قد أوردوا من الشبهات والشكوك والمطاعن على دلائل النبوة ما يبلغ نحو ثمانين سؤالاً، وأجابوا عنها بأجوبة لا تصلح أن تكون جواباً في المسائل الظنية، بل هي إلى تقرير شبه الطاعنين أقرب منها إلى تقرير أصول الدين، وهم كما مثلهم الغزالي^(٦) وغيره بمن يضرب شجرة ضرباً يزلزلها بها، وهو يزعم أنه يريد أن يثبتها)^(٧).

١- الفرقان: ٣٢ - ٣٣ .

٢- الفرقان: ٣٣ .

٤- تفسير القرآن العظيم ٣/٣١٧ - ٣١٨ .

٥- الشعراء: ٢٣ - ٢٤ .

٦- هو زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الشافعي الغزالي صاحب التصانيف، تفقه ببلده أولاً ثم تحول إلى نيسابور فلأزم إمام الحرمين فبرع في الفقه ومهر في الكلام والجدل حتى صار عين المناظرين، أدخله سيلان ذهنه في مضائق الكلام ومزال الأقدام توفي سنة خمس وخمسة مئة وله خمس وخمسون سنة (انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٤/ ٢١٦١-٢١٩ وانظر سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٢-٣٤٣).

٧- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١/٧٦ - ٧٧ .

ثالثاً: تثبيت قلوب المؤمنين على الحق:

إنَّ المُحَاوِرَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ قَدْ يَحَاوِرُ أَعْدَاءَ الْإِسْلَامِ لَغَرَضٍ هِدَايَتِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ
وَبَيَانِ الْحَقِّ لَهُمْ بِالدرجَةِ الْأُولَى، فَإِنْ تَعَذَّرَ ذَلِكَ فَلَا يَمْنَعُ مِنْ أَنْ يَحَاوِرَهُمْ لِإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ
وَبَيَانِ قُوَّةِ حُجَّتِهِ وَضَعْفِ حُجَجِ خَصْمِهِ لِلْمُسْلِمِينَ فَيَزِدَادُوا إِيمَانًا وَيَقِينًا.

وقد أوضح الله عز وجل في كتابه أن نزول القرآن لدحض شبهات الأعداء والرد عليهم
فيه أعظم ثبات للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ
قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(١).

رابعاً: تحقيق أهداف أخرى مشروعة:

هناك مصالح عدة وأهداف كثيرة يمكن تحقيقها عن طريق الحوار وهي ليست رئيسة
ثابتة، ولكن تتنوع وتختلف باختلاف القضايا والمُحَاوِرِينَ فمثلاً:

أ- قد يكون الحوار لهدف تعليم السامعين كما كان في حديث جبريل الطويل، حيث كان
الحوار بين جبريل والنبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة بهدف
تعليم الصحابة، ولذلك قال ﷺ «فإنه جبريل آتاكم يعلمكم دينكم»^(٢).

ب- الحوار مع أعداء الإسلام لإتاحة السبل لنشر دين الله، أو الحوار معهم لتحديد البعض
منهم وذلك بتغيير قناعاته تجاه الإسلام أو تجاه ما يقومون به من أعمال، وفي كثير من
الأحيان يستطيع المُحَاوِرُ المسلم تحييد خصمه إذا لم يهتد إلى الإسلام وهذا مكسب لا
يستهان به، فإن من لم تستطع كسبه ليكون عوناً على الخير، فلا أقل من إخماد شره
وكبت فسادة^(٣) حتى لا يكون خصماً لك، إلى غير ذلك من الأهداف المشروعة التي
يمكن تحقيقها بالحوار.

١- النحل: ١٠١-١٠٢.

٢- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١/٣٦-٣٧) حديث رقم ١٨.

٣- انظر الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه في الكتاب والسنة ص ١١٧.

القسم الثاني : الأهداف غير المشروعة :

وهي الأهداف التي نُهي عنها، سواء كان النهي نهى تحريم أم نهى كراهة ومن هذه

الأهداف :

أولاً : موالاة الكفار ومودتهم :

كثير من الحوارات الدائرة اليوم بين المسلمين وأعدائهم يكون الهدف منها – وللأسف الشديد – موالاة الكفار ومودتهم وليس هذا فحسب بل أن بعض المفترين ممن ينتمون إلى الإسلام يصرح بمودة المخالفين في العقيدة ما لم يعتدوا على المسلمين، مستدلين بالآيات التي تأمر بمسالمة المسلمين الكفار وعدم قتالهم والبر بهم كقوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾^(١).

ومن أمثلة هذا الكلام :

- ١- يقول الشيخ مصطفى المراغي^(٢) في رسالة بعث بها إلى مؤتمر الأديان العالمي : (اقتلع الإسلام من قلوب المسلمين جذور الحقد الديني بالنسبة لأتباع الديانات السماوية الأخرى، وأقر بوجود زمالة عالمية بين أفراد النوع البشري ولم يمانع أن تتعايش الأديان جنباً إلى جنب)^(٣).
- ٢- يقول الشيخ محمد أبو زهرة^(٤) : (إن المودة ليست واجبة بالنسبة لأبناء الأمة الواحدة بل هي واجبة للمخالفين في الدين ما داموا لم يعتدوا على المسلمين ولم يعادوهم)^(٥).

١- المتحنة : ٨ .

٢- هو محمد بن مصطفى بن محمد المراغي باحث مصري عارف بالتفسير من دعاة التجديد والإصلاح وهو من تولى مشيخة الجامع الأزهر. ولد بالمراغة عام ١٢٩٨هـ وتعلم بالقاهرة وتلمذ على يد الشيخ محمد عبده، توفي بالأسكندرية عام ١٣٦٤هـ (انظر الأعلام ٣٢٤/٧).

٣- الولاء والبراء في الإسلام ص ٣٤٧ تأليف : محمد بن سعيد القحطاني، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ الناشر: دار طيبة الرياض .

٤- هو محمد بن أحمد أبو زهرة ولد بمدينة المحلة في مصر عام ١٣١٦هـ تعلم بمدرسة القضاء الشرعي ثم تدرج حتى تولى التدريس في كلية أصول الدين ثم محاضراً في قسم الدراسات العليا . له الكثير من التصانيف منها الخطابة، تاريخ الجدل في الإسلام، أصول الفقه وغيرها من العلوم، توفي سنة ١٣٩٤هـ. (انظر المستدرک على معجم المؤلفين ص ٥٨٥، تأليف عمر رضا كحالة الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ الناشر: مؤسسة الرسالة، وانظر الأعلام ٢٥/٦ - ٢٦).

٥- تنظيم الإسلام للمجتمع ص ٥١ تأليف : محمد أبو زهرة، الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة.

٣- كما أن الشيخ محمد عبده^(١) جعل أصول الإسلام ثمانية، السابع منها مودة المخالفين في العقيدة، ولم يجعل من هذه الأصول ركناً من أركان الإيمان أو أركان الإسلام^(٢).
ولبيان هذه المسألة نبين حكم مودة الكفار وموالاتهم كما جاءت بها النصوص الشرعية:

١- يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

قال ابن كثير- رحمه الله-: (نهى الله عن موالاته اليهود والنصارى الذين هم أعداء الإسلام وأهله قاتلهم الله)^(٤).

ويذكر أن أبا موسى الأشعري^(٥) -رضي الله عنه- عين كاتباً نصرانياً فأنكر عليه عمر رضي الله عنه وتلا هذه الآية^(٦). وهذا يدل على أن الولاية لا تجوز إلا للمؤمنين كالحببة والمودة، بخلاف البر والإقساط للمسلمين.

٢- قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحذَرِكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^(٧).

قال ابن كثير- رحمه الله-: (نهى تبارك وتعالى أن يوالوا الكفار، وأن يتخذوهم

١- هو محمد عبده بن حسن آل التركماني مفتي الديار المصرية وأحد كبار حركة الإصلاح والتجديد في الإسلام. ولد في القرى الغربية في مصر سنة ١٢٦٦هـ وتعلم بطنطا ثم الأزهر ثم تصوف وتفلسف وعمل في التعليم.

٢- نفى إلى الشام ثم سافر إلى باريس وأصدر جريدة «العروة الوثقى» بالتعاون مع جمال الدين. ثم رجع إلى مصر فعمل مفتياً فيها واستمر إلى أن توفي بالاسكندرية سنة ١٣٢٣هـ (انظر الأعلام ٧/١٣١).

٣- أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه ص ٣٥١ تأليف د. علي بن نفيح العلياني، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - الناشر: دار طيبة الرياض.

٤- المائدة: ٥١.

٥- تفسير القرآن العظيم ٦٧/٢.

٦- هو عبدالله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب الإمام الكبير صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقيه المقرئ، أسلم بمكة وهاجر إلى الحبيشة وأول مشاهدته خبير، واستعمله النبي ﷺ ومعاداً على زيد وعدن واستعمله عمر على الكوفة وبعثه أميراً على البصرة فأقرأهم وفقهم، توفي رضي الله عنه سنة ثنتين وأربعين، (انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣/٣٦٤-٣٦٦ رقم ٣١٣٧ وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ٤/١٨١-١٨٣ رقم ٤٩١٦ وانظر سير أعلام النبلاء ٢/٣٨٠-٣٨٢).

٧- أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/١٢٧.

٨- آل عمران: ٢٨.

أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين^(١).

٣- قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾^(٢).

ومعنى يوادون: أي يحبون ويوالون^(٣).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (فمن تمام محبة الله ورسوله بغض من حاد الله ورسوله، والجهاد في سبيله، لقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... الآية﴾^(٤))^(٥) فالإيمان الواجب وموالة الكفار ضدان لا يجتمعان كما ذكر ابن تيمية استشهاداً بهذه الآية.

٤- قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾^(٦).

فامر المؤمنين أن يتأسوا بإبراهيم -عليه السلام- ومن معه حيث أبدوا العداوة والبغضاء لمن أشرك حتى يؤمنوا بالله وحده^(٧).

فلا بد من إظهار العداوة للمشركين وإظهار عيوب دينهم

يقول ابن القيم -رحمه الله-: (لم يزل رسول الله ﷺ في أول الأمر وأشدّه عليه وعلى أصحابه أشد على الإنكار عليهم وعيب دينهم، وتقبيحه، والنهي عنه، والتهديد والوعيد كل وقت وفي كل ناد، وقد سأله أن يكف عن ذكر آلهتهم وعيب دينهم، ويتركونه وشأنه فأبى إلا مضياً على الإنكار عليهم وعيب دينهم)^(٨).

١- تفسير القرآن العظيم ٣٥٧/١.

٢- المجادلة: ٢٢.

٣- الجامع لاحكام القرآن ٣٠٧/١٧.

٤- المجادلة: ٢٢.

٥- الإيمان ص ١٣ لشيخ الإسلام ابن تيمية خرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني، ١٤٠٦ هـ الناشر: المكتب الإسلامي بيروت.

٦- الممتحنة: ٤.

٧- مجموع الفتاوى ٣٦١/٨.

٨- بدائع الفوائد ١/١٤١ لابن قيم الجوزية - دار الكتاب العربي.

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب^(١) -رحمه الله-: (إن الإنسان لا يستقيم له إسلام ولو وحَّد الله وترك الشرك إلا بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبغض، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا... الآية﴾^(٢) واستدل بسيرة النبي ﷺ حيث أظهر عداوة المشركين ابتداء مما عرَّضه وأصحابه للأذى^(٣).

٥- قال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لُبْسَ مَا قَدَمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٤).

ولخطر موالاته المشركين جاءت النصوص بتحريم كل ذريعة إلى ذلك، ومنه التشبه بهم، حتى في الأمور الظاهرة لأنها قد تؤدي إلى محبتهم ومودتهم القلبية.

يقول ابن تيمية -رحمه الله-: (الموالاتة والمودة وإن كانت متعلقة بالقلب، لكن المخالفة في الظاهر أعون على مقاطعة الكافرين ومباينتهم، ومشاركتهم في الظاهر إن لم تكن ذريعة أو سبباً قريباً أو بعيداً إلى نوع من الموالاتة والمودة فليس فيها مصلحة المقاطعة والمباينة مع أنها تدعو إلى نوع ما من المواصلة كما توجبه الطبيعة، وتدل عليه العادة، ولهذا كان السلف -رضي الله عنهم- يستدلون بمثل هذه الآيات على ترك الاستعانة بهم في الولايات)^(٥).

١- هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن مشرف ولد في بيت علم ودين في مدينة العيينة سنة ١١١٥ هـ وكان والده ذابح طويل في الفقه بقي قاضياً مدة طويلة في العيينة وحرملاء. حفظ القرآن وعمره أقل من عشر سنين، ثم درس كتب الفقه الحنبلي على يد والده وطالع كتب الحديث والتفسير بكثرة في صغره كما كان حريصاً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. توفي الشيخ -يرحمه الله- سنة ١٢٠٦ هـ بعدما اشتغل في الدعوة والإرشاد مدة خمسين سنة متوالية، (انظر: محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفتري عليه ص ٣٠-٣٤، تأليف: مسعود الندوي، ترجمة وتعليق: عبدالعليم عبد العظيم البستوي، مراجعة وتقديم: د. محمد تقي الدين الهلالي، أشرفت على طباعته ونشره: إدارة الثقافة والنشر بالجامعة ١٤٠٤ هـ، وانظر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي ص ٢٥-٣٢، تأليف: د. محمد عبد الله بن سليمان السلطان، الناشر: وكالة الفرقان)..

٢- المجادلة: ٢٢.

٣- مجموعة التوحيد ص ٢٣، للشيخ محمد بن عبد الوهاب حققه وخرج أحاديثه: بشير محمد عيون، راجعه: الشيخ عبدالقادر الأرنؤوط، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ، الناشر مكتبة دار البيان..

٤- المائدة: ٨٠-٨١.

٥- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ١/١٥٩ لآحمد بن عبد الحليم بن تيمية تحقيق د. ناصر بن عبد الكريم العقل، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ، الناشر: شركة البيكان للطباعة والنشر.

ثانياً: الحوار معهم لأجل التقارب وذلك بمسالك شتى:

أ- التنازل عن شيء من الدين أو أخذ شيء من هذه الأديان لإتمام ديننا كما يزعمون: يقول جمال الدين الأفغاني^(١) في خاطرته بعنوان نظرية الوحدة: (وجدت بعد كل بحث وتنقيب وإمعان أن أديان التوحيد الثلاثة على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية وإذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق استكملة الثاني... وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير أن يتحد أهل الأديان الثلاثة مثلما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها)^(٢).

وقد ظهرت عملية هذا التقارب المزعوم بشكل واضح في مؤتمر الحوار ببلبنان^(٣) عام ١٩٧٠م، إذ كتب مسيحي تقريراً في نهاية الحوار جاء فيه: (وفي الحوار يُكتشفُ الشخص المنتمي إلى عقيدة معينة، وعلى الرغم من التزامه الديني أنه في احتياج إلى بعض النقاط التي تؤكد عليها بالأكثر عقيدة أخرى - وأوضح مسلم بعد ذلك - أن الإسلام وقد بدأ تاريخياً من مركز قوة وانتصار، يحتاج اليوم إلى الفكرة المسيحية عن الألم الذي هو طريق الانتصار)^(٤).

فإنه إن عذر النصراني بقوله لتجريف دينه، فما عذر المسلم الذي أكمل الله له الدين وآتم عليه النعمة؟ قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٥).

فالإسلام ليس فيه نقصان يُكْمَلُ من أي عقيدة أخرى فقد أتمه الله وبلغه النبي ﷺ

١- هو محمد بن صفور الحسيني جمال الدين فيلسوف الإسلام في عصره ولد في سعد آباد بأفغانستان سنة ١٢٥٤هـ ونشأ بكابل وتلقى العلوم العقلية والنقلية. وبرع في الرياضيات وسافر إلى الهند ثم الأستانة ومصر ثم نفي إلى باريس فأصدر مع الشيخ محمد عبده جريدة «العروة الوثقى» ثم تنقل بين روسيا وألمانيا وتركيا وفيها توفي سنة ١٣٦٣هـ (انظر الأعلام ٣٧/٧).

٢- دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام ص ٢٤٤، تأليف مصطفى فوزي بن عبداللطيف غزال، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، الناشر: دار طيبة الرياض.

٣- لبنان: اسم جبل مطل على حمص يجيء من العرج الذي بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام. قيل إن في هذا الجبل سبعين لساناً لا يعرف كل قوم لسان الآخرين إلا بترجمان. وفي هذا الجبل المسمى ببلبنان كورة بحمص جلييلة وفيه من جميع الفواكه والزرع من غير أن يزرعها أحد، (انظر معجم البلدان ١١/٥، وانظر آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢١٨).

٤- الحوار بين الأديان ص ٥٣ - ٥٤ تأليف: وليم سليمان، تقديم عبد العزيز كامل.

٥- المائدة: ٣.

كما أوحى إليه ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (١) .

وعلى هذا يمكننا القول إنه لا يجوز سلوك هذا المسلك لأي مصلحة كانت، حتى ولو كان بها تأليف قلوب الكفار وكسبهم، لأن الدعوة إلى الله ليس هذا طريقها، ولا يبدأ بإثبات نقص الدين وحاجته إلى ما سواه، أو الميل إلى الكفار لأخذ ما عندهم، وإنما طريقها بإثبات كمال الدين وحسنه، ونقص ما عداه، وبالدعوة بالتالي هي أحسن كما ثبت في نصوص الكتاب والسنة .

ب- مشاركتهم فيما هم عليه من العبادات :

وهذا ليس بالأمر الجديد فقد عُرض هذا النوع على النبي ﷺ حينما اعترض الأسود بن عبد المطلب^(٢) والوليد بن المغيرة^(٣) وأممية بن خلف^(٤) والعاص بن وائل السهمي^(٥) - وكانوا ذوي أسنان في قومهم - رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة فقالوا: يا محمد هلمَّ نعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه^(٦) وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد، كنت قد أخذت بحظك منه، فانزل الله فيهم: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (٧) فلا تلاقي في منتصف الطريق، حتى ولو كان المسلمون في مرحلة ضعف لأن الدين يجب أن يكون في نقائه ووضوحه .

١- المائدة : ٦٧ .

٢- الأسود بن عبدالمطلب بن أسد بن عبدالعزى واسمه أبو زمعه وأمه : فهيرة بنت أبي قيس، كان من كبار قريش وأحد المستهزئين الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم كما جاء في قوله تعالى ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ يقال أن جبريل رمى في وجهه بورقة فعمي، (انظر نسب قريش ص٢١٨، تأليف : أبو عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيري عني بنشره والتعليق عليه : إ. ليفي بروفنسال الطبعة الثالثة، الناشر : دار المعارف) . .

٣- الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمر المخزومي، كان من شرفاء قريش ومن صناديدها مات كافراً، وهو عمّ لأبي جهل ومن أبنائه خالد (سيف الله المسلول) وعمارة وغيرهم، (انظر جمهرة أنساب العرب ص١٤٤-١٤٧، تأليف : أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت) .

٤- هو أمية بن خلف بن حذافة الجمحي، كان من كبار قريش، قتل خبيب بن إيساف الخزرجي يوم بدر كافراً. ومن أبنائه، علي وقتل مع أبيه يوم بدر كافراً، وصفوان أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه (انظر نسب قريش ص٣٨٧ وانظر جمهرة أنساب العرب ص١٥٩) .

٥- هو العاص بن وائل بن هاشم السهمي وأمه هي سلمى البلوية كان من أشرف قريش وكبرائها . وهو الذي منع عمر بن الخطاب بمكة من قريش حين أظهر عمر الإسلام، من أبنائه الذين أسلموا هشام وقتل يوم أحنادين، وعمرو بن العاص الصحابي المشهور . مات بالأبواء بين مكة والمدينة (انظر نسب قريش ص٤٠٨-٤٠٩) .

٦- أخرجه ابن جرير بمعناه في تفسيره ٣٠/٢١٣-٢١٤ وابن هشام في السيرة النبوية ١/٣٦٣، حققها وضبطها : مصطفى السقا، إبراهيم الإياري، عبدالحفيظ شلبي الناشر : مؤسسة علوم القرآن .

٧- سورة الكافرون . .

وفي مؤتمر الحوار الذي عقد في لبنان عام ١٩٧٠م- والذي أشرت إليه سابقاً^(١) - وحضره ثلاثة من الهندوس، وأربعة بوذيين وثلاثة مسلمين، وثمانية وعشرون مسيحياً، كانت هناك فترات للعبادة المشتركة بقيادة واحد من الحاضرين^(٢)، فصلى المسلم خلف عبدة الأوثان كما يصلون، وأقرهم على ما هم عليه بل شاركهم فيه، ولا شك أن فعل شيء من ذلك يعد من الكفر الأكبر، لأن عبادة غير الله شرك أكبر باتفاق المسلمين، بل إن إقرار الكفار على ما هم عليه من الكفر المخرج عن الملة، فكيف بالمشاركة؟!
ج- إقرارهم على دينهم وتصحيحه لهم، أو مدحه باعتباره ديناً صحيحاً، أو مساواته بالإسلام:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- عن التتار: (وكذلك الأكابر من وزرائهم يجعلون الإسلام كدين اليهود والنصارى، وأن هذه كلها طرق إلى الله بمنزلة المذاهب الأربعة عند المسلمين، ثم منهم من يرجح دين اليهود أو دين النصارى، ومنهم من يرجح دين المسلمين وهذا القول فاش غالب فيهم، حتى في فقهاءهم وعبادهم ولا سيما الجهمية من الاتحادية الفرعونية ونحوهم فإنه قد غلبت عليهم الفلسفة، وهذا مذهب كثير من اليهود، وأيضاً لو قال قائل: إن غالب خواص العلماء منهم والعباد على هذا المذهب لما أبعد)^(٣).

ثالثاً: الحوار لتحقيق أهداف مشتركة كمحاربة الشيوعية^(٤)، أو لنشر الأديان السماوية الثلاثة ومن أمثلة ذلك:

ما تنزعمه السياسة الغربية من حوارات بين الأديان السماوية الثلاثة، وخاصة بين المسلمين والنصارى لمحاربة الشيوعية، وتضييق مجال عملها وكثيراً ما نرى أن الشيوعية إذا

١- انظر المبحث الأول من هذا الفصل ص ٩٤ .

٢- الحوار مع الأديان ص ٤٩ .

٣- مجموع الفتاوى ٤ / ٣٨١، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.

٤- الشيوعية حركة بدأت في روسيا عام ١٨٤٨م تقوم على أفكار ونظريات كارل ماركس وفلاديمير لينين .

ومن أهم الأسس الفكرية لها: إنكار وجود الله، وتفسير تاريخ البشرية من خلال مفهوم الصراع الطبقي ومحاربة الأديان، ومحاربة الملكية الفردية والمناداة بإزالة المادة وأن العوامل الاقتصادية هي المحرك الأول للأفراد والجماعات، وقد انتشرت الشيوعية في بلاد روسيا وجمهوريات آسيا الوسطى والصين وبلاد أوروبا الشرقية وقد سقطت هذه الحركة بسقوط الاتحاد السوفيتي وتفككه عام ١٩٩١م، (انظر الموسوعة العربية العالمية ١٤ / ٣١٠-٣١٢).

نشطت في بلد إسلامي، أو عزت الولايات المتحدة^(١) لحكومات هذا البلد بإعطاء المسلمين قدراً أكبر من الحرية – لا حباً لهم ولكن دفعاً للشيوعية – كما حدث ذلك في مصر، فهذه حركة سياسية، تستغل بها الحكومات الغربية المسلمين وتستثمر جهودهم لمصالحها، ولا حرج على المسلمين في محاربة الشيوعية أو استغلال الحريات لهم لنشر دينهم وإنما الحرج في الولاء مع الكفار لتحقيق أهدافهم.

والنقد الموجه لمثل هذه الحوارات ما يلي :

أولاً: أنها لا تحقق أهدافاً شرعية مقبولة، بل على العكس تحقق أهداف أعداء الإسلام في جعل أديانهم المحرفة على قدم المساواة بالإسلام، أو على الأقل إقرار المحاور المسلم بها يصاحب ذلك عدم اعترافهم بنبوّة محمد ﷺ على وجهها الصحيح من كونه رسولاً للعالمين وشريعته ناسخة لما قبلها.

يقول أنور الجندي^(٢) عن هذا الحوار: (وقد كشف المحاورون المسلمون أهداف هذه الدعوة إلى الحوار بأنها محاولة من الكنيسة للحصول على اعترافات صريحة بالنصرانية وبالسيد المسيح في غير مقابل مماثل، وأن هذه الاعترافات تقدم للنصارى والغربيين لثنيهم عن دخول الإسلام، بدعوى أنه لا توجد بين النصرانية والإسلام فوارق أساسية، وهذه خدعة شديدة الخطورة، إذ أن مفهوم التوحيد الخالص الذي يتميز به الإسلام له آثاره البعيدة في النفس الإنسانية وفي الإيمان بهذا الدين.

ومن هنا فإن قبول الحوار مع هذه الأديان دون تقدير الموقف الخاص لهذه الانحرافات أمر غير مقبول، خاصة وأن الجانب الآخر سيُصرُّ على موقفه، ويطلب بقبول الأمر الواقع فهل معنى هذا أن يعترف الإسلام بالأمر الواقع، وبالأديان القائمة الآن على أنها هي الأديان المنزلة، وأن كتبها هي الكتب المنزلة)^(٣).

١- رابعة دول العالم من حيث المساحة، والدولة الثالثة بعد الصين والهند من ناحية عدد السكان، تقع في النصف الجنوبي من أمريكا الشمالية وهي جمهورية اتحادية تتألف من خمسين ولاية، عاصمتها واشنطن دي. سي تعد الولايات المتحدة الأمريكية اقتصادياً من أكثر دول العالم تطوراً وإنتاجية قدم الأمريكيون إنجازات ضخمة للحضارة العالمية المعاصرة في عدة مجالات منها: التقنية والعلوم والطب. (انظر الموسوعة العربية العالمية ٢٧/١٤٨-١٩٣).

٢- هو أحمد أنور سيد أحمد الجندي ولد عام خمسة وثلاثين وثلاث مائة بعد الألف من الهجرة في مدينة ديروط من مديرية أسيوط بمصر، نشأ في بيت علم ودين وبدأ اتصاله بالكتب عن طريق قراءة مقدمة ابن خلدون ودائرة معارف فريد وجدي التي كان لها دور في تكوينه الإنشائي والفكري.

درس التجارة والاقتصاد وعمل في مصرف مصر – وهو مسلک لا يكاد يتصل بالاتجاه الذي صار إليه – ثم تحول إلى الصحافة، (انظر علماء ومفكرون عرفتهم ٢/٤٦-٤٩، تأليف: محمد المجذوب الطبعة الثالثة، الناشر: دار الاعتصام، القاهرة).

٣- مجلة منار الإسلام ص ٧١-٧٢ – مجلة شهرية تصدر من أبو ظبي – عدد جمادى الآخرة ١٤٠٧ هـ.

ثانياً: أن المتزعم لمثل هذه الحوارات في الغالب لا ينبغي له أن يمثل الإسلام لعدم انطباق الشروط الواجب أن تتوافر في المحاور المسلم، فلا يجوز أن يمثل الإسلام اسماعيلي^(١) أو قادياني^(٢)، فمثلاً روجيه جارودي^(٣) - وهو المخطط لمثل هذه الحوارات - وإن كان عالماً بفلسفة^(٤) الغرب إلا أنه ينقصه العلم بشريعة الإسلام، إضافة إلى أن له كتابات تدل على انحرفات فكرية ناشئة عن الجهل بالإسلام، ومنها على سبيل المثال قوله: (والقرآن يُقرُّ تعدد الزوجات ولكنه لم يشرعه أصلاً، فقد وجد من قبل أو أشير إليه في التوراة والعهد الجديد بل إن القرآن يفرض على تعدد الزوجات قيوداً منها: العدل التام بين مختلف الزوجات في الإنفاق والمحبة والمعاشرة الجنسية، وهذه الشروط والقيود إذا طبقت حرفياً كما نص عليها القرآن فإنها تجعل تعدد الزوجات أمراً مستحيلاً)^(٥).

ومن المعلوم أن الشارع لم يشترط العدل في المحبة ولا المعاشرة الجنسية وإنما اشترط المبيت والإنفاق ثم كيف يُقرُّ الله أمراً ويستحيل تطبيقه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٦).

ومن آرائه التي يرددها أن القرآن لا يصلح لكل زمان ومكان، ومن أقواله الدالة على ذلك: (ونحن نرى أن التفسير الضيق القائل بأن القرآن يتضمن تشريعاً يصلح لكل زمان ومكان - هذا التفسير - يهدد مستقبل الإسلام بالخطر)^(٧).

١- الإسماعيلية: فرقة باطنية، انتسبت إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، ظاهرها التشيع لآل البيت، وحققتها هدم عقائد الإسلام، تشعبت فرقتها وامتدت عبر الزمان حتى وقتنا الحاضر (انظر الملل والنحل ص ١٩١-١٩٢، تأليف: أبي الفتح محمد بن عبدالكريم ابن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق الأستاذ عبدالعزيز محمد الوكيل، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، وانظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٤٥، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ الناشر: الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض).

٢- القاديانية: حركة نشأت سنة ١٩٠٠م بتخطيط من الاستعمار الإنجليزي في القارة الهندية بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم وعن فريضة الجهاد بشكل خاص حتى لا يواجهوا المستعمر باسم الإسلام وكان لسان حال هذه الحركة مجلة الأديان التي تصدر باللغة الإنجليزية، (انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٣٨٩).

٣- فيلسوف فرنسي مسلم تولى رئاسة معهد حوار الحضارات والذي أنشئ عام ١٩٧٤م تحت رعاية منظمة اليونسكو، ومقره الآن في جنيف. (انظر روجيه جارودي لماذا أسلمت؟ نصف قرن من البحث والحقيقة ص ١٥-٧٩، دراسة أعدها محمد عثمان الخشت، الناشر: مكتبة القرآن بمصر، وانظر جارودي والحضارة الإسلامية ص ٢٩-٤٠ تأليف: أمينة الصاوي، د. عبدالعزيز شرف، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية).

٤- الفلسفة: دراسة تسمى لفهم غوامض الوجود، كما تحاول أن تكشف ماهية الحقيقة والمعرفة وهي عملية تشمل التحليل والنقد والتفسير والتأمل. وتنقسم الفلسفة إلى خمسة فروع هي: ما وراء الطبيعة ونظرية المعرفة والمنطق والأخلاق وعلم الجمال. وأشهر الفلاسفة: أفلاطون وسقراط وأرسطو وأوغسطين وفرانسيس بيكون ومن الفلاسفة المسلمين: الكندي والفارابي وابن رشد، (انظر الملل والنحل ص ٣١٢-٣١٣، وانظر الموسوعة العربية العالمية ١٧/ ٤٤١-٤٤٩).

٥- ما يعد به الإسلام ص ١٠٥، روجيه جارودي ترجمة قصي أتاسي / ميشيل واكيم، الطبعة الثانية ١٩٨٣م- الناشر: دار الوثيقة دمشق.

٦- الملل: ١٤.

٧- ما يعد به الإسلام ص ١٠٥.

أهمية تحديد الهدف :

يقتضي المنهج العلمي في الحوار تحديد نقاط الاختلاف بين المتحاورين بدقة، ثم ترتيبها في سلم المحاور الواحدة بعد الأخرى، يبدأ بالأهم فالمهم، بحيث ينتقل الحوار من الأصول إلى الفروع، ومن الكلبيات إلى الجزئيات، بتناسق علمي مُطّرد. فليس من الحكمة أن تناقش الفروع قبل الاتفاق على الأصول.

قال الربيع بن سليمان^(١) - يرحمه الله- : (كان الشافعي^(٢) إذا ناظره إنسان في مسألة فغدا إلى غيرها يقول : نفرغ من هذه المسألة، ثم نصير إلى ما تريد^(٣)).

فالمُتَحَاوِرَانِ قد يختلفان في مسائل عديدة، وليس على مسألة واحدة ثم يحدث الحوار بين الطرفين في مسائل الخلاف مجتمعة في آن واحد، فينتقل الحوار ويطول في أمور فرعية بعيدة عن موضوع المحاور. ولهذا يكون الحوار عائماً لا زمام له ، سائباً لا ينتهي إلى نتيجة والاستمرار بهذه الطريقة يعدُّ تبديداً للجهود وإضاعة للوقت، خاصة أن بعض المتحاورين يلجأ إلى الهروب والمراوغة، فإذا وجد أن الطرف الآخر أظهر عليه الحجة، فرّ إلى نقطة أخرى، وتشبث بها، أو تعلق بمسائل جانبية طرحها الطرف الآخر بعيدة عن مجال الخلاف، أو أنها ذات أثر محدود في القضية المتحاور عليها، أو أنها من القضايا المتفق عليها بين الطرفين المتحاورين، ويعرف هذا عند الأصوليين بتحرير محل النزاع.

فتحديد الهدف إذاً وسيلة من وسائل ضبط الحوار، وذلك يمنع تشعبه ودخوله في متاهات واستطرادات لا طائل من ورائها فليس المهم أن نتكلم كثيراً... بل المهم أن نتكلم بشيء مفيد نصل من خلاله إلى نتيجة صحيحة مسلم بها من قبل الطرفين المتحاورين.

١- الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل الإمام المحدث الفقيه أبو محمد المرادي، صاحب الإمام الشافعي وناقل علمه وشيخ المؤذنين بجامع القسطنطين ولد سنة أربع وسبعين ومئة. أفنى عمره في تعلم العلم ونشره بين الناس توفي -يرحمه الله- سنة سبعين ومئتين (انظر تهذيب التهذيب ١/ ٥٩٣ وانظر سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٨٧-٥٩٠).

٢- هو الإمام محمد بن إدريس فقيه ولد بغزة سنة خمسين ومائة، حُب إليه الفقه فصنّف التصانيف ودون العلم وحفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين قال عنه الإمام أحمد: كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للناس توفي رحمه الله سنة أربع ومائتين وله أربع وخمسون سنة، (انظر صفة الصفوة ٢/ ١٦٥، وانظر تهذيب التهذيب ٣/ ٤٩٧ وانظر سير أعلام النبلاء ٥/ ٩٩-١٠٠).

٣- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ص ٤٠ تأليف ابن جماعة الكناني الناشر دار الكتب العلمية بيروت، وانظر آداب العلماء والمتعلمين ص ٤٢ جمعه الحسين بن أمير المؤمنين المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ، الناشر: الدار البيعية للنشر والتوزيع .

قال الخطيب البغدادي^(١) - رحمه الله - في ذكر آداب الجدل والمناظرة: (ويكون كلامه يسيراً جامعاً بليغاً، فإن التحفظ من الزلل مع الإقلال دون الإكثار، وفي الإكثار أيضاً ما يخفي الفائدة، ويضيع المقصود، ويورث الحاضرين الملل)^(٢).

وقال الجويني إمام الحرمين - رحمه الله - في ذكر الجدل:

(وعليك بمراعاة كلام الخصم، وتفهم معانيه على غاية الحد والاستقصاء، فإن فيه أماناً من اضطراب ترتيب فصول الكلام عليك، فيسهل عليك عند ذلك وضع كل شيء في موضعه. وفيه أيضاً أمان من تلبيس الخصم، والذهاب عن تزويره، ولا تتمكنه من جمع القصور عليك في الأسئلة والأجوبة، فإنه يؤدي إلى انتشار الكلام، واختلاط مواضع النكته، والتباس موضع الحق بغيره. وإن طول عليك كلامه بعباراته الطويلة؛ فلخص من جميعها موضع الحاجة إليه فتحصره عليه. ثم تكلم فيه بما يليق به. لأنك إذا فعلت ذلك زال ما أوهم به الحاضرين من إيراد العلوم الكثيرة. وإذا لم تحصر عليه موضع الفائدة موّه عليك تقصيرك، ولأنك إذا أحصرت عليه في كلامه ألفاظه ومعانيه وأخذت إقراره في كل ذلك، فقلت: ألسنت قلت كذا؟ ومعناه كذا، لم يمكن الهرب مما يلزمه عليه من كلامك، ولا الرجوع. وإذا لم تفعل ذلك، ربما ناكرك عند الالتزام فتسد مواضع الخلل حين تنسبه له عند الإلزام)^(٣).

فالحوار يجب أن يكون متجهاً إلى هدف معين يسعى إلى تحقيقه، ومن ثم يكون بعيداً عن الجدل العقيم الذي لا فائدة ترجى من ورائه.

١- هو أبو بكر أحمد علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي صاحب التصانيف وخاتمة الحفاظ ولد سنة اثنتين وتسعين وثلاث مئة بعد أحفظ أهل البصرة على الإطلاق، وهو من كبار الشافعية تفقه على أبي الحسن المحاملي والقاضي أبي الطيب الطبري، توفي سنة ثلاث وستين وأربع مائة، (انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ١/ ٩٢-٩٣، وانظر سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٧٠-٢٨٦).

٢- الفقيه والمتفقه ٢/ ٢٨ للخطيب البغدادي صححه: إسماعيل الأنصاري، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت.

٣- الكافية في الجدل ص ٥٣.

ومن الأمثلة المناسبة في هذا المقام مناظرة عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - مع الخوارج^(١)، ففي هذه المناظرة الشهيرة سأل عبد الله بن عباس الخوارج عن مآخذهم على علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - وصحبه، وبذلك حدد مسائل الاختلاف بدقة، ثم بدأ باستعراض هذه المسائل الواحدة بعد الأخرى، لا ينتقل من واحدة إلا بعد أن ينهي الحوار فيها، ويقول لهم بعد كل مسألة بين وجه الحق فيها: أخرحت من هذه؟ فإذا قالوا: اللهم نعم. انتقل إلى المسألة التي تليها، حتى مرّ على جميع المسائل التي أشكلت عليهم.

١ - سبق تخريجه ص ٣٨ . هامش (٥) .

المبحث الأول: أهداف الحوار في دعوة موسى عليه السلام:

المطلب الأول: جذب المدعوين واستمالتهم إلى العقيدة الصحيحة:

النداء الأول في كل رسالة ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(١) هذه العبادة لله وحده هي العهد القديم الذي أخذه الله على بني الإنسان وسجله في فطرحهم البشرية، وخرسه في طبائعهم الأصلية منذ وضع في رؤوسهم عقولاً تعي، وفي صدورهم قلوباً تخفق، وفي الكون حولهم آيات تهدي: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٢).

هذا العهد بين الله وعباده هو الذي صورته القرآن في روعة وبلاغة حين قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾^(٣).

فلا عجب أن يكون المقصود الأعظم من بعث الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- وإنزال الكتب هو تذكير الناس بهذا العهد القديم، وإزالة ما تراكم على معدن الفطرة من غبار الغفلة أو الوثنية أو التقليد، ولا عجب أن يكون النداء الأول لكل رسول: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(٤) فهذا دعا نوح قومه وكذلك هود^(٥) وصالح^(٦) وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم. قال

١- الأعراف: ٥٩ .

٢- يس: ٦٠ - ٦١ .

٣- الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣ .

٤- الأعراف: ٥٩ .

٥- هو نبي الله هود بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح -عليه السلام- كان من قبيلة يقال لهم عاد بن عوص بن سام بن نوح وكانوا عربياً يسكنون الأحقاف وهي جبال الرمل . يقال إن هوداً -عليه السلام- أول من تكلم العربية، وقد أرسله الله إلى قوم عاد الذي هم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان فدعاهم إلى الله فكذبوه وخالفوه وتنقصوه فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . (انظر البداية والنهاية ١/ ١١٣) .

٦- هو نبي الله صالح بن عبد بن ماسح بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن آرم بن سام بن نوح -عليه السلام- أرسله الله إلى قوم ثمود وقد كثروا وكفروا وعتوا عن أمر ربهم فأقام فيهم يدعوهم إلى عبادة الله عشرين سنة فلما لم يستجيبوا جاءتهم صيحة من السماء فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وأما صالح -عليه السلام- فإنه سار إلى الشام فنزل فلسطين ثم انتقل إلى مكة فأقام فيها يعبد الله حتى توفي وهو ابن ثمان وخمسين سنة (انظر الكامل في التاريخ ١/ ٦٨-٧١ وانظر البداية والنهاية ١/ ١٢٣-١٣٠) .

تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٢) فالله عز وجل أرسل موسى -عليه السلام- إلى فرعون وقومه فدعاهم إلى توحيد الله وقبل أن ندخل في هذا الموضوع علينا أن نعرّف بتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية:

توحيد الربوبية:

ومعناه الاعتقاد الجازم بأن الله وحده هو رب كل شيء ومليكه، وهو الخالق الرازق المحيي المميت الضار النافع المعطي المانع المتصرف في هذا الكون بمشيئته المطلقة وليس معه رب آخر يشركه.

والقلوب مفطورة على الاعتراف بالرب سبحانه أكثر من اعترافها بأي شيء آخر لذلك أجاب الرسل أممهم بالاستفهام الإنكاري بقولهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣). وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات^(٤). وقد كان المشركون مقرين بتوحيد الربوبية وذلك واضح في كثير من آيات القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٥).

قال مجاهد: (إيمانهم بالله قولهم إن الله خلقنا وبرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره)^(٦).

وهكذا نرى أن مشركي العرب ومن سبقهم من الأمم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية لأن

١- النحل: ٣٦.

٢- الأنبياء: ٢٥.

٣- إبراهيم: ١٠.

٤- شرح العقيدة الطحاوية ص ١٧٩ خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني الطبعة الثامنة ١٤٠٤ هـ. الناشر: المكتب الإسلامي.

٥- يونس: ٣١.

٦- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص ٣٤ تأليف: الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، الطبعة الثالثة ١٣٩٧ الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت.

دلائل ربوبيته تعالى واضحة في كل شيء، فأشد الناس إلحاداً لا يصدق بأن يكون الأثر بلا مؤثر وأن تكون الصدفة هي التي نظمت هذا الكون بما فيه أبداع تنظيم وأحكامه ولهذا كان إقرار الخلق بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته^(١).

ومن هنا يتبين خطأ المتكلمين الذين بذلوا جهدهم وأتعبوا أنفسهم لتقرير توحيد الربوبية وأنكروا معرفة الله الفطرية، ومنهم الجهمية^(٢) والقدرية^(٣) الذين هم عند سلف الأمة من أجهل الطوائف وأضلهم، ظانين أن مشكلة البشرية من أول التاريخ أنها لا تعرف وجود الرب، وقد غفلوا عن هذه المعرفة الفطرية وأن المشكلة الحقيقية هي انحراف البشرية عن توحيد الألوهية^(٤).

الشرك في الربوبية:

المُشَبِّهُونَ لِلْخَالِقِ نَوْعَانِ أَهْلُ تَوْحِيدٍ، وَأَهْلُ إِشْرَاقٍ فِي الرَّبُوبِيَّةِ، وَلَمْ يَقَعْ الشَّرْكُ فِي الرَّبُوبِيَّةِ إِلَّا مِنْ طَوَائِفٍ مَعْدُودَةٍ وَالشَّرْكُ فِي الرَّبُوبِيَّةِ نَوْعَانِ:

أ- شرك التعطيل: وهو من أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون عندما قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٥) فقد أظهر إنكار الصانع وإن كان يعلم في الباطن أن موسى -عليه السلام- أصدق منه في الدعوة لربوبية الله، قال تعالى عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾^(٦) لذلك كان ردُّ موسى -عليه السلام-: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ﴾^(٧).

١- انظر مجموع الفتاوى ٣٢٨/١٦.

٢- الجهمية: هم أتباع جهم بن صفوان الذي قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال، وأنكر الاستطاعات كلها، وزعم أن الجنة والنار تبيدان وتفنيان وزعم أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، وأن الكفر هو الجهل به فقط، وقال: لا أصفه بوصف يجوز إطلاقه على غيره: كشيء موجود، وحي، وعالم، ووافق المعتزلة في نفي الرؤية، وإثبات خلق الكلام، وإيجاب المعارف بالعقل قبل ورود السمع، واتفق علماء الأمة على تكفيره (انظر الفرق بين الفرق ص ٥٨-١٥٩، تاليف: عبدالقاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان)، وانظر الملل والنحل ص ٨٦-٨٨، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٢٢-٥٢٣).

٣- القدرية: هم نفاة القدر، نسبوا إليه لنفيهم آياه ومن اعتقاداتهم نفيهم عن الله -عز وجل- صفاته الأزلية كالعلم والقدرة والحياة والسمع والبصر، ومن أقوالهم: أن العبد خالق لأفعاله خيرها وشرها، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً، وقد ورد في ذم القدرية أحاديث في السنة منها ما روى أبو داود في سننه «القدرية مجوس هذه الأمة» وقد تبرأ منهم ومن أقوالهم متأخرو الصحابة وعلماء التابعين. (انظر الفرق بين الفرق ص ١٤-١٥، ٧٨-٧٩، وانظر الملل والنحل ص ٤٣-٤٥).

٤- انظر مجموع الفتاوى ١٤/١٤ - ١٥، وانظر تفسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص ٣٤.

٥- الشعراء: ٢٣.

٦- النمل: ١٤.

٧- الإسراء: ١٠٢.

ب- اعتقاد أكثر من صانع للعالم كالثنوية من المحوس، الذين يقولون بوجود أصليين خالقين للعالم وهما: يزدان إله النور ويخلق الخير، وأهرمن: إله الظلمة ويخلق الشر، لكن إله الخير عندهم أحسن من إله الشر.

وكذلك شرك النصارى الذين يقولون بالأب والابن وروح القدس، ولكنهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب منفصلة، بل يقولون بأن صانع العالم واحد، وهم مضطربون جداً في تعبيرهم بالأقانيم الثلاثة، فتارة يفسرون الأقنوم بالخواص، وتارة بالأشخاص، وأخرى بالصفات^(١).

ومما سبق يتبين لنا أن العباد جميعاً حتى المشركين في الربوبية مفسطرون على فساد شرك الربوبية، لأن المعطلة كفرعون، والدهريين كالشيوعيين والفلاسفة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأن العقل الفعال هو الخالق المدبر، وأمثالهم من المعطلين هم مقرون في الباطن بالرب -سبحانه- بدليل رجوع فرعون وماركس^(٢) ولينين^(٣) إلى الإيمان عند موتهم كما جاء في القرآن عن فرعون: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُوْدُهُ بَغِيًّا وَعَدَّوْا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٤) وأما الذين قالوا بأكثر من صانع للعالم كالثنوية والنصارى فإنهم لم يسووا بينهم -كما سبق بيانه- بل يفاضلون بينهم فيكون شركهم شركاً في بعض الربوبية.

١- انظر مجموع الفتاوى ٩٦/٣ وانظر دعوة التوحيد أصولها الأدوار التي مرت بها - مشاهير دعائها ص ٢٧-٢٨ تأليف د. محمد خليل هراس. الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ. الناشر: دار الكتب العلمية بيروت.

٢- ماركس كارل فيلسوف ألماني واجتماعي وثوري محترف كان المؤسس الرئيسي لحركتين جماهيريتين قويتين هما: الاشتراكية الديمقراطية والشيوعية الثورية.

ولد ماركس كارل ونشأ في إقليم ترير عام ١٨١٨م وخلال سنين دراسته برزت قدراته العقلية، والتحق بالجامعة في عام ١٨٣٥م لدراسة القانون، وحصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة جينا عام ١٨٤١م، أنشأ نظرية المادية الجدلية وهي ذات مفاهيم صعبة وغامضة، اعتقد بالصراع بين الطبقات وقد دلت التجارب على فساد نظريته وأفكاره كونها مدمرة لسعادة الفرد والمجتمع مات عام ١٨٨٣م، (انظر الموسوعة العربية العالمية ٢٢/٦٢).

٣- لينين، في. أي مؤسس الحزب الشيوعي في روسيا ولد عام ١٨٧٠م وقد قاد ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ التي مكنت الشيوعيين من السيطرة على مقاليد الأمور في روسيا ثم حكم البلاد وبنى حكمه على الإرهاب حتى وفاته عام ١٩٢٤م، (انظر الموسوعة العربية العالمية ٣١٠-٣٠٩/٢١).

٤- يونس: ٩٠.

وبهذا يتبين أنه ليس في طوائف العالم قط من يثبت صانعين خالقين متماثلين في جميع الصفات، فالشرك في الربوبية إذن بهذا الاعتبار معلوم الامتناع عند جميع طوائف أهل الأرض من الموحدين والمشركون.

توحيد الألوهية :

وهو المسمى بالتوحيد العملي أو توحيد العبادة ومعناه: الاعتقاد الجازم بأن الله وحده هو المستحق لجميع أنواع العبادة مع القيام بصرف هذه العبادات له وحده ولا يصرف منها شيء لغيره^(١).

والعبادة في اللغة :

الخضوع والتذلل، أي استسلام المرء وانقياده لأحد غيره انقياداً لا مقاومة ولا عدول عنه، ولا عصيان له حتى يستخدمه هو حسب ما يرضى وكيفما يشاء.

وعلى ذلك تقول العرب: (بغير معبد) للبعير السلس المنقاد. وتقول: (طريق مُعَبَّد) للطريق الممهّد الوطء. ومن هذا الأصل اللغوي نشأت في مادة هذه الكلمة معاني العبودية والطاعة والتألة والخدمة والقيّد والمنع^(٢).

وجاء في لسان العرب:

١- (العبد) المملوك خلاف الحر (تعبَّدَ الرجل) اتخذهُ عبداً أي مملوكاً أو عاملة معاملة العبد، وكذلك يقال في اللغة: عبَّدَ الرجل وأعبده واعتبده^(٣).

١- انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٨٣-٨٦ .

٢- معجم المقاييس في اللغة ٧٢٨ باب العين والباء وما يثلثهما .

٣- انظر لسان العرب ٤ / ٢٥٩-٢٦١ فصل العين حرف الدال .

وفي القرآن أن موسى -عليه السلام- قال لفرعون: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(١) أي اتخذتهم عبداً لك .

٢- العبادة: تطلق في اللغة على الطاعة والخضوع ويقال: (عبد الطاغوت) أي أطاعه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾^(٢) أي نطيع الطاعة التي نخضع معها لك ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾^(٣) أي دائنون وكل من دان لملك فهو عابد له .

٣- (عبده عبادة) أي تأله له، و(التعبُد) التنسك .

يقال فلان عابد: أي خاضع لربه مستسلم لأمره^(٤) .

استعمال كلمة العبادة في القرآن:

يقول أبو الأعلى المودودي^(٥) -رحمه الله-:

(وإذا رجعنا إلى القرآن رأينا أن كلمة العبادة قد وردت فيه غالباً في المعاني الثلاثة الأولى، ففي بعض المواضع قد أريد بها المعنيان الأول والثاني معاً، وفي الأخرى المعنى الثاني وحده، وفي الثالثة المعنى الثالث فحسب، كما قد استعملت في مواضع بمعانيها الثلاثة في آن واحد . مثال ما جاءت بالمعنيين الأول والثاني في القرآن قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرِينَ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾^(٦) .

أي مُعَبَّدُونَ بالأعمال والأشغال الشاقة، فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟

١- الشعراء: ٢٢ .

٢- الفاتحة: ٥ .

٣- المؤمنون: ٤٧ .

٤- لسان العرب ٤/ ٢٥٩ - ٢٦٩ .

٥- هو أبو الأعلى المودودي أحمد حسن ولد سنة ١٣٢١هـ في أورنج أباد بالهند . بدأ مرحلة التعليم على يد والده الذي تلقى منه دروسه الأولية في العربية والقرآن والفقه واللغة الفارسية، وبلغ من نباهته واجتهاده في هذه المرحلة أن استظهر موطأ مالك عن ظهر قلب .

أسس الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية سنة ١٣٥٧ وله مؤلفات كثيرة منها: الجهاد في الإسلام، المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم، مبادئ الإسلام وغيرها توفي الشيخ يرحمه الله سنة ١٣٩٩هـ (انظر أبو الأعلى المودودي، حياته وفكره العقدي . تأليف حمد بن صادق الجمال رسالة ماجستير، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ الناشر: دار المديني للنشر، وانظر أبو الأعلى المودودي والصحوة الإسلامية تأليف د. محمد عمارة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ الناشر: دار الشروق، وانظر علماء ومفكرون عرفتهم ٢/ ٦-٧) .

٦- المؤمنون: ٤٥ - ٤٧ .

وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا^(١)؟

فالمقصود بالعبادة في الآية السابقة العبودية والطاعة. ثم أضاف قائلاً: (والعبادة) بمعناها الثاني فحسب أي الطاعة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٢).

(والعبادة) بمعناها الثالث أي التأله تشتمل على أمرين اثنين حسبما يدل عليه القرآن: أولهما: أن يؤدي الأمر لأحد من الشعائر - كالسجود والركوع والقيام والطواف... مما يؤديه عادة بقصد التأله والتنسك.

وثانيهما أن يظن المرء أن أحداً يسيطر على نظام العالم ثم يدعوه في حاجته ويستغيث به في ضره وأمنه ويعوذ به عند نزول الأهوال ونقص الأنفس والأموال فهذان من عمل المرء كلاهما داخل في معاني التأله^(٣).

والشاهد على ذلك من آيات القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤).

والعبادة في الاصطلاح: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة^(٥).

أما توحيد الألوهية في الاصطلاح فقد عرفه الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي^(٦) فقال:

١- انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٥ / ٣٥٤.

٢- يس: ٦٠.

٣- مصطلحات القرآن الأربعة في فكر المودودي (الإله - الرب - العبودية - الدين) ص ١٩١-١٩٤، تأليف: د. حمد بن صادق الجمال، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ - الناشر: دار عالم الكتب.

٤- غافر: ٦٦.

٥- العبودية ص ٣٨ تأليف شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام بن تيمية تقديم الأستاذ عبدالرحمن الباني، الطبعة الخامسة ١٣٩٩هـ، الناشر: المكتب الإسلامي.

٦- هو الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي، عالم من علماء جيزان ولد سنة ١٣٤٢هـ وبدأ في طلب العلم في سن السادسة عشرة على يد الشيخ عبد الله القرعاوي يرحمه الله، كان راعياً للغنم وتفرغ للدراسة إلى أن أصبح مديراً للمعهد العلمي بصامطه، من مؤلفاته معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة المنصورة وغيرها، توفي يرحمه الله سنة ١٣٧٧هـ، وله من العمر خمس وثلاثون سنة (انظر مقدمة معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الوصول في التوحيد ١ / ١١-٢٠ بقلم ابنه د. أحمد تأليف الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي ضبط نصه وعلق عليه وخرج أحاديثه: عمر بن محمود أبو عمر، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ الناشر: دار ابن القيم للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية - الدمام، وانظر المستدرک علی معجم المؤلفین ص ١٨٣-١٨٤ وانظر الأعلام ٢ / ١٥٨).

(إفراد الله عز وجل بجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة قولاً وعملاً) (١) كما قال الله تعالى :
﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (٢) وهذا التوحيد هو الذي
جاءت به الرسل ودعوا إليه أقوامهم، فالرسل مُقَرَّون لتوحيد الربوبية داعون لتوحيد الألوهية
كما أخبر الله عنهم فقال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٣).

قال ابن القيم -رحمه الله- : (وطريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات،
فينفي عبادة ما سوى الله، ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد، والنفي ليس بتوحيد،
وكذلك الإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفي والإثبات وهذه حقيقة لا
إله إلا الله) (٤).

فالتوحيد هو لب الإسلام وأساسه، ومنه تنبثق سائر نظمه وأحكامه وأوامره ومناهجه .
وبالجمللة فكل الرسل بُعثوا بالدعوة لتوحيد الألوهية وإفراد الله بالعبادة وترك عبادة
الطواغيت والأصنام كما قال تعالى :

١- أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة المنصورة ص ٥١ للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي، حققه مصطفى أبو النصر الشلبي، الطبعة
الثانية، الناشر مكتبة السوادي، ١٤٠٨هـ .
٢- طه : ١٤ .
٣- الأنبياء : ٢٥ .
٤- أبطال التنديد شرح كتاب التوحيد، ص ١٩ للعلامة حمد بن علي بن عتيق، الطبعة السادسة، ١٤١٥هـ الناشر: دار الهداية للنشر
 بالرياض .

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(١) فكان كل رسول أول ما يقرع به سمع قومه ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(٢) وافتتاح الدعوة بهذا النداء أكبر دليل على أن الرسل لم يُبعثوا فقط لتعريف الخلق بخالقهم، وإثبات وجوده، لأن معرفته والإيمان بوجوده أمر فطري، وإنما بعثوا لتعبيد الخلق لإلههم ومعبودهم الحق، ونبذ كل ما يعبد من دونه من الآلهة المزعومة.

وموسى -عليه السلام- شأنه شأن سائر الأنبياء -عليهم السلام-، فقد توجه إلى فرعون وقومه فدعاهم إلى توحيد الله وحده. ولكن هذه المرحلة سبقتها مرحلة أخرى أراد الله -عز وجل- فيها أن يقرر التوحيد في نفس موسى -عليه السلام- أولاً قبل أن يكلفه بالدعوة كما جاء في القرآن الكريم:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾^(٣).

فهذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له وقوله ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أي وحدني وقم بعبادتي من غير شريك. وكذا قوله تعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٤).

قال ابن كثير -رحمه الله-: (أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الذي عز كل شيء وقهره وغلبه الحكيم في أقواله وأفعاله)^(٥).

١- النحل : ٣٦ .

٢- الأعراف : ٦٥ .

٣- طه : ١٤ - ١٦ .

٤- النمل : ٩ .

٥- تفسير القرآن العظيم ٣ / ٣٥٨ .

ويذكر الشوكاني^(١) رحمه الله - أن موسى - عليه السلام - قال : (يارب من الذي ناداني ؟ فأجابته الله سبحانه بقوله : ﴿ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٢))^(٣) .

وبعد أن قرر الله عز وجل عقيدة التوحيد في نفس موسى - عليه السلام - كلفه بدعوة فرعون وقومه كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾^(٤) أي اذهب إلى فرعون ملك مصر ثم ادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له فإنه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا .

وقد خُصَّ فرعون بالذكر وحده هنا في حين أن دعوة موسى - عليه السلام - عامة لفرعون وقومه لأن قومه تبع له .

وفي قوله تعالى : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ * اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾^(٥) قرن الله - عز وجل - الأمر بالدعوة بالأمر بالذكر والله سبحانه وتعالى يبحث دائماً على الذكر في كل لحظة، ومن ذكّر الله في الرخاء، ذكره الله في الشدة، وإنّ من أنواع الذكر التي تنجي في الشدائد تسبيح الله سبحانه ولقد قال الله في شأن ذي النون^(٦) حينما ابتلعه الحوت :

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ^(٧) ﴿ وقال في شأن أصحاب الجنة حينما طاف عليها طائف من ربك : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾^(٨) .

١- هو محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن من أهل صنعاء ولد بهجرة شوكان سنة ١١٧٣هـ ونشأ بصنعاء وولي قضاءها له ١١٤ مؤلفاً منها نيل الأوطار أسرار منتقى الأخبار، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير وغيرها كثير. توفي يرحمه الله عام ١٢٥٠، (انظر البدر الطالع محاسن من بعد القرن السابع ٢/١١٤-٢٢٥، وانظر الأعلام ١٩٠/٧).

٢- النمل : ٩ .

٣- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ٤/ ١٢٧ .

٤- طه : ٢٤ .

٥- طه ٤٢ - ٤٤ .

٦- هو نبي الله يونس بن متى أرسله الله إلى أهل نينوى من أرض الموصل فدعاهم إلى الله عز وجل فكذبوه وتمردوا عليه بكفرهم وعنادهم فلما طال ذلك عليه خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث فلما تحققوا نزول العذاب قذف الله في قلوبهم التوبة ودعوا الله - عز وجل - بتضرع فكشف عنهم العذاب ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ يونس : ٩٨، (انظر البداية والنهاية ١/٢١٦-٢٢٢) .

٧- الصافات : ١٤٣ - ١٤٤ .

٨- القلم : ٢٨ .

فالمقصود أن الله - عز وجل - أمرهما بأن لا يفترا عن ذكره - كما قال ابن كثير - بل يذكران الله في حال المواجهة مع فرعون ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه وقوة لهما وسلطاناً كاسراً^(١).

وفي هذه الآية فائدة عظيمة، وهي أن الله - عز وجل - أمر موسى - عليه السلام - وهو صفوة الله من خلقه أن يخاطب فرعون وهو في غاية العتو والاستكبار بالملاطفة لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، أو يتذكر فالتذكر الرجوع عن المحذور والخشية بتحصيل الطاعة.

ولكنه أنكر هذه الدعوة كما جاء في القرآن الكريم: ﴿فَأْتِيَ فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسَلْنَا مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عَمْرٍكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ * قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٢).

هذا السؤال الذي بدأه فرعون بـ (وما) في قوله تعالى ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) يدل أن يبدأه بـ (ومن) يدل على أن فكرة الألوهية كانت مختلطة مشوشة عند فرعون.

قال السدي^(٤): (ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط فإنه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر وإن

١- تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٥٤.

٢- الشعراء الآيات من ١٦ - ٢٨.

٣- الشعراء: ٢٣.

٤- هو إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة الإمام المفسر أبو محمد الحجازي ثم الكوفي الأعور السدي، أحد موالي قريش كان يقعد في سدة باب الجامع فسَمِّي السدي، حدث عن أنس بن مالك وابن عباس قال عنه العجلي: ثقة عالم بالتفسير راوية له، توفي سنة سبع وعشرين ومئة، (انظر تهذيب التهذيب ١/ ١٥٩، وانظر سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٤-٢٦٥).

كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه^(١).

ولما كان فرعون لا يمكن إطلاعه على معرفة الله تعالى إلا بآثاره في خلقه، وأظهر آثار خلق الله وأبرزها السماوات والأرض وما بينهما فلم يكن لسؤال فرعون جواب غير ما أجابه موسى -عليه السلام- حيث قال له: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾^(٢) أي إن كنتم موقنين بإسناد هذه المحسوسات إلى رب العالمين الذي سألتكم عنه^(٣).

ولما أجابه بهذا الجواب أبدى عدو الله العُجْبَ وكأنه أظهر لملكه أن الجواب غير مطابق للسؤال لأنه سأل عن ذات الله تعالى وأجابه موسى بتأثير تلك الذات في الخلق فقال على سبيل التهكم والاستهزاء ﴿أَلَا تَسْتَمْعُونَ﴾^(٤) ومع أنه انصرف في خطابه عن موسى -عليه السلام- إلى الملائكة قائلاً لهم ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه أن لكم إلهاً غيري إلا أن موسى -عليه السلام- لم يمهله فأجابه بما هو أقرب إلى الأذهان من الجواب الأول فقال له: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾^(٥) أي خالقكم وخالق آباءكم الأولين الذين كانوا قبل فرعون وزمانه^(٦)، إذ لا يمكن أن يعتقد عاقل في أبيه وأجداده وجوب الوجود، لأن المشاهدة شهدت أنهم وجدوا بعد عدم، وعدموا بعد وجود، ولهذا عدل موسى -عليه السلام- إلى هذا التعريف لأنه أظهر، وكان جواب فرعون أن قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾^(٧) يعني أن موسى -عليه السلام- عرفه على الله بالآثار الخارجية ولم يسأله عن ذلك فهو إذاً مجنون لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب عليه ولكن هذا الوصف لم يثن موسى -عليه السلام- عن حوارته مع فرعون بل لم يشتغل بدفع ما نسب إليه من الجنون حيث أتى بجواب ثالث يبين فيه لفرعون شمول ربوبية الله فقال: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٨) فعدل إلى طريق أوضح مما قبلها وذلك لأنه أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار وأراد بالمغرب غروب الشمس وذهاب النهار،

١- تفسير القرآن العظيم ٣/٣٣٣.

٢- الشعراء: ٢٤.

٣- انظر معالم التنزيل ٦/١١١.

٤- الشعراء: ٢٥.

٥- الشعراء: ٢٦.

٦- انظر تفسير القرآن العظيم ٣/٣٣٤.

٧- الشعراء: ٢٧.

٨- الشعراء: ٢٨.

وهذا يدل على أن هذا التدبير المستمر الدائم المتوازن الذي لا يتغير بطول الزمن لا يستمر إلا بتدبير مدبر متصرف في هذا الكون وحده خالق له ومميت^(١).

ثم ختم موسى -عليه السلام- هذا الجواب بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٢) أي إن كنتم من العقلاء علمتم أنه لا جواب لسؤالكم إلا ما أجبتمكم به.

ولما عجز فرعون وقامت عليه الحجة عدل إلى التهديد فقال: ﴿لَنْ اتَّخَذَتْ إِلَٰهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾^(٣) فأجاب موسى -عليه السلام- بلين وحكمة: ﴿أَوْ لَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾^(٤) أي أتسجنني ولو جئتكم بأمر واضح^(٥) بين لا لبس فيه على أنني رسول من رب العالمين، وعلى أنه موجود واجب الوجود لذاته فعند ذلك غلب على فرعون جهله فقال لموسى: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٦) أي ائت بهذا الشيء المبين الذي ذكرت أنه دليل لك على أنك رسول من رب العالمين، وأن رب العالمين موجود.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ﴾^(٧) فاتهموه بالسحر والجنون ﴿قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَا تُورِكُ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ﴾^(٨) فجمع له السحرة فغلبهم فآمنوا به فهددهم فرعون بالقتل لإيمانهم بموسى -عليه السلام- ولكنهم قالوا: ﴿لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(٩).

ولما تمادى فرعون في تكذيبه لموسى -عليه السلام- وأخذته العزة بالإثم في إذلال بني إسرائيل وإهانتهم أرسل الله إليهم معجزات شاهدات بوحدايته ومؤيدات لرسوله غير ما ذكر من آيتي العصا واليد وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وعند نزول كل بلاء بهم كانوا يطلبون من موسى -عليه السلام- أن يدعوا ربه لكشف ذلك عنهم حتى يؤمنوا ولم يذهبوا لفرعون لكشف ذلك لعلمهم أنه عاجز عن ذلك ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشِفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي

١- انظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٣/ ١١٠ .

٢- الشعراء: ٢٨ .

٣- الشعراء: ٢٩ .

٤- الشعراء: ٣٠ .

٥- انظر تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٣٤ .

٦- الشعراء: ٣١ .

٧- الشعراء: ٣٤-٣٧ .

٨- الشعراء من: ٣٤-٣٧ .

٩- طه: ٧٢-٧٣ .

إِسْرَائِيلَ ﴿١﴾ لكنهم بعد كشف العذاب عنهم في كل مرة يرجعون لكفرهم بالله مع تيقنهم أن موسى - عليه السلام - على الحق وأن هذه الآيات شاهدة بصدقة كما قال تعالى عنهم:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (٢). وقال تعالى أيضاً عن قول موسى عليه السلام لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاطِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ (٣). هذا من ناحية فرعون وقومه.

أما من ناحية بني إسرائيل فقد وردت دعوته إياهم إلى التوحيد في مواطن كثيرة من القرآن الكريم فمثلاً بعد إنجاء الله لموسى - عليه السلام - وقومه - بسبب توحيدهم - من طغيان فرعون وتجبّره.. ما لبثوا أن عادوا لطلب ما كانوا عليه من الشرك عندما مروا بقوم يعبدون الأصنام ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤).

ولما ذهب موسى - عليه السلام - لميقات ربه غدروا به فعبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري (٥) من حليهم ﴿وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٍ﴾ (٦) فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴿٧﴾. فنقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم وهم في أصلاب آبائهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨).

١- الأعراف: ١٣٤.

٢- النمل: ١٤.

٣- الإسراء: ١٠٢.

٤- الأعراف: ١٣٨-١٣٩.

٥- السامري نسبة إلى سامر ونطقها في العبرية «شومير» من مادة شمر، أي حرس (انظر قصص الأنبياء ص ٣٠٥ لعبد الوهاب النجار).

والسامري في لغة العرب معناه: اليهودي وقد اختلف المفسرون والمؤرخون في شأنه على عدة أقوال: القول الأول: أن السامري كان ابن عم موسى - عليه السلام - واسمه موسى بن ظفر ويقال كان من أهل باجرما وكان من قوم يعبدون البقر وقد أظهر الإسلام في بني إسرائيل إلا أن حب عبادة البقر كان في نفسه (انظر تاريخ الرسل والملوك ٤٢٤/١-٤٢٥).

القول الثاني: أن السامري من كرمان قاله سعيد بن جبیر (انظر زاد المسير في علم التفسير ٣١٨). القول الثالث: يذكر صاحب البداية والنهاية اسماً آخر فيقول: «حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه... فعمد رجل منهم يقال له هارون السامري» ٢٨٦/١.

ومن هنا يبدو أن الرجل كان من القوم الذين عبدوا العجل - أي بني إسرائيل - ومن قبيلة تعرف بالسامرة. ٦- الخوار مخصص بالبقر وقد يستعار للبعير والخوران يقال مجرى الروث وصوت البهائم (انظر المفردات في غريب القرآن ص ١٦١، تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني الناشر: دار المعرفة - بيروت).

٧- طه: ٨٧-٨٨.

٨- البقرة: ٨٣.

وقد اختلف العلماء في زمن هذا الميثاق هل أخذ عليهم وهم في أصلاب آبائهم أم أخذ عليهم وهم في حياتهم؟

فمن العلماء من قال إن هذا الميثاق هو الذي أخذه الله تعالى عليهم وهم في أصلاب آبائهم كالذر.

وهناك من قال إن هذا الميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء في حياتهم على لسان موسى عليه السلام وغيره من أنبيائهم.

وقيل هو ميثاق أخذ عليهم في التوراة بأن يعبدوا الله وحده.

وقد ذكر المفسرون أوجهاً كثيرة في معنى قوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ وفي توجيه إعراب الجملة^(١).

والمقصود هنا إثبات الدليل على أن موسى - عليه السلام - أمر قومه بعبادة الله وحده، وذلك لأن الغالب في القرآن أنه إذا ذكر فيه إرسال رسول إلى قومه، أتبع ذلك أمر الرسول لهم بعبادة الله أمراً صريحاً يلي الرسالة فوراً، وموسى - عليه السلام - لا شك في أن له الحظ الوافر من ذلك النوع من الدعوة، ولكنني إلى الآن - بعد استعراض قصته في القرآن - لم أجد الأمر الصريح كما قال في نوح - عليه السلام - مثلاً:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ...﴾^(٢).

وفي هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ...﴾^(٣).

وفي صالح: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ...﴾^(٤).

وفي شعيب: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ...﴾^(٥).

وقال في إبراهيم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ...﴾^(٦).

وقال في عيسى^(٧): ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾^(٨).

١- واطهر الأوجه التي ذكروا في ذلك: أنه خبر بمعنى النهي لأن ذلك أبلغ من صريح النهي، لما فيه من إيهام أن المعنى كأنه سارع إلى الكف عن المنهي عنه حتى أخبر عنه بالحال أو الماضي، أي ينبغي أن يكون ذلك، ويؤيده قراءة ابن مسعود: ﴿لَا تَعْبُدُوا﴾ وكذلك المعطوفات عليه كلها أوامر: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ (البقرة: ٨٣): أي أحسنوا إليهم إحساناً ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ (البقرة: ٨٣) و﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ (البقرة: ٨٣).

٢- الأعراف: ٥٩.

٣- الأعراف: ٦٥.

٤- الأعراف: ٧٣.

٥- الأعراف: ٨٥.

٦- العنكبوت: ١٦.

٧- هو عيسى ابن مريم السيدة البتول ولد أيام ملوك الطوائف بلا أب عن طريق نفخة من روح الله في جيب أمه فحملت به بإذن الله، ويقال أن الأصنام تنكست عند ولادته لى رؤوسها وفزعت الشياطين فرعاً شديداً. أوحى الله إليه بالنبوة وعمره ثلاثين سنة وكانت نبوته ثلاث سنين ثم رفعه الله إليه، من معجزاته - عليه السلام - أنه يصنع من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، ويبرئ الأكسمة والأبرص بإذن الله ويحي الموتى بإذن الله. ويخبرهم بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم (انظر تاريخ الرسل والملوك ٥٩٨/١-٦٠٤، وانظر الكامل في التاريخ ٢٤٢/١).

٨- المائدة: ١١٧.

وقال تعالى في شأن موسى -عليه السلام-: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾^(١).

فعلى هذا يكون موسى عليه السلام أمر قومه بعبادة الله وحده، لأن توحيد الله يدخل في الأمر بتقوى الله دخولاً أولياً بلا شك.

وقيل إن المعنى هنا: قل لهم ألا تتقون، وجاء بالياء لأنهم غيب وقت الخطاب^(٢) فُتَحُصِّلَ أن موسى -عليه السلام- أمر فرعون وقومه بتقوى الله المستلزمة لعبادته وحده لا شريك له وطرح عبادة جميع الأصنام كما أمر بني إسرائيل بذلك أيضاً.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾^(٣).

وقد دلت هذه الآية أيضاً على دعوته إلى توحيد الله تعالى، فإن الإخراج من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان لا يتم إلا عن طريق إفراذ الله -سبحانه وتعالى- بالعبادة والإقرار له بالعبودية^(٤).

والحاصل أن المقصود من البعثة واحد في حق الرسل جميعاً -عليهم الصلاة والسلام- وهو أن يسعوا في إخراج الخلق من ظلمات الضلالات إلى أنوار الهدايات. فهذه الآية التي ذكرت دلت على أن موسى -عليه السلام- دعا قومه إلى عبادة رب واحد. وإن كنت إلى الآن لم أعثر في القرآن على الأمر الصريح بصيغة من صيغه المعروفة^(٥) من مادة العين والباء والبدال، كما سبق ذكره^(٦).

١- الشعراء : ١٠-١١ .

٢- الجامع لأحكام القرآن ٩١/١٣ .

٣- إبراهيم : ٥ .

٤- جامع البيان في تفسير القرآن ١٣/١٢٢ .

٥- وهي فعل الأمر، والمضارع المجزوم لام الأمر واسم فعل الأمر، والمصدر عن فعل الأمر نحو ﴿أقم الصلاة﴾ ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ ﴿وعليكم أنفسكم﴾.

٦- انظر المطلب الأول من هذا المبحث ص ١١٦ .

ولما اتخذ بنو إسرائيل العجل إلهاً وقالوا: ﴿ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى ﴾^(١) قال لهم موسى -عليه السلام- عندما رجع إليهم: ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾^(٢).
أي ليس هذا إلهكم إنما إلهكم الذي لا إله إلا هو فلا أحد يستحق العبادة سواه، فإن كل شيء فقير إليه فهو عالم بكل شيء أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً^(٣).

١- طه : ٨٨ .

٢- طه : ٩٨ .

٣- تفسير القرآن العظيم، ١٦٥/٣ .

المطلب الثاني: تحرير بني إسرائيل من العبودية:

لقد كان بنو إسرائيل ينعمون بالخيرات والبركات في أول أمرهم في أرض مصر ولكن هذه الخيرات لم تدم عليهم للأسباب التالية:

أولاً: كانت هناك أسرة تسمى آل فرعون حكمت مصر بزعامة فرعون فأذاق بني إسرائيل الويلات والعذاب.

ثانياً: جعلهم عبيداً له ثم نصب نفسه إلهاً من دون الله.

ثالثاً: استكبر في الأرض وتمادى في ظلمه للقوم.

بهذه الأسباب عاش الناس في عبودية وبؤس وشقاء إذ كان فرعون، وقومه يذيقون بني إسرائيل أشد أنواع العذاب فكانوا كالإبل السائمة يصرفونهم في العذاب مرة هكذا ومرة هكذا حتى أصبح هذا العذاب هو الغذاء الدائم الذي يُطعمونهم إياه فلا يُفتر عنهم ولا ينقطع وذلك حتى يضعف ساعد بني إسرائيل وتثقل تبعاتهم.

قال وهب^(١): (كانوا أصنافاً في أعمال فرعون، فذوو القوة ينحتون السواري^(٢) من الجبال حتى قرحت^(٣) أعناقهم ودبرت^(٤) ظهورهم من قطعها ونقلها، وطائفة ينقلون الحجارة، وطائفة يبنون له القصور، وطائفة منهم يضربون اللبن ويطبخون الآجر، وطائفة

١- هو وهب بن منبه بن كامل بن سيج بن ذي كبار العلامة الأخباري القصصي أبو عبد الله الأنباوي، ولد في زمن عثمان سنة أربع وثلاثين. قال مسلم الترمذي من المثني بن الصباح: (لبث وهب بن منبه أربعين سنة لم يسب شيئاً فيه الروح ولبت عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءاً. كان وهب يتهم بشيء من القدر لكنه رجع)، توفي سنة عشر ومئة وقيل سنة ثلاث وعشر (انظر تهذيب التهذيب ٤/ ٢٢٣، وانظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٤٤-٥٤٧).

٢- السارية: الاسطوانة وقيل اسطوانة من حجارة أو آجر وجمعها السواري (انظر لسان العرب ١٩/ ١٠٥ فصل السين حرف الواو والياء).

٣- القرخ: الجرح - قَرِحَ قَرَحاً: بدت به جروح من سلاح أو بشور (انظر لسان العرب ٣/ ٣٩١-٣٩٢ فصل القاف حرف الفاء).

٤- الدبرة: قرحة الدابة والبعير. يقال دبرت الدابة أي قرح ظهرها (انظر لسان العرب ٥/ ٣٨٥ فصل الدال حرف الراء).

بخارون وحدادون والضعفة منهم يضرب عليهم الخراج ضريبة يؤدونها كل يوم فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدي ضريبته غُلت عينه إلى عنقته شهراً والنساء يغزلن الكتان وينسجن^(١).

وليت الأمر اقتصر على ذلك بل تجده يسعى دائماً إلى أن يُبقي الناس مستعبدين أذلاء لا يعرفون الحرية والقوة ويكون هو وأسرته المسيطرين على رقاب القوم فلا عجب أن يصدر قراراً موجبه إعدام كل ذكر يولد في بني إسرائيل إضافة إلى استحياء نسائهم وذلك منعاً لتكاثر القوة المانعة منهم واستبقاء لضعفهم وذلكم.

والسبب في ذلك - كما مر بنا^(٢) - أنه رأى في منامه كأن ناراً أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر وأحرقت كل قبطي بها ولم تتعرض لبني إسرائيل فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رؤياه.

فقالوا يولد في بني إسرائيل غلام يكون على يده هلاكك وزوال ملكك فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل فنفذ جنده هذا القانون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٣). حتى قيل إنه قتل في بني إسرائيل اثني عشر ألف صبي في طلب موسى - عليه السلام -.

وقال وهب: (وبلغني أنه ذبح في طلب موسى تسعين ألف وليد)^(٤).

فأسرع الموت في مشيخة بني إسرائيل فدخل رؤوس القبط على فرعون وقالوا: إن الموت قد وقع في بني إسرائيل فتذبح صغارهم ويموت كبارهم فيوشك أن يقع العمل علينا. فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة فولد هارون في السنة التي لا يذبحون فيها وموسى في السنة التي يذبحون فيها.

١- معالم التنزيل ١/ ٩١ .

٢- انظر المطلب الثاني من المبحث التمهيدي ص ٥٨ هامش (٥) .

٣- القصص: ٤ .

٤- معالم التنزيل ١/ ٩١ .

استمر هذا العذاب والبؤس والشقاء في بني إسرائيل إلى أن أرسل الله موسى وأخاه هارون -عليهما السلام- لإنقاذ هذا الشعب المضطهد مما هم فيه من العذاب قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (١) .

طلب موسى إطلاق بني إسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل فبهت هذا الدين في نفوسهم وفسدت عقائدهم فأرسل الله إليهم موسى -عليه السلام- لينقذهم من ظلم فرعون ويعيد تربيتهم على دين التوحيد .

وقد كانت مطالب موسى -عليه السلام- لإنقاذ بني إسرائيل من براثن فرعون -كما جاء في الآية- تتضمن الأمور التالية :

أولاً: دعوة فرعون -الذي هو رئيسهم ومعبودهم- إلى الإقرار بواحدانية الله وربوبيته .

ثانياً: أن يقر فرعون بأن موسى -عليه السلام- رسول من عند الله .

ثالثاً: إطلاق بني إسرائيل مع موسى -عليه السلام- ليعبدوا ربهم بكامل الحرية .

ولكن فرعون لم يستجب لمطالب موسى -عليه السلام- وذهب يعذب بني إسرائيل فكثرت ظلمه وزاد فساده فما كان من موسى عليه السلام إلا أن توجه إلى ربه كما جاء في القرآن :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُنَّ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

١- الأعراف: ١٠٤-١٠٥ .

٢- يونس: ٨٨-٨٩ .

وذلك مظهر من مظاهر جبروت فرعون يتجلى في دعاء نبي الله موسى -عليه السلام- بعد دعاء قومه ليرينا كيف يرجع المكروب إلى ربه وينيب المضطر إلى خالقه^(١).

عند ذلك أمر الله -عز وجل- موسى -عليه السلام- أن يعلن لفرعون أن الله تعالى سيوقع بهم ألواناً من العذاب عقوبة لهم ما داموا على كفرهم وعنادهم وإصرارهم على التمادي في الباطل ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾^(٢).

فأعلن موسى ذلك على قومه فتوالت عليهم صنوف العذاب الرباني وصدق الله إذ يقول: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّا كِيدِي مَتِينٌ﴾^(٣).

وقوله: ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٤).

فلم يرتدع فرعون ولم يتراجع عن ظلمه بالرغم من كثرة الآيات التي شاهدها فكان ولا بد من أن ينالهم ما نال الأقوام التي سبقتهم فأوحى الله -عز وجل- إلى موسى -عليه السلام- أن يسير مع بني إسرائيل باتجاه الشرق فيلحقهم فرعون وجيشه وكبار دولته فكانت النتيجة أن غرق فرعون وأتباعه الظالمون بسبب كفرهم بالله ونجى الله موسى -عليه السلام- وبني إسرائيل بسبب إيمانهم.

١- دعوة الرسل إلى الله تعالى ص ٢٢٦ تأليف: محمد بن أحمد العدوي، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.

٢- القمر: ٤١-٤٢ .

٣- الأعراف: ١٨٢-١٨٣ .

٤- المؤمنون : ٥٤-٥٦ .

المطلب الثالث: بشاره موسى عليه السلام بنبينا محمد ﷺ

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(١).

فالآية تبين أن من الآيات البينات الدالة على صدق الرسول ﷺ وصدق ما جاء به علم بني اسرائيل بذلك، وهو علم مسجل محفوظ مكتوب في كتبهم التي يتداولونها كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأُولِينَ﴾^(٢).

والقرآن الكريم يخبرنا أن ذكر محمد ﷺ وأُمَّته موجود في الكتب السماوية السابقة، وأن الأنبياء السابقين بشروا به.

وقد فهم جمع من المفسرين من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٣). أن الله سبحانه وتعالى أخذ العهد والميثاق على كل نبي لئن بُعث محمد ﷺ في حياته ليؤمنن به ويترك شرعه لشرعه، وهذا يدل على أن ذكره موجود عند كل الأنبياء السابقين.

قال أبو الحسن الماوردي^(٤) رحمه الله:

(كان أنبياء الله معانين على تأسيس النبوة بما تقدمه من بشائرها، وتبديه من أعلامها وشعائرها، ليكون السابق مبشراً ونذيراً واللاحق مصداقاً وظهيراً فتدوم بهم طاعة الخلق، وينتظم بهم استمرار الحق، وقد تقدمت بشائر من بعض الأنبياء بنبوة محمد ﷺ مما هو حجة على

١- الشعراء: ١٩٧ .

٢- الشعراء: ١٩٦ .

٣- آل عمران: ٨١ .

٤- هو الإمام العلامة أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي الشافعي صاحب التصانيف. تفقه على أبي القاسم الصيمري بالبصرة وارتحل إلى الشيخ أبي حامد الاسفراييني ودرس بالبصرة وبغداد سنين وولي القضاء ببلدان شتى. وله مصنفات كثيرة في الفقه والتفسير وأصول الفقه والأدب، كان حافظاً للمذهب. توفي يرحمه الله ببغداد سنة خمسين وأربع مئة وقد بلغ ستاً وثمانين سنة (انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٣/ ٢٨٢-٢٨٤ ترجمة رقم ٤٢٨ وانظر سير أعلام النبلاء ١٨/ ٦٤-٦٥).

أمهم ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم بما أطلعه الله تعالى على غيبه ليكون عوناً للرسول وحثاً للقبول^(١) ومن ذلك بشائر موسى - عليه السلام - بالنبي محمد ﷺ في التوراة .

فلقد جاء بني إسرائيل الخبير اليقين بالنبي الأمي، على يدي نبيهم موسى عليه السلام منذ أمد بعيد جاءهم الخبير اليقين ببعثته وبصفاته وبمنهج رسالته وبخصائص ملته . فهو النبي الأمي وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر وهو يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث وهو يضع الأثقال والأغلال - عمن يؤمنون به من بني اسرائيل - التي علم الله أنها ستفرض عليهم بسبب معصيتهم فيمنعها عنهم النبي الأمي حين يؤمنون به .

وجاء في وصف أتباع هذا النبي أنهم يتقون ربهم ويؤمنون بآياته، ويُخرجون زكاة أموالهم، كما جاءهم الخبير اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبي الأمي، ويوقروه، وينصرونه، ويتبعون النور الهادي الذي معه ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢) .

يقول الله عز وجل :

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣) .

إذا بدلالة القرآن الكريم فإن الرسول ﷺ جاء ذكره في التوراة الصحيحة ولكن التوراة التي بين يدي اليهود اليوم محرفة مغيرة وقد أدى هذا التحريف إلى ذهاب كثير من البشارات أو طمس معالمها .

١- أعلام النبوة ص ١٢٨-١٢٩ للشيخ أبي الحسن علي بن محمد الماوردي الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ . الناشر دار الكتب العلمية بيروت - لبنان .
٢، ٣- الاعراف: ١٥٧ .

ولكن على الرغم مما طرأ عليها من التحريف فقد بقي من هذه البشارات الشيء الكثير،
ومن ذلك ما جاء في الفصل التاسع من السفر الأول:

(لما هربت هاجر^(١) من سارة تراءى لها ملكٌ وقال: يا هاجرُ أمةٌ سارة ارجعي إلى
سيدتك فاخضعي لها، فإن الله سيكثر زرعك وذريتك حتى لا يُحصون كثرة، وها أنت
تحملين وتلدن ابناً وتسمينه إسماعيل^(٢) لأن الله تعالى قد سمع خشوعك وهو يكون عين
الناس وتكون يده فوق الجميع ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع وهذا لم يكن في ولد
إسماعيل إلا رسول الله ﷺ لأنهم كانوا قبله مقهورين فصاروا به قاهرين).

ومنها في الفصل الحادي عشر من السفر الخامس عن موسى عليه السلام:

(إن الرب إلهكم قال إني أقيم لهم نبياً مثلك من بين أخوتهم أجعلُ كلامي على فمه
فأما رجلٍ لم يسمع كلماتي التي يؤديها عني ذلك الرجل باسمي فأنا أنتقم منه).

ودلالة هذه البشارة على رسولنا ﷺ بيّنة، ذلك أنه من بني إسماعيل وهم إخوة بني

١- هاجر: امرأة قبطية مصرية أهديت إلى سارة زوج إبراهيم الخليل - عليه السلام - من ملك مصر وكانت سارة قد
منعت الولد فطلبت من إبراهيم - عليه السلام - أن يدخل على أمتها هاجر لعل الله أن يرزقه منها بولد فلما وهبتها له
ودخل بها إبراهيم عليه السلام حملت منه - بإذن الله - بإسماعيل - عليه السلام - قيل إن هاجر توفيت بعد سارة بمدة
والصحيح أنها توفيت قبل سارة، (انظر تاريخ الرسل والملوك ٢٤٧/١ وانظر الكامل في التاريخ ٧٨/١).

٢- إسماعيل بن إبراهيم بن تارخ بن ناخوز بن ساروغ بن أرغون بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قيثان بن سام بن نوح
- عليه السلام - أمه هاجر رضي الله عنها ولد إسماعيل - عليه السلام - ولإبراهيم من العمر ست وثمانون ولما أمر إبراهيم
ببناء البيت خرجت معه هاجر وابنه إسماعيل من الشام إلى مكة لبناء البيت العتيق، ولما بلغ السعي رأي إبراهيم عليه
السلام في منامه أنه يؤمر بذبحه، فلما أسلما وتله للحجين فداه ربه بذبح عظيم، وهذا ابتلاء من الله لخليله إبراهيم وابنه
إسماعيل - عليهما السلام - تزوج إسماعيل من امرأة من قبيلة جرهم فكان أول من تكلم بالعربية الفصيحة وإليه ينتسب
العرب (انظر تاريخ الرسل والملوك ٢٤٧/٢ - ٢٥٣، وانظر البداية والنهاية ١١٣/١ - ١٤٤).

إسرائيل فجدهم هو إسحاق^(١)، وإسماعيل وإسحاق أخوان، ثم هم أوسط العرب نسباً. وقوله (مثلك) أي صاحب شريعة مثل موسى -عليه السلام-، ومحمد ﷺ هو الذي جعل الله كلامه في فمه حيث كان أمياً لا يقرأ في الصحف ولكن الله يوحي إليه كلامه فيحفظه ويرتله.

ومنها في الفصل العشرين من السفر الخامس: (أن الرب جاء من طور سيناء^(٢) وأشرق من ساعير^(٣) واستعلى من جبال فاران^(٤)) ومعه عن يمينه ربوات جيش القديسين فمنحهم إلى الشعوب ودعا لجميع قديسيه بالبركة). وسيناء هي الموضع الذي كلم الله فيه موسى -عليه السلام- وساعير الموضع الذي أوحى الله فيه ليعسى -عليه السلام- لأنه كان في ساعير أرض الخليل في قرية ناصرة^(٥).

وفاران هي جبال مكة، حيث أوحى الله لمحمد ﷺ، وقد جمع الله هذه الأماكن المقدسة في قوله: ﴿وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ^(٦) وَطُورِ سَيْنِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾^(٧).

وفي التوراة العبرانية في الإصحاح الثالث من سفر حقوق:

١- إسحاق بن إبراهيم بن تارخ بن ناخور بن ساروغ بن أرغون بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قيثان بن سام ولد إسحاق لإبراهيم وعمره مائة وعشرون سنة وعمر أمه سارة سبعون سنة. (انظر البداية والنهاية ١٥٠/١ وانظر الكامل في التاريخ ٧٩/١٨٦).

٢- طور سيناء: اسم موضع بالشام هو الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى بن عمران -عليه السلام- ونودي فيه وهو كثير الشجر، (انظر معجم البلدان ٣/٣٠٠، وانظر معجم البلدان ٤/٤٨، وانظر آثار البلاد وأخبار العباد ٢٠٧).
٣- ساعير في التوراة اسم لجبال فلسطين نذكره في فاران وهو من حدود الروم وساعير قرية من الناصرة بين طبرية وعكا (انظر معجم البلدان ٣/١٧١).

٤- فاران كلمة عبرانية معربة وهي من أسماء مكة ورد ذكرها في التوراة. قيل هو اسم لجبال مكة، وقيل قرية من نواحي صغد من أعمال سمرقند، وقال أبو عبد الله القضاعي: فاران والطور كورتان من كور مصر القبلية (انظر معجم البلدان ٤/٢٢٥).

٥- ناصرة: قرية في فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً وفيها كان مولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ومنها اشتق اسم النصارى. (انظر معجم البلدان ٥/٢٥١).

٦- التين والزيتون: جبلان بالشام وقيل: التين جبال ما بين حلوان إلى همدان والزيتون: جبال بالشام. وقيل التين مسجد نوح عليه السلام والزيتون: البيت المقدس، وقيل التين: شعب مكة يفرغ سيله في بلدح (انظر معجم البلدان ٦٩/٢).

٧- التين: ١-٣.

(الله جاء من تيماء^(١) والقُدُوس من جبال فاران سلاه جلاله غطى السماوات والأرض، امتلأت من تسبيحه، وكان لمعان كالنور له من يده شعاع، وهناك استنار قدرته، قدامه ذهب الوباء، وعند رجليه خرجت الحمى، وقف وقاس الأرض، نظر، فرجفت الأمم، ودكت الجبال الدهرية وخسفت آكام القدم).

هذا النص - (وكان لمعان كالنور، له من يده شعاع وهناك استنار قدرته) - يتحدث عن حادثة بعينها - والله أعلم - وهي ما وقع منه ﷺ في غزوة الخندق، عندما أعجزت صخرة الصحابة أثناء حفر الخندق، فجاء الرسول ﷺ فضربها ضربة عظيمة أسقطت ثلثها وخرج منها نور فكبر الرسول ﷺ فكبر أصحابه ثم الثانية فالثالثة، وقد أخبر الرسول أنه رأى بالنور الأول قصور الشام^(٢)، وبالنور الثاني قصور فارس^(٣) وبالنور الثالث أبواب صنعاء^(٤).

عن البراء بن عازب^(٥) - رضي الله عنه - أنه قال: حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكيننا ذلك إلى النبي ﷺ فجاء فأخذ المعول فقال: «بسم الله» فضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة» ثم ضرب الثانية فقطع

١- تيماء بليد في أطراف الشام، بين الشام ووادي القرى، على طريق حاج الشام ودمشق (انظر معجم البلدان ٦٧/٢).
٢- الشام: حدها من الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية وأما عرضها فمن جبلي طيء من نحو القبلة إلى بحر الروم وما بشأمه ذلك من البلاد، سميت الشام بسم بن نوح عليه السلام وذلك أنه أول من نزل بها فجعلت السين شيئا لتغير اللفظ الأعجمي، (انظر معجم البلدان ٣/٣١٢، وانظر آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٠٥).

٣- فارس: ولاية واسعة وأقليم فسيح أول حدودها من جهة العراق أرجان ومن جهة كرمان السريجان، ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ومن جهة السند مكران. سميت بفارس بن علم بن سام بن نوح - عليه السلام - وقد تم فتح فارس كلها في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه (انظر معجم البلدان ٤/٢٢٦-٢٢٧).

٤- صنعاء: قسبة اليمن وأحسن بلادها، سميت بصنعاء بن أزال بن يقطن بن عابر بن شالخ وهو الذي بناها. قال عمران بن أبي الحسن: ليس بأرض اليمن بلد أكبر من صنعاء. تقع على خط الاستواء وهي طيبة الهواء وكثيرة الماء تتقارب بها ساعات الشتاء والصيف ومن عجائب صنعاء «عمدان» الذي بناه التبابعة، وجبل الشب، وهو جبل على رأس ماء يجري من كل جانب وينعقد حجراً قبل أن يصل إلى الأرض، (انظر معجم البلدان ٣/٤٢٦، وانظر آثار البلاد وأخبار العباد ص ٥٠-٥٢).

٥- البراء بن عازب بن الحارث بن عدي بن مجدعة بن حارثة الأوسي الفقيه الكبير أبو عمارة الأنصاري الحارثي المدني نزيل الكوفة من أعيان الصحابة روى حديثاً كثيراً وشهد غزوات كثيرة مع النبي ﷺ قبل قرابة خمس عشرة غزوة. توفي سنة اثنتين وسبعين وقيل إحدى وسبعين عن بضع وثمانين سنة، (انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ١/٣٦٢ ترجمة رقم ٣٨٩، وانظر سير أعلام النبلاء ٣/١٩٤-١٩٥).

الثالث الآخر فقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض» ثم ضرب الثالثة وقال بسم الله، فقطع بقية الحجر فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن^(١) والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة»^(٢).

أما -بقية النص-: (قُدَّامُهُ ذهب الوباء، وعند رجليه خرجت الحمى) فهي بشارة صريحة لا تحتمل تأويلاً، فالمدينة قبل مجئ الرسول ﷺ كانت معروفة بالحمى وفي الحديث عن ابن عباس رضي -الله عنهما- أن الرسول ﷺ وأصحابه عندما قدموا مكة^(٣) للعمرة -وهي العمرة المعروفة بعمرة القضاء- قال المشركون: (إنه يقدم وقد وهنتهم حمى يثرب)^(٤).

وقد أصابت هذه الحمى صحابة الرسول ﷺ أول قدومهم المدينة، فدعا رسول الله ربه كي يذهب الحمى فقال: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مدنا وصححها لنا وانقل حماها إلى الجحفة»^(٥)^(٦).

وكذا آخر النص ففيه إخبار بالنصر العظيم الذي حازه الرسول ﷺ وأتباعه وإخبار بانتشار دعوته في شتى بقاع الأرض، وبأن الجبال الدهرية وهي الدول القوية ذات المجد القديم ستدك -كما جاء في النص- (فرجفت الأمم ودُكت الجبال الدهرية، وخسفت آكام القدم وآكام القدم وهي الدول الأقل ستخسف، وقد تحقق ذلك كله كما أخبرت التوراة.

١- قال الشرقي: إنما سميت اليمن لتيامنهم إليها. وقال الأصمعي: حدود اليمن من عُمان إلى نجران، ومن عدن إلى الشمر، والنسبة إليهم يمني ويمن مخففة وتسمى اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها (انظر معجم البلدان ٤٤٧/٥-٤٤٨/٥).

٢- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب المغازي باب غزوة الخندق ٥/٤٥-٤٦.

٣- مكة: بيت الله الحرام سميت مكة لأزدحام الناس بها ويقال إن مكة اسم المدينة وبكة اسم البيت الحرام. ومكة مدينة في واد والجبال مشرفة عليه من جميع النواحي محيطة حول الكعبة وبنائها من حجارة سود وبيض ملس. وهي حارة في الصيف إلا أن ليلها طيب، ليس بها ماء جار ومياها من السماء وليس لهم آبار يشربون منها وأطيبها بئر زمزم وليس لها شجر مثمر إلا شجر البادية (انظر معجم البلدان ١٨١/٥-١٨٧) وانظر آثار البلاد وأخبار العباد ص ١١٢-١١٣).

٤- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الحج باب كيف كان بدء الرسل ٢/١٦١ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الحج باب استحباب الرسل ٢/٩٢٣.

٥- الجحفة: قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا على المدينة وكان اسمها مهيعة وإنما سميت الجحفة لأن السيل أجتحفها وحمل أهلها في بعض الأعوام (انظر معجم البلدان ٢/١١١).

٦- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب فضائل المدينة ٤/٢٢٤-٢٢٥، وأخرجه في كتاب مناقب الأنصار باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٤/٢٦٤ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الحج باب الترغيب في سكنى المدينة ٢/١٠٠٣ رقم ١٣٧٦.

وهناك بشارات صرحت باسم الرسول ﷺ مثل ما رود في سفر إشعياء^(١) (إني جعلت أمرك محمداً، يا محمد يا قدوس الرب، اسمك موجود من الأبد) وقوله إن اسم محمد موجود من الأبد موافق لقول الرسول ﷺ «إني عبد الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته»^(٢).

وفي بعض الأحيان تكون البشارات جامعة تذكر صفات الرسول ﷺ ووحى الله إليه، وأخبار أمته، وما ينزل إليه عليهم من نصره، وامدادهم بالملائكة وشيئاً مما يعطيه الله لرسوله كالعروج به إلى السماء ونحو ذلك، ومنه ما ورد في بشائر دانيال^(٣):

قال دانيال يهدد اليهود ويصف لهم أمة محمد ﷺ:

(إن الله يظهرهم عليكم، وباعث فيهم نبياً، ومنزل عليهم كتاباً ومملكهم رقابكم يقهرونكم ويذلونكم بالحق، ويخرج رجال قيدار في جماعات الشعوب معهم الملائكة على خيل بيض متسلحين فيحيطون بكم، وتكون عاقبتكم النار، نعوذ بالله من النار، وذلك أن رجال بني قيدار هم ربيعة ومضر أبناء عدنان فهم جميعاً من ولد قيدار بن اسماعيل^(٤) والعرب كلهم من بني عدنان وبني قحطان. وهؤلاء انتشروا في الأرض واستولوا على الشام والجزيرة^(٥) ومصر والعراق^(٥)، وقد تواترت الآثار أن الملائكة كانت تنزل على الخيل البيض كما نزلت يوم بدر والأحزاب^(٦)).

وخلاصة القول أن البشارة بنبينا محمد ﷺ ثابتة في التوراة الصحيحة بنص القرآن

الكريم:

١- هو إشعياء بن امصيا بعثه الله نبياً في بني إسرائيل لما كثرت الذنوب ولم يكن معه شريعة غير شريعة التوراة وهو الذي بشر ببعيسى ومحمد -عليهما الصلاة والسلام- (انظر تاريخ الرسل والملوك ١/ ٥٣٢ وانظر الكامل في التاريخ ١٩٤/١).

٢- سبق تخريجه ص ٢٤ هامش (٨).

٣- دانيال هو أحد أنبياء بني إسرائيل وجده المسلمون ميتاً على سرير لما فتحوا تُستَر في مال بيت الهرمزان منذ ثلاث مائة سنة وعند رأسه مصحف لم يتغير من جسده شيء إلا شعرات من قفاه وكذلك الأنبياء لا تأكل الأرض أجسادهم (انظر البداية والنهاية ٣٧/٢).

٤- الجزيرة: سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وهي تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن، (انظر معجم البلدان ١٣٧/٢).

٥- العراق ناحية مشهورة وهي من الموصل إلى عبّادان طولاً ومن القادسية إلى حلوان عرضاً وسمي العراق عراقاً لأنه على شاطئ دجلة والفرات مدا حتى يتصل بالبحر على طولها. أرضها أعدل أرض الله هواء وأصلحها تربة وأعذبها ماء وهي كواسطة القلادة من الإقليم. (انظر معجم البلدان ٩٣/٤، وانظر آثار البلاد وأخبار العباد ٢٤١٩).

٦- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٣/ ٣٣٢.

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي
التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ
الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا
عَظِيمًا ﴿١﴾ .

إذا فالإيمان بالنبي ﷺ شرط في دخول بني إسرائيل الإيمان إذ لا يكتمل إيمانهم إلا
بالإيمان به ﷺ فهو الذي يبين لهم كثيراً مما يخفون عن الناس كما جاء في القرآن: ﴿ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ
جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ .

١- الفتح: ٢٩ .

٢- المائدة: ١٥ .

المبحث الثاني: خصائص الحوار في دعوة موسى -عليه السلام-

المطلب الأول: الربانية

تعدُّ الربانية من الخصائص^(١) العامة لحوار موسى -عليه السلام- والربانية -كما يقول علماء العربية- مصدر صناعي منسوب إلى (الرب) زيدت فيه الألف والنون على غير قياس، ومعناه الانتساب إلى الرب^(٢)، أي: الله سبحانه وتعالى، ويطلق على الإنسان أنه (رباني) إذا كان وثيق الصلة بالله، عالماً بدينه وكتابه، معلماً له^(٣).

وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾^(٤) بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾^(٥) وحوار موسى -عليه السلام- مع قومه حوار رباني أي أنه بوحى وتكليف من الله عز وجل، فليس نابعاً من نفسه، ولا نتيجة للعوامل الاجتماعية التي تكون في زمانه كما أنه ليس نتيجة لتفكيره العميق وتأمله على الحالة المؤسفة التي يعيشها الناس، بل هو بوحى من الله وتكليف من الباري جل وعلا:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٦).

أي أنني رسول من مرسل عظيم لا يمكن لأحد أن يتجرأ عليه، ويدّعي أنه أرسله وهو لم يرسله فإذا كان هذا شأنه وهو الذي اختارني لرسالته فحقيق علي أن لا أكذب عليه، ولا أقول عليه إلا الحق^(٧).

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٨) وقوله

١- الخصائص:

يقال: اختص فلان بالأمر وتخصص له إذا انفرد واختصه بالشيء خصه به والتخصيص ضد التعميم.
وفلان مخص بفلان: أي خاص به وله به خصية، (انظر لسان العرب ٨/ ٢٩٠ فصل الخاء حرف الصاد)

٢- انظر المفردات في غريب القرآن ص ١٨.

٣- الخصائص العامة للإسلام ص ٩ تأليف: د. يوسف القرضاوي الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ الناشر مؤسسة الرسالة بيروت-لبنان.

٤- قيل الرباني الذي يربي الناس على صغار العلم قبل كبارها، فكأنه يقتدي بالرب سبحانه في تيسير الأمور.
وقال المبرد: الربانيون أرباب العلم واحدهم رباني، من قوله ربه يربه فهو ربان: إذا دبره وأصلحه (مشكل القرآن وغريبه ١٠١/١ لابن قتيبة الطبعة الأولى ١٣٥٥ هـ الناشر مكتبة الخانجي بمصر).

٥- ونقل الإمام البيهقي في تفسيره ٦٠/٢ عن علي وابن عباس والحسن أن معنى ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ أي: كونوا فقهاء علماء.
٥- آل عمران: ٧٩.

٦- الأعراف: ١٠٤-١٠٥.

٧- انظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ١٠١/٢.

٨- طه: ٤٧.

تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ﴾^(٢) إذا فموسى -عليه السلام- مكلف بتبليغ ما أوحى إليه من ربه من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير أو تبديل.

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي^(٣):

(إن أول وأهم ما يمتاز به معشر الأنبياء أن العلم الذي ينشرونه بين الناس، والعقيدة التي يدعون إليها، والدعوة التي يقومون بها، لا تنبع من ذكائهم أو حميتهم أو تألمهم بالوضع المزري الذي يعيشون فيه، أو من شعورهم الدقيق الحساس، وقلبهم الرقيق الفياض، أو تجاربهم الواسعة الحكيمة، لا شيء من ذلك، إنما مصدره الوحي والرسالة التي يُصطفون لها ويكرمون بها... لذلك لا يخضع الرسول لعوامل نفسية داخلية أو حوادث وقتية خارجية، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع وشاء المجتمع، وقد قال الله تعالى عن رسوله الكريم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٤).

ولا يستطيع أن يحدث تغييراً أو تبديلاً أو تحويراً أو تعديلاً في رسالته وأحكام الله، وقد قال لرسوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٥) (٦).

١- الزخرف: ٤٦.

٢- إبراهيم: ٥.

٣- علي أبو الحسن الندوي ابن العلامة الشريف عبدالحى الحسيني أحد كبار مؤلفي عصره. ولد في قرية «تكية» من مديرية (رائى بريلي) من الولاية الشمالية بالهند سنة ١٣٣٢ هـ. من أسرة ذات أصل عربي عريق تلقى الشيخ دراسته الأولية في العربية من الشيخ خليل محمد اليماني وأتم دراسته الأدبية على يد الدكتور محمد تقي الدين الهلالي. والتحق بمدرسة الشيخ أحمد علي في لاهور حيث تخرج عليه في علم التفسير وقد استفاد في الحديث من الشيخ حيدر حسن خان ومن الشيخ عبدالرحمن المباركفوري. ومن مؤلفاته النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية وغيرها كثير، (انظر علماء ومفكرون عرفتهم ١/١٣٥-١٤٥).

٤- النجم: ٣-٤.

٥- يونس: ١٥.

٦- النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ص ٤٥-٤٧ تأليف أبو الحسن علي بن الحسين الندوي الطبعة السادسة. ١٤٠٤ هـ الناشر: دار القلم - دمشق.

ومعنى هذا أن موسى -عليه السلام- في حوارهِ مع قومهِ لا يتبع هوى ولا شهوة نفسية أو رغبة شخصية فلا يميل إلى قريب أو بعيد إنما همهُ الأول تبليغ رسالة الله كما أرادها سبحانه وتعالى .

المطلب الثاني: الوضوح :

الوضوح أيضاً هو أحد الخصائص العامة لحوار موسى عليه السلام، سواء فيما يتعلق بالأصول والقواعد، أم بالمصادر والمنابع، أم بالأهداف والغايات أم بالمنهج والوسائل .

فليس في حوار موسى -عليه السلام- مع قومهِ خفاء أو غموض أو التواء، فلقد جاءهم بلغتهم ليبين لهم دعوتهُ في وضوح ومن تتبع آيات القرآن الكريم نرى أن هذه خصيصه لازمة لحوار موسى عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ جَاءكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾^(١) ويقول ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾^(٢).

ومن وضوح حوار موسى -عليه السلام- أنه كان يذكر أصول دعوتهِ ابتداءً، ولا يحيد عنها أبداً، ويستمر بعد ذلك في الدليل على ما دعا إليه صابراً على كل المعارضات، موقناً بنصر الله له في النهاية .

وسأحاول بيان وضوح الحوار في دعوة موسى عليه السلام فيما يتعلق بالأصول والقواعد .

فأصول الحوار في دعوة موسى -عليه السلام- مع قومهِ واضحة بيّنة، لا للزعماء فقط بل لجمهرة المؤمنين به أياً كانوا، يستوي في ذلك الأصول الاعتقادية، والشعائر التعبدية، وأمّهات الفضائل الخلقية، والأحكام التشريعية .

١- البقرة: ٩٢ .

٢- الإسراء: ١٠١ .

١- وضوح الأصول الاعتقادية:

ويبدو هذا الوضوح في الأصول الاعتقادية لدعوة موسى -عليه السلام- في الإيمان بالله ورسالاته، والدار الآخرة.

أ- عقيدة التوحيد:

إن منهج موسى بن عمران -عليه السلام- في الدعوة كمنهج من سبقه من الرسل ومن جاء بعده إذ يجمعهم هدف واحد هو الدعوة إلى توحيد الله تعالى الذي هو أصل الأصول. ولقد كان لموسى -عليه السلام- حظة من هذا الأصل العظيم فقد دعا إلى توحيد الله تعالى كما حكى لنا القرآن الكريم:

﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾^(٢).

فدعوة موسى -عليه السلام- دعوة توحيد خالص دعوة سمحة كريمة تصف الله -عز وجل- بالكمال المطلق والصفات المثلى، وتبني العقيدة على أساس الإيمان بأن الله واحد أحد فرد صمد لا شريك له، ولا إله غيره، وأن الله -عز وجل- متفرد في كماله وأسمائه وصفاته وأقواله وأفعاله، تنزه عن الشريك والولد والصاحبة والبنات وعن كل نقص أو عيب^(٣).

ومما لا شك فيه أن أركان الإيمان في دعوة موسى عليه السلام هي الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره وباليوم الآخر.

١- طه: ٩٨.

٢- الشعراء الآيات من: ٢٣-٢٧.

٣- الديانات والعقائد في مختلف العصور ٢/ ١٩٦ تأليف أحمد بن عبدالغفور عطار الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ مكة المكرمة.

فالإيمان بالله يدخل فيه الإيمان بالرسول والملائكة والكتب المنزلة من عند الله والإيمان
بالقدر خيره وشره وبالبعث يوم الجزاء إذ كل من آمن بالله حق الإيمان وعبده حق عبادته لزمه
الإيمان برسله كلهم وبملائكته لأنه لا تكمن معرفة الإيمان إلا عن طريق الرسل .

ورسل الله جعل الله بينهم وبينه واسطة تأتيهم تلك الواسطة بالكتب من عند الله وهي
الملائكة الكرام، فالكتب التي تنزل من السماء تنزل بواسطة جبريل -عليه السلام- فمن آمن
بالله ورسله وكتبه لزمه الإيمان بالملائكة وإلا لم يكن مؤمناً قال تعالى :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (١)

فالإقرار بالملائكة عام في بني آدم لم ينكر ذلك إلا شواذ من بعض الأمم، ولهذا قالت
الأمم المكذبة .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ (٢) وفرعون وإن كان مظهراً لجحد الصانع فإنه قال :
﴿ فَلَوْلَا أَلْقَيْتَنِي عَلَىٰ أُسُورَةٍ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ (٣) .

مما يدل على أنه قد سمع بالملائكة سواء كان معترفاً بهم أو منكرها لهم فذكر الملائكة
عام في الأمم .

وليس في الأمم أمة تنكر ذلك إنكاراً عاماً وإنما يوجد إنكار ذلك في بعضهم مثل من قد
يتفلسف فينكرهم لعدم العلم لا للعلم بالعدم (٤) .

وموسى -عليه السلام- كما دعا إلى الإيمان بالملائكة دعاهم إلى الإيمان بالكتاب المنزل
لهدايتهم : ﴿ وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا
* ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (٥) .

٢- البقرة: ٢٨٥ .

٢- المؤمنون: ٢٤ .

٣- الزخرف: ٥٣ .

٤- النبوات ص ٤٦ للإمام العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية . دراسة وتحقيق :
محمد بن عبدالرحمن عوض الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ الناشر دار الكتاب العربي .

٥- الإسراء الآيتان : ٢-٣ .

أي وجعلنا التوراة هدى لبني اسرائيل حتى لا يتخذوا من دون الله ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً لأن الله أنزل على كل نبي أرسله أن يعبدوه وحده لا شريك له .

ب- الإيمان برسالات الله :

والإيمان برسالات الله كلها، وما أنزل الله من كتب، وما بعث من رسل، يهدون إلى الحق، ويدعون إلى الخير، ويأخذون بأيدي الناس إلى الله ويدلونهم على طريق مرضاته، ويضعون لهم قواعد العدل، وضوابط السلوك لتستبين لهم الغاية، ويتضح لهم السبيل، ولا يكون لأحد عذر في الضلال والانحراف :

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(١) وقد بعث الله في كل أمة رسولاً هادياً يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

والإيمان بالرسول ركن من أركان العقيدة في دعوة موسى -عليه السلام- شأنه شأن الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه، واليوم الآخر.

وعقيدة النبوة والرسالة في دعوة موسى -عليه السلام- واضحة متميزة تماماً عن عقيدة الربوبية والألوهية، فالرسول ليسوا إلا بشراً مثلنا ميزهم الله بالوحي ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢)

هذا الوضوح المشرق في دعوة موسى -عليه السلام- بالنظر إلى الأنبياء في كونهم صفوة الله من خلقه يتنزهون عن كل ما من شأنه أن يحط من قدرهم -يقابله غموض مطبق وتحريف واضح في عقيدة بني إسرائيل المحرفة .

إذ لم يسلم موسى -عليه السلام- من اليهود -وهو الموصوف بأعظم أنبيائهم- كما

١- النساء: ١٦٥ .

٢- إبراهيم: ١١ .

جاء في سفر التثنية الإصحاح ٣٤ فقرة (١٠) : (ولم يقم بعدُ نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه) .

فقد اتهموه - عليه السلام - في إيمانه وجعلوه خائناً، وهذا ما صرح به سفر التثنية في الإصحاح الثاني والثلاثين : (وكلم الرب موسى في نفس ذلك اليوم قائلاً : اصعد إلى جبل بمعاريم . . . ومت في الجبل الذي تصعد إليه وانضم إلى قومك كما مات أخوك هارون في جبل هور وضُمَّ إلى قومه، لأنكما ختمانني في وسط بني إسرائيل . . . إذ لم تقدساني في وسط بني إسرائيل) .

بل إن موسى - في نظرهم - طلب من ربه ألا يكلفه بالرسالة، ففي سفر الخروج ١٣ : ١٤ : (استمع أيها السيد، أرسل بيد من تريد فحمني غضبُ الرب على موسى) وهذا فيه خلاف لما جاء في القرآن الكريم لأن من أهداف دعوة موسى تقرير الرسالة التي كلفَ بها وأخوه - عليهما السلام - كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِمَّن آتَبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ (١) وفي قوله : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (٢) .

واتهموا هارون - عليه السلام - بأنه هو الذي صنع العجل الذهبي لبني إسرائيل ليعبدوه من دون الله حين ذهب موسى لميقات ربه (٣) كما جاء في سفر الخروج الإصحاح ٣٢ فقرة (١) :

(ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لانعلم ماذا أصابه، فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيتكم واثتوني بها .

١- طه : ٤٧ .

٢- طه : ٤٢-٤٣ .

٣- انظر الديانات والعقائد في مختلف العصور ٢ / ٢٩٨ .

فنزح كل الشعب أقرط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون -عليه السلام- فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل وصنعه عجلًا مسبوكًا فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصدتلك من أرض مصر، فلما نظر هارون بني إسرائيل بنى مذبحاً أمامه ونادى هارون وقال: غداً عيدٌ للرب فبكروا في الغدوا اصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامه وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب^(١).

فموسى وهارون -عليهما السلام- في العهد القديم خائنان، لا يقدران ربهما، وما ثم جريمة في العقيدة الدينية أكبر ولا أفظع من خيانة الرسول لربه الذي أرسله، بل إن التوراة تتهم هارون بأنه ارتد عن دينه الحق، وأحيا الوثنية، وصنع صنماً، وأحل عبادة غير الله، وهذا كفر صريح مخالف لما جاء في القرآن الكريم:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين * ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين * قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾^(٢).

١- انظر إلى هذه القصة فإن فيها زيادة على ما نسبوه لنبي الله هارون تناقضاً صريحاً للقرآن حيث أخبر أن الذي صنع العجل هو السامري وأن هارون أخبرهم بأنهم فتنوا به، وأن ربهم الرحمن.
٢- الأعراف: ١٤٨-١٥١.

ج- عقيدة الجزاء الأخروي:

إن اليوم الآخر وما فيه من فوز للمطيعين وعقاب للعصاة أمرٌ أجمعت الرسالات السماوية على تقريره وإثباته حتى يشعر الإنسان بالمسئولية الدائمة في كل شيء ويعلم أن كل ما يفعله في حياته الدنيا سوف يجده في الآخرة إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ولما كان الجزاء الأخروي من الأمور الغيبية التي لا يمكن للعقل -ابتداء- أن يتوصل إلى معرفتها والعلم اليقين بأنه سيقع، إلا بعد رسوخ الإيمان بالله تعالى وبرسله.

فقد قامت الأدلة النقلية والعقلية على وجود الله، وتفرد به بصفات الكمال وتنزهه عن صفات النقصان، وأن رحمته، وحكمته وعدله اقتضت أن يبعث إلى خلقه رسلاً مؤيدين بما يثمر اليقين في النفس بصدقهم، وأنه بعد قيام الأدلة والبيانات على صدقهم ووجوب طاعتهم ومتابعتهم، وجب حينئذ تصديقهم في كل ما جاءوا به وأنه من عند الله سبحانه وتعالى.

ومن جملة ما أخبروا به عن الله -سبحانه- الجزاء الأخروي وهذا يدل على وضوح الرسالات السماوية في الأصول الاعتقادية، الأمر الذي يجعل الإنسان يحس بفطرته أن حياته ليست جسداً فقط ينتهي بالموت بل إن له مع الجسد روحاً لا تفنى، ولكنها تنتقل إلى مكان آخر تسعد فيه أو تشقى. وتنعم بأعمالها أو تعذب.

قال تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلٰى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١)

أعلن سحرة فرعون إيمانهم الذي لا يعاب بالدنيا وعذابها، وذكروا أنهم ينتظرون الآخرة وما فيها من حساب وجزاء وفق ما أرشدهم موسى -عليه السلام- حينما بين لهم حقيقة

الإخراج من الأرض بالبعث وعودة الروح إلى الجسد من أجل الحساب والجزاء كما جاء في قوله تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾^(١).

٢- وضوح الشعائر التعبدية:

ومن مظاهر الوضوح في دعوة موسى -عليه السلام- أن أركانه العملية، وشعائره التعبدية واضحة للخاص والعام.

فالتوحيد الذي دعا إليه موسى -عليه السلام- قائم على أساس العبادة المبنية على التصور السليم وأهمها الصلاة، ومن آثارها ذكر الله في السر والعلن، وكل ذلك مبني على الإيمان بيوم الحساب^(٢)، وهذا كله مترابط الوشائج في قوله تعالى لموسى -عليه السلام-: ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾^(٣).

١- طه: ٥٥.
٢- الدعوة إلى الله تعالى دراسة مستوحاة من سورة النمل ص ٣٨ تأليف: د. عبد الرب نواب الدين آل نواب - الناشر: دار القلم - دمشق.
٣- طه: ١٤-١٥.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ (١).

فإذا كانت الرسائل السابقة قد اتفقت في إثبات وحدانية الله فقد اتفقت بالضرورة أيضاً في صدق التوجه إلى الله الواحد بالعبادة الخالصة التي تشعر الإنسان باحتياجه إلى خالقه ﴿ فَأَعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (٢).

فالعبادة تعتمد أساساً على غريزة التدين في نفس الإنسان والتي تبدو في الإحساس الخفي بوجود سلطان غيبي فوق قوى الكون والأسباب، وصاحب هذا السلطان هو خالق السماوات والأرض وما فيها، وهو مصدرُ النفع والضرر المستحق لأن يُعظَّم ويُقدَّر (٣).

فحوار موسى -عليه السلام- مع قومه جاء ليؤكد هذه الفطرة ويرسم لها طريق استقامتها حتى لا تنحرف كما انحرفت من قبل واتجهت إلى تقديس فرعون وعبادة الأوثان ومظاهر الكون كالشمس والنيل (٤).

والعبادات التي دعا إليها موسى -عليه السلام- وسائر الأنبياء نوعان:

الأول: محددٌ مقدرٌ مكيفٌ بنصٍ مقدس لا يقبل التغيير والتبديل.

والثاني: غير محدد ولا مقدر ويدخل في دائرة الأخلاق المشتملة على كل ما هو حسن وصالح.

١- طه: ٤٢ .

٢- طه: ١٤ .

٣- انظر الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها ص ١٥٦ تأليف: د. أحمد بن أحمد غلوش الناشر الشركة العالمية للكتاب .

٤- انظر مقارنات الديانات القديمة ص ١٢ ، تأليف محمد أبو زهرة الناشر: دار الفكر العربي .

يقول الغزالي - رحمه الله - عن النوع الأول :

(إنه محدد مقدر من جهة الأنبياء ولا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة) (١).
والعبادات المحددة - التي هي عادة ما يلتبس أثرها ويطلب سرها كالصوم والصلاة والزكاة والحج - اتفقت الدعوات في وضع أصولها للناس حتى يتحقق الانقياد العملي ويظهر الإخلاص لله تعالى فيها .

فحينما كلف موسى - عليه السلام - بالرسالة كان أول ما أمر به هو الصلاة حيث قال تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (٢) .
وأمر بها وأخوه هارون - عليه السلام - فقال تعالى :
﴿ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

وهذه الصلاة الواردة في دعوة موسى - عليه السلام - أعمال مكررة في مواعيد ثابتة وتحتاج إلى تدبر وتذكر وخشوع كما يدل على ذلك لفظ إقامة، الذي أسندت إليه الصلاة

١ - المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال ص ٨٩ تأليف : حجة الإسلام أبي حامد الغزالي تحقيق عبد المنعم الباني الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ . الناشر : دار الحكمة بدمشق
٢ - طه : ١٤ .
٣ - يونس : ٨٧ .

وكيفية هذه الصلاة من ناحية الإحاطة بها تكلم عنها الرازي - رحمه الله - في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(١) فقال: (إنها تحتمل رأيين: الأول: أن يُطلع الله كلَّ رسول على كيفية صلاة الأمم السابقة وتفاصيلها وهيئاتها لتبقى معلومة لديه .

الثاني: أن لا يُطلع الله الرسل على التفاصيل وإنما يعرفهم بها في إجمال)^(٢).
وسواء كانت كيفية الصلاة معلومة للرسل أم غير معلومة فإنه لا يمنع أن يكون هناك اشتراك في بعض أجزاء هذه الكيفية كالتوجه إلى قبله وإن اختلفت .
فلقد ثبت أن اليهود كانت تتوجه إلى بيت المقدس كما ثبت مشاركة النبي ﷺ لهم في هذا التوجه بعد الهجرة واستمر في هذه المشاركة سبعة عشر شهراً حتى أمر بالتحول إلى الكعبة في مكة^(٣).

والصيام أيضاً كان مفروضاً في الرسائل السابقة بدليل قوله تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٤).
فجميع الرسائل جعلت الصوم امتناعاً عن المفطرات في وقت معلوم .
والتشبيه الوارد في قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يفيد المماثلة في أصل الوجوب، أو في الوقت، أو في المقدار، وقد رجَّح الفخر الرازي (أن المماثلة في أصل الوجوب فقط لأن الكيفية تختلف على حسب استعدادات المكلفين وقدراتهم)^(٥)

١- طه: ١٤ .
٢- مفاتيح الغيب ١٩ / ١٩ .
٣- لباب النقول في أسباب النزول ١ / ٢٢-٢٣، تأليف: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي . الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ الناشر: الدار التونسية للنشر والنشر والتوزيع .
٤- البقرة: ١٨٣ .
٥- مفاتيح الغيب ٢ / ١٧١ .

والحج أيضاً كان مفروضاً منذ عهد سيدنا إبراهيم -عليه السلام- قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^(١).

وعلى هذا فأصول العبادات واضحة في دعوة موسى -عليه السلام- كما اتضحت في دعوة من سبقه ومن أتى بعده. وذكر وجود هذه الأصول منذ القديم يفيد تقبلها لأن العبادة تكليف ومشقة والشيء الشاق إذا عمَّ سهل تحمله.

يقول أبو السعود^(٢): (ففي ذكر العبادات تأكيد للحكم وترغيب فيه وتطبيب لأنفس المخاطبين^(٣)).

٣- وضوح الأصول الأخلاقية:

الجانب الأخلاقي من الأصول الواضحة في دعوة موسى -عليه السلام-، فأمهاات الفضائل التي أمر الشرع بها، وحث عليها معروفة غير منكرة، وأمهاات الرذائل التي حذر الشرع منها ونهى عنها، معلومة غير مجهولة.

فموسى -عليه السلام- بدأ في دعوته إلى الأخلاق مع بداية الدعوة حتى يصنع بالأخلاق حاجزاً بين النفس وشهوتها، والقلب وهواه. ولأن الإيمان بالله قرين الأخلاق وكلاهما يستلزم خضوعاً وخشوعاً وطاعة مطلقة لله تعالى، وتجنب للمظالم وإنصاف للنفس من كل ما يشينها ويرديها. وكلاهما يستوجب على صاحبه أن يتحلى بالآخر، ولا يكمل الآخر إلا مع الأول ولذلك لم يُبعث رسولٌ إلا إلى قوم فسدت أخلاقهم وضلت عقائدهم، وعاثوا في الأرض فساداً واستكباراً، ففي هذا الوقت تعمل الرسالة على إصلاح هذا الحال مع الدعوة إلى الإيمان.

١- الحج: ٢٧.

٢- هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي الإمام العلامة ولد سنة ثمان وتسعين وثمان مائة بقرية قريبة من قسطنطينية وقرأ على والده كثيراً ومن جملة ما قرأ عليه حاشية التجريد للشريف الجرجاني بتمامها وغيرها وتنقل في المدارس ثم قلد قضاء برسه ثم قضاء القسطنطينية، توفي رحمه الله سنة ٩٨٢هـ بالقسطنطينية، (انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٣٩٩/٨-٤٠٠).

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٩٨/٢.

قال تعالى حكاية عن موسى -عليه السلام- وهو يدعو فرعون إلى الأخلاق ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾^(١).

فقد بين له أن الهدف هو أن يتطهر من دنس الكفر والطغيان عن طريق خشية الله، وقد خاطبه بأسلوب الاستفهام ليستدعيه بالتلطف في القول ويستنزله بالمدارة من عتوه تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾^(٢).

وبالجملة فإن مهمة موسى -عليه السلام- توجيه الناس إلى القيم العالية والمبادئ الروحية السامية، والتوجه إلى الله توجهاً صحيحاً.

ولأجل ذلك دعا القرآن إلى اتباع الأنبياء والأخذ بسيرتهم والسير على منهجهم العام في الحياة والتشبه بهم ما أمكن.

كما جاء في قوله تعالى:

﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(٣).

وبالرغم من هذا الوضوح كله لم يؤمن به إلا القليل كما أخبر تعالى عن ذلك بقوله:

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾^(٤).

١- النازعات : ١٨-١٩ .

٢- طه : ٤٤ .

٣- الفاتحة : ٦-٧ .

٤- يونس : ٨٣ .

٤- وضوح الشرائع:

فمن مظاهر الوضوح في حوار موسى -عليه السلام- وضوح شرائعه وقوانينه، أعني الأساسية القطعية منها، سواء في المجال الفردي أو الأسري والاجتماعي:

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَاخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١).

فالتوراة نزلت جملة واحدة على موسى -عليه السلام- وفيها موعظة وتفصيل لكل شيء، ومن ذلك ما يجب اعتقاده لله من الألوهية والربوبية وما يُقرب من الجنة ويُبعد من النار لأنها هدى في وقتها من الضلال والكفر، كما أخبر سبحانه عنها في غير موضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ (٢).

فكل مؤمن يعلم أن الله قد شرع القصاص من القاتل المتعمد، كما شرع الحدود والعقوبات المقدرة بالنص في مواضع معروفة من التوراة على جرائم معلومة كالسرقة والزنا والقذف وغير ذلك قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ (٣).

كما أن كل مؤمن يعلم أن تحرير الأرض من الأعداء فريضة قال تعالى ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (٤).

وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إلی رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٥).

وأن من حكم بغير ما أنزل الله يوصف بالكفر والظلم والفسوق ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٦).

١- الأعراف: ١٤٥.

٢- المائدة: ٤٤.

٣- المائدة: ٤٥.

٤- المائدة: ٢١.

٥- الأعراف: ١٦٤.

٦- المائدة: ٤٥.

المطلب الثالث: التدرج في عرض الدعوة

صدع موسى -عليه السلام- بمأمره الله -عز وجل- به، فولى وجهه مع أخيه هارون، شطر قصر فرعون، ليعرضاً على صاحبه دعوة الحق، والعقيدة الصحيحة أملاً في أن يسمع فرعون دعوة التوحيد، ويسمح بخروج بني إسرائيل من مصر.

وإلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾^(١).

إنه البدء بإيضاح قاعدة رسالتهما والتدرج في عرضها ﴿إنا رسولا ربك﴾ ليشعر منذ اللحظة الأولى بأن هناك إلهاً هو ربه ورب الناس أجمعين. فليس هو إلهاً خاصاً بموسى وهارون أو ببني إسرائيل، كما كان سائداً في خرافات الوثنية أن لكل قوم إلهاً أو آلهة، أو كما كان سائداً في بعض العصور من أن فرعون مصر إله يعبد فيها لأنه من نسل الآلهة.

ثم إيضاح لموضوع رسالتهما: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾^(٢) وذلك من أجل العودة بهم إلى عقيدة التوحيد، وإلى الأرض التي كتب الله لهم أن يسكنوها^(٣) ثم يأتي الاستشهاد على صدقهما في الرسالة: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾^(٤) تدل على صدقنا في مجيئنا إليك بأمر ربك.

ثم ترغيب واستمالة^(٥): ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾^(٦) يعقبه تهديد وتحذير غير مباشر كي لا يثير كبرياءه وطغيانه ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾^(٧) وهما يرجوان أن لا يكون ممن يكذب ويتولى^(٨).

١- طه: ٤٧

٢- طه: ٤٧.

٣- انظر دعوة الرسل إلى الله تعالى ص ٢٤١.

٤- طه: ٤٧.

٥- انظر المرجع السابق ص ٢٤٢.

٦- طه: ٤٧.

٧- طه: ٤٨.

٨- انظر معالم التنزيل ٥/ ٢٧٦.

إنه التدرج في عرض الدعوة، فلقد بينا لفرعون أنهما أرسلتا لثلاثة أمور:

١- تحقيق العبودية لله .

٢- إرسال بني إسرائيل .

٣- رفع العذاب عنهم .

وَعَبَّرًا عَنْ صَدَقَهُمَا بِآيَةِ الْعَصَا وَالْيَدِ ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾^(١) فهما لم يعرضوا عليه دعوتيهما جملة واحدة بل تدرجا في عرضها ليكون ذلك ادعى للقبول كما مر في الآيات السابقة .

فموسى وهارون -عليهما السلام- دخلا أولا على فرعون وتحدثا معه بصوت واحد ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾^(٢) فلم يناقشهما فرعون في ذلك اللقاء وهو أول لقاء بين كليم الله وأخيه من جهة وطاغية زمانهما فرعون -قبحه الله- من جهة أخرى لذلك فمن الطبيعي أن ينتابهما الخوف والشعور بالرهبة وخرج الموقف . ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾^(٣) ولكن الله طمأنهما وثبت فؤادهما^(٤) كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾^(٥) .

ثم نجدهم في الخطوة الثانية وقد أخذت تزايلهما رهبة الموقف وروعة اللقاء فيلتقيان مع فرعون لقاءً مباشراً ويلقيان إليه بهذا الأمر العظيم فيقولان له بصراحة وجرأة: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٦) .

١- طه : ٤٧ .

٢- طه : ٤٨ .

٣- طه : ٤٥ .

٤- انظر تفسير القرآن العظيم ٣ / ١٥٥ .

٥- طه : ٤٦ .

٦- طه : ٤٧ .

ففي قولهما صراحة له ومواجهة: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ الذي خلقك وخلق غيرك من العالمين فهو ربك ورب الناس كافة. ثم عرضا عليه طلبهما في أن يرسل معهما بني اسرائيل. وهذا اللقاء والذي يمكن أن نعبر عنه بأنه اللقاء الثاني فيه شيء من الطمأنينة التي يصاحبها نوع من الخوف والرهبة.

ثم يأتي الموقف الثالث كما تُصوره سورة الأعراف وفيه الصراحة التامة والجرأة الكاملة إذ أن موسى -عليه السلام- الذي كان خائفاً من بطش فرعون نجده يخاطب فرعون الملك الجبار بكل قوة وصراحة قائلاً: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(١).

فالمأمل في خطابه -عليه السلام- يجده في منتهى القوة والعزة.

﴿يَا فِرْعَوْنُ﴾ هكذا يقولها موسى -عليه السلام- في وجه فرعون، وكيف وهو الذي تهيب هذا الموقف قبل أن يقدم عليه؟

إن هذا لا يكون إلا بعد ممارسة الموقف ومعاودة التجربة. فما كان لموسى أن يقول: ﴿يَا فِرْعَوْنُ﴾ ولا أن يقول بعدها ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيستخدم الضمير ﴿إِنِّي﴾ المحقق لشخصيته والمؤكد لذاتيته، إلا وهو يحمل شحنة قوية مليئة بالاعتزاز بهذا السلطان الذي يستند إليه وهو سلطان رب العالمين:

﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾^(٢) ثم يتنزل من هذا الأفق العالي أمر موسى -عليه السلام- هادراً مدوياً في وجه فرعون ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ

١- الأعراف: ١٠٤-١٠٥.

٢- الأعراف: ١٠٥.

بَنِي إِسْرَائِيلَ^(١) ﴿٢﴾ فيظهر في هذا اللقاء الثالث صراحة موسى -عليه السلام- وجرأته على فرعون بكل قوة وعزة.

فقد كان اللقاء الأول بالنسبة لموسى كمن يطرق الباب طرْقاً خفيفاً جداً إذ لم يواجه فرعون بصراحة كاملة في أنه رسول من رب العالمين، وفي اللقاء الثاني نرى موسى وهارون -عليهما السلام- يتدافعان ويقوى أحدهما الآخر فيقولان: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾^(٣).

١- الأعراف: ١٠٥ .
٢- انظر القصص القرآني منطوقه ومفهومه ص ٢٥٥ تأليف: عبدالكريم الخطيب، الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ. الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر ببيروت - لبنان .
٣- طه: ٤٧ .

المطلب الرابع: البساطة في عرض الدعوة

وهذه المزية واضحة في حوار موسى -عليه السلام- مع قومه فهو يسير مع الفطرة ويخاطب الناس على قدر عقولهم فلا يتكلف في دعوته ولا يخاطب الناس بما لا يفهمون .

فمثلاً حينما أراد -عليه السلام- أن يثبت الوجدانية لله لفت أنظارهم إلى بديع صنع الله وعجيب خلقه مما هو ملموس مشاهد في أرجاء هذا الكون: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۖ * قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ * قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النَّهْيِ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۗ ﴾^(١).

ومن خلال هذا السياق القرآني المعجز يتبين لنا أمور منها:

١- أن الحبل موصول بالله في دقائق الأمور وجلالها مما نعرف ونجهل: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا^(٢) ﴾، ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ^(٣) ﴾، ﴿ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي^(٤) ﴾، ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ^(٥) ﴾، ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ... وَسَلَكَ لَكُمْ... وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ...^(٦) ﴾ ويتبدل الأسلوب فجأة من الماضي إلى المضارع: ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ...^(٧) ﴾، ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ...^(٨) ﴾ فانظر كيف فوض علم عالمي الغيب والشهادة إلى العليم الخبير في كلمات وجيزة عظيمة مبينة، وهذا أساس المنهج الفكري في الدعوة.

٢- تصحيح التصورات الخاطئة في الألوهية والربوبية، إذ عبدَ المصريين القدماء فرعون

١- طه : ٤٨-٥٥ .

٢- طه : ٤٨ .

٣- طه : ٥٠ .

٤، ٥- طه : ٥٢ .

٦، ٧- طه : ٥٣ .

٨- طه : ٥٥ .

ومظاهر الكون كالشمس والنيل ... فالله تعالى : ﴿أوحى... وأعطى... وهدى...
وعلم... ولا يضل... ولا ينسى﴾، فهو صاحب التصرف المطلق في الأرض
والسمااء.

٣- مع الاستدلال بمظاهر الطبيعة ومشاهد الكون على وحدانية الله وبطلان ما يعبد
سواه ثمة استدلال آخر على إمكانية البعث، فكما أن الله يخرج بالماء نباتاً حياً
يانعاً من الأرض الميتة الخاوية تأكلونه وترعى فيه أنعامكم،.. كذلك خلقكم من
الأرض نفسها وأخرجكم منها وفيها يعيدكم ومنها يخرجكم تارة أخرى^(١).

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن موسى -عليه السلام- كان يراعي الظروف
والأحوال عند مخاطبة المدعوين ويتحين الفرص المتاحة لبث الدعوة. ويظهر هذا واضحاً
جلياً في اختياره ليوم الزينة موعداً يلتقي فيه مع سحرة فرعون: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ
وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾^(٢).

ليكون علو كلمة الله وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد
وفي الجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكلُّ حد المبطلين وأشياعهم ويكثر
المحدث بذلك الأمر في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر^(٣).

١- الدعوة إلى الله (دراسة مستوحاة من سورة النمل) ص ١٨٥.

٢- طه: ٥٩.

٣- البحر المحيط ٦/ ٢٣٧ لأبي عبدالله محمد بن يوسف بن حيان، تحقيق عادل عبدالموجود وعلي معوض، الطبعة
الأولى ١٤١٣هـ الناشر: دار الكتب العلمية بيروت.

المطلب الخامس: اعتماده على العلم والمعرفة

لما بلغ موسى عليه السلام نهاية القوة، وتمام العقل، وتم استحكامه آتاه الله عز وجل حكمة وعلماً بمصالح الدارين وذلك جزاء له على إحسانه يقول الله عز وجل:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(١) فموسى عليه السلام آتاه الله علماً وعملاً بهذا العلم، ومن كان عالماً عاملاً بعلمه كان أبعد الناس عن الشرور والمفاسد، وأكثر التزاماً بما شرع الله تعالى، وأشد تائباً على الشيطان ونزغاته، وأهدى سبيلاً ممن حرموا العلم النافع، ومن أوتوا علماً ولكنهم لم يعملوا به فهو عليه السلام لم يقترب الإثم، إذ لو اقتربه مع اتصافه بالعلم والحكمة فماذا يبقى للجاهل أو للعالم غير العامل بعلمه؟

وقد ترد شبهة هنا وهي أن موسى -عليه السلام- قد اقترب إثمًا مع أنه العالم العامل بعلمه وذلك بقتله ذلك القبطي لمجرد أن رجلاً من شيعته استنصر به عليه وذلك بنص القرآن الكريم:

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالِ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٢).

قبل الإجابة عن الشبهة علينا أن نبين أن الدافع إلى الوكز هو ظلم ذلك القبطي الذي كان يريد تسخير الإسرائيلي في حمل الحطب إلى مطبخ فرعون، كما أن صنيع فرعون وقومه مع بني إسرائيل كان يتمثل فيه الظلم الصارخ لهم، فقد كان فرعون يستضعف بني إسرائيل، فيذبح أبناءهم، ويبقى على بناتهم - كما حكى القرآن الكريم: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ

١- القصص: ١٤.

٢- القصص: ١٥-١٦.

وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ
الْمُفْسِدِينَ ﴿١﴾ .

الجواب عن الشبهة :

إن هذا القبطي كان ظالماً معتدياً على الاسرائيلي، فتدخل موسى عليه السلام قاصداً
دفع الظلم عن المظلوم لا أكثر من هذا، ورأى أن الوكر وسيلة مناسبة لدفعه، فإن من يعتدي
ولا تنفع معه النصيحة ولا تردعه الملامة، ولا يكفه اللين لا يجدي معه— بعد هذا— ما هو أقل
من الوكر.

وما ترتب عليه من القتل غير مقصود، إنما المقصود دفع ظلم القبطي بوسيلة رآها موسى
—عليه السلام— مناسبةً ولا تؤدي في أصلها إلى القتل .

ثم إن هذا الفعل وقع منه —عليه السلام— قبل النبوة يدل على هذا :

أولاً: سياق الآيات فإنه يفيد أن هذه فعلة كانت قبل فرار موسى —عليه السلام— من
مصر، وهجرته إلى مدين، تلك الهجرة التي تم فيها التعرف على شيخها في أعقاب سقايته
بنتيه، ثم اتفقا على أن يعمل موسى —عليه السلام— أجييراً عند شيخ مدين ثماني حجج
أو عشرًا صداقاً لإحدى ابنتيه، وأتم موسى —عليه السلام— الأجل ورحل بزوجه، فإذا بالنداء
من شاطئ وادي الطور الأيمن في البقعة المباركة من قبل الله —عز وجل— يحمله الرسالة،
ويكلفه بدعوة فرعون وملكه إليه، فيذكر موسى —عليه السلام— أنه قتل منهم نفساً ويخشى
أن يقتلوه به، فيطمئنه الله بأنهم لن يقتلوه .

﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي
قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا
يَصِدْقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ مَلِكًا فَأَلَّا
يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ (٢) .

١- القصص : ٤ .

٢- القصص : ٣٢-٣٥ .

ثانياً: قوله تعالى حكاية عنه: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١).

وإذا كان ما وقع من موسى -عليه السلام- من الوكز -الذي لا يقتل غالباً والذي كان لدفع الظلم والعدوان، فترتب عليه القتل الخطأ- قد وقع قبل النبوة فلا يطعن به على موسى عليه السلام.

ثم إن موسى -عليه السلام- يعلم ما عليه فرعون وقومه من اضطهاد الإسرائيليين واستضعافهم، فهل يشرع -عليه السلام- في قتل مصري عمداً وهو يدرك ما يترتب على هذا الصنيع؟ إنه بالقطع ليس أقل من القتل ثم إذا كان يتعمد قتله فهل يكتفي بوكزه؟
وأما وصفه نفسه بالضلال في فعلته هذه في قوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٢).

فإن معنى ﴿وأنت من الكافرين﴾ أي لنعمتي وحق تربيتي، فإن موسى -عليه السلام- كان قد تربى في بيت فرعون إلى أن كبر وبلغ كما قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِيْنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِيْنَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (٣).

ومعنى: ﴿فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٤) أي الذاهلين عن أن الوكزة تأتي على النفس، أو أن المدافعة تقضي إلى القتل، وقد يوصف الذاهل عن الشيء بأنه ضال عنه.
أو من المخطئين: أي لم أتعمد القتل. ومع أن الوكز ليس ذنباً إلا أن موسى -عليه السلام- استعظمه نظراً لعلو شأنه فاستغفر منه، واعتذر ربه في مقام الشفاعة يوم القيامة (٥).

١- الشعراء: ٢١.

٢- الشعراء: ١٩-٢٠.

٣- الشعراء: ١٨.

٤- الشعراء: ٢٠.

٥- انظر عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم ص ٣٣٨-٣٤٠، تأليف: د. محمد أبو النور الحديدي الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ الناشر مطبعة الأمانة.

قال القرطبي^(١) -رحمه الله- : (لم يزل ﷺ يعد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غفر له حتى إنه في يوم القيامة يقول : «إني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها»^(٢) .

وإنما عده على نفسه ذنباً وقال : ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي فَأَغْفِرْ لِي﴾^(٣) من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يؤمر، وأيضاً : فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم^(٤) .

إذن فموسى -عليه السلام- عصمه الله من الضلال والخطأ فيما يتعلق بأمور الوحي وخصه كسائر الأنبياء بالعلم والمعرفة .

أيضاً لو تأملنا في حوارهِ -عليه السلام- مع فرعون وقومه لتبين لنا عنايته في اختيار الألفاظ ودقته في الإجابة عن التساؤلات مما يدل على علمه ومعرفته بأصول الحوار والدعوة .

ومن ذلك حوارهِ مع فرعون في قضية الألوهية :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عَلَّمَهَا عِنْسِدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾^(٦) .

كما أن موسى -عليه السلام- إذا سُئِلَ فلم يعلم الإجابة كان يُرجع الأمر إلى الله كما

١- هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي أبو عبد الله القرطبي كان إماماً معلماً من الفواصين في معاني الحديث حسن التصنيف جيد النقل ومن كبار المفسرين رحل إلى الشرق واستقر بمدينة بني خصيب من صعيد مصر وبها توفي برحمه الله سنة ٧٦١هـ. من كتبه: الجامع لأحكام القرآن، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وغيرها من الكتب النافعة (انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٥/ ٣٣٥) .

٢- أخرجه الترمذي في كتاب القيامة باب ما جاء في الشفاعة ٤/ ٤٣-٤٥ رقم (٢٥٥١) وقال هذا حديث حسن صحيح.

٣- القصص: ١٦ .

٤- الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٢٦١ .

٥- الشعراء: ٢٣-٢٨ .

٦- طه: ٤٩-٥٣ .

ورد في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴾ * قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿١﴾، وهذا هو حال سائر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فهذا مثلاً خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ حينما سئل عن الساعة قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وذلك كما جاء في الحديث الطويل عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: « بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت إذا استطعت إليه سبيلاً قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: أخبرني عن الساعة. قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها قال: أن تلد الأمة رببتها^(٢) وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان^(٣)، قال ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال لي: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم^(٤)».

١- طه: ٥١-٥٢.

٢- (أن تلد الأمة رببتها) أراد به المولى أو السيد يتزوج أمته فتنجب له ولداً فيكون لها كالمولى لأنه في الحسب كأبيه، أراد أن السبي يكثر والنعمة تظهر فتكثر السراري، (انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ١٧٩ وانظر غريب الحديث ١/ ٣٧١ لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي علق عليه: د. عبد المعطي أمين قلعجي الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت).

٣- معنى قوله (رعاء الشاء يتطاولون في البنيان): أي يسيطر الرعاة على المدن ويقيمون فيها البنايات الشاهقة. والرعاء بالكسر جمع راعي الغنم وقد يُجمع على رعاة الغنم. (انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٢٣٥). وقد ظهر جبريل عليه السلام في هذا الحديث بصورة دحية الكلبي فجلس أمام النبي ﷺ وسأله الأسئلة المذكورة. قال ابن الصلاح: (في هذا الحديث بيان لأصل الإيمان وهو التصديق الباطن وأصل الإسلام: وهو الاستسلام والانقياد الظاهر ثم اسم الإيمان يتناول ما فسر به الإسلام وسائر الطاعات لكونها ثمرات للتصديق الباطن) (انظر عمدة القارئ ٩٩/ ٢٧٩-٢٩١).

٤- سبق تخريجه ص ٨٩.

يقول الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ (١).

كما أن طالب العلم عليه أن لا يكتفي أبداً بما حصل عليه من علوم بل لابد أن يسعى دائماً لطلب المزيد وهذا ما حدث مع موسى -عليه السلام- فبالرغم مما أعطاه الله من العلم والحكمة جدّ في السعي في طلب المزيد حينما طلب من الخضر أن يعلمه مما علمه الله كما جاء في القرآن الكريم على لسان موسى -عليه السلام-: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَيَّ أَنْ تَعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ (٢).

يقول ابن كثير -رحمه الله-: (أي مما علمك الله شيئاً استرشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح) (٣).

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: حدثني أبي بن كعب (٤) -رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم. فعتب الله عليه، إذ لم يردّ العلم إلى الله فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك...» (٥).

فهل يفهم من هذا الحديث أن قول موسى - أنا أعلم - قد جاء على خلاف الواقع أم أن موسى -عليه السلام- أعلم في أمور والخضر أعلم منه في أمور أخرى؟
ويجاب عن هذا بواحدة من أجوبة ثلاثة:

الأول: أنه قد وقع في هذا الحديث من بعض طرقه عن ابن عباس -رضي الله عنهما- جوابه بقوله «أنا أعلم بحسب علمه» فكأنه قال: لا أعلم مني، وهو صدق لا خلاف فيه.

١- النازعات: ٤٢-٤٤.

٢- الكهف: ٦٦.

٣- تفسير القرآن العظيم ١/٩٧.

٤- أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار يكنى بأبي المنذر شهد العقبة مع السبعين وبدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان يكتب الوحي، وهو أحد الذين حفظوا القرآن كله على عهد النبي ﷺ وأحد الذين كانوا يفتنون في عهده ﷺ. توفي -يرحمه الله- سنة ثلاثين للهجرة (انظر صفة الصفوة ١/٢٤٦، وانظر سير أعلام النبلاء ١/٣٨٩).

٥- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العلم باب ما يُستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم ١/٣٨-٤٠ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب من فضائل الخضر ٤/١٨٤٧-١٨٥٠ رقم ٢٣٨٠.

الثاني: أن قول موسى -عليه السلام- على رواية: أي الناس أعلم محمول على ظنه الغالب فقوله: أعلم، مقيد بهذا تقديراً، والمقدر في حكم المذكور كأنه قال: أنا أعلم في ظني، أو اعتقادي، ونحوه لا في نفس الأمر، لأن حال موسى -عليه السلام- في النبوة واختيار الله تعالى له دون غيره من الناس في ذلك الوقت يقتضي أنه أعلم أهل عصره، إذ لو لم يكن ذلك لم يختره الله لتبليغ رسالته، وسياسة الناس، ورجوعهم إليه في أمورهم، فيكون إخباره بذلك عن اعتقاده وحسابه صدقاً لا خلاف فيه.

الثالث: أن يكون قصد موسى -عليه السلام- من قوله «أنا أعلم» يعني بما تقتضيه النبوة من علوم التوحيد المتعلقة بالله تعالى وصفاته، وأحكام الشريعة، ونظم سياسة الأمة، والحكم بين الناس، وهو لا ينافي أن يكون غيره أعلم منه في غيرها كما ورد في قول الرسول ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»^(١) وكما جاء في قضية الهدهد من قوله لسليمان -عليه السلام- فيما حكاه القرآن ﴿أَحْطَتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾^(٢) وغير ذلك، ولا محذور في أن يكون بعض أفراد الأمة أعرف من صاحب الرسالة بأمور غير الوحي والدين كبعض الأمور الدنيوية وشئون المعيشة.

والخضِرُ أعلم من موسى بأمورٍ أطلعه الله عليها لا يعلمها أحدٌ إلا بإعلام الله له إياها كقضية السفينة، والغلام، الجدار، وهي غير الأمور الشرعية.

والحكم بين الناس بما أنزل الله من الأمور التي هي من اختصاص الرسل، فموسى -عليه السلام- أعلم بها.

فكان موسى عليه السلام أعلم -على العموم- بالتوحيد والشريعة والسياسة والخضِر أعلم -على الخصوص- بعلم لدُنِّي أطلعه الله تعالى عليه ويدل عليه قوله تعالى ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾^(٣) أي من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى ومن أراد ممن ارتضاه للعلم به.

١- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره من معاش الدنيا على سبيل الرأي ٤/ ١٨٣٥ رقم (٢٣٦١-٢٣٦٢).

٢- النمل: ٢٢.

٣- الكهف: ٦٥.

لكن قد يرد سؤال آخر هنا هو : لماذا عاتبه الله ودّله على عبد أعلم منه؟

والجواب :

أن إنكار الله على موسى -عليه السلام- لأنه لم يردّ العلم إلى الله تعالى ويقول الله أعلم أو أعلم الناس، والتأدب مع الله يقتضي أن يرد إليه العلم كما قالت الملائكة لما قال لهم الله انبعثوني بأسماء هؤلاء، قالوا ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾^(١) فموسى -عليه السلام- مع أنه صادق في مقاله هذا ترك الأولى فعتب الله عليه لهذا.

وحتى لا يقتدي بموسى -عليه السلام- من أمته في هذا القول ممن لم يصل إلى مرتبته وعلو درجته فيهلك . ولأن التحفظ أولى لمن يقتدى به عاتبه الله عز وجل على قوله .

وخلاصة القول أن موسى -عليه السلام- كان حواراه مع فرعون وقومه قائماً على أساس من العلم والمعرفة حتى يستطيع أن يجادل أعداءه فيلجمهم ويرد على شبههم فيخرس ألسنتهم .

١- البقرة: ٣٢ .

المطلب السادس: إقامة الحجة على الخصم وإفحامه:

من أهم الموضوعات التي ظهرت فيها خاصية إقامة الحجة على الخصم، وإفحامه في حوار موسى - عليه السلام - موضوع إثبات وجود الله ووحدانيته.

ووجود الله تبارك وتعالى حقيقة لا تقبل الجدل، لأنها ضرورة تسري في الأحاسيس والمشاعر وتتغلغل في أعماق النفس الإنسانية^(١). ولو تتبعنا حوار موسى - عليه السلام - مع فرعون وقومه لتبين لنا أن كلیم الله موسى قد أقام العديد من الحجج العقلية المعنوية ثم الحسية على فرعون اللثيم وذلك حينما أظهر - قبحه الله - جحد الصانع تبارك وتعالى وزعم أنه الإله:

﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾^(٢)، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾^(٣).

وهو في هذه المقالة معاند يعلم أنه عبد مربوب، فادعأؤه للربوبية ليس أمراً سهلاً تهضمه العقول وتستسيغه الأذواق، لاسيما أنه يعرف أن هناك من أفراد مملكته من هو أكبر منه سناً ويعرف ولادته ونشأته^(٤)، ولكنه - قبحه الله - أراد التضليل بهذا الادعاء لصد الناس عن الإيمان بموسى - عليه السلام - عندما جاءه برسالة الله.

ولهذا نجده غير مستقر في دعواه، إذ يقول مثلاً: ﴿ مَا عَلِمْتُ ﴾^(٥) ولم يقل بطريق الجزم ليس لكم من إله غيري.

ويقول: ﴿ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾^(٦) ولم يجزم بكذبه لأنه لا يقدر على أن يدعي

- ١- مناهج الجدل في القرآن الكريم ص ١٣٣ .
- ٢- النازعات : ٢٣-٢٤ .
- ٣- القصص : ٣٨ .
- ٤- انظر دعوة الرسل إلى الله تعالى ص ٢٧٣ .
- ٥- القصص : ٣٨ .
- ٦- القصص : ٣٨ .

خلق السماوات والأرض وتسيير هذه القوى الكونية التي ذكر موسى -عليه السلام- أنها من خلق الله وذلك حينما سأله فرعون عن رب العالمين فقال له :

﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾^(١) فهذه السماوات والأرض المشاهدة وما بينهما من المخلوقات المتجددة من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بنفسها وإنما هي من صنع الله .

فلما أحس فرعون بقوة هذه الحجة وأن ما ذكر خارج عن نطاق قدرته أخذ يخاطب من حوله على سبيل التهكم والسخرية من موسى بقوله : ﴿ أَلَا تَسْتَمْعُونَ ﴾^(٢) فقال لهم موسى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾^(٣) أي هو الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السالفة في الآباء فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ولا أبوه ولا أمه ولم يحدث من غير مُحدث وإنما أوجده وخلقه ربُّ العالمين^(٤) وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى :

﴿ سُنِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾^(٥) .

ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته ولا نزع عن ضلالتة بل استمر على طغيانه وعناده وقال ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^(٦) .

أي هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة المسير للأفلاك الدائرة خالق الظلام والضياء ورب الأرض والسما رب الأولين والآخرين .

١- الشعراء : ٢٤ .

٢- الشعراء : ٢٥ .

٣- الشعراء : ٢٦ .

٤- انظر تفسير القرآن العظيم ٣ / ٣٣٤ .

٥- فصلت : ٥٣ .

٦- الشعراء : ٢٧-٢٨ .

ولسان حال موسى عليه السلام يقول إذا كانت كل هذه الأمور من صنع الله فهل تستطيع يا فرعون أن تأتي بشيء من هذا؟

فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه ولم يبق له سوى العناد عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته ﴿ قَالَ لئن اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ (١).

وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما وهما العصا واليد وذلك مقام ظهر فيه برهان من رب العالمين بهر العقول والأبصار حينما ألقى موسى - عليه السلام - عصاه فإذا هي ثعبان مبین، وأدخل يده في جيبه ثم استخرجها بيضاء كفلقة القمر تتلألأ نوراً بهر الأبصار فإذا أعادها إلى جيبه رجعت إلى صفتها الأولى، ومع هذا كله لم ينتفع فرعون بشيء من ذلك بل استمر على ما هو عليه وأظهر أن هذا كله من قبيل السحر: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لَتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سِوَى (٢) ﴾ (٣).

إذن فرعون في المقام الأول طلب آية من موسى - عليه السلام - تدل على صدقه - إن كان صادقاً - وهذا التزام منه بالتصديق عندما يأتي بآية فلما أتى بها موسى - عليه السلام - صرفها فرعون لمعنى آخر وادعى أنها سحر اعتماداً منه على سحرته وما لديهم من فنون السحر المختلفة ليضلل الناس بذلك.

وفي المقام الثاني ادعى بأنه سيأتي هو وقومه بسحر يغلب ما جاء به موسى وهذا تحدٍ ثانٍ لموسى - عليه السلام - حتى أن فرعون طلب من موسى تحديد الزمان والمكان لتلك المعركة الجدلية (٤) التي انتهت بانتصار الحق على الباطل وانكسار عنفوان الكبرياء ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغْلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ (٥).

١- الشعراء: ٢٩.

٢- طه: ٥٧-٥٨.

٣- البداية والنهاية ١/ ٢٣٤-٢٣٥.

٤- انظر مناهج الجدل في القرآن الكريم ص ٢٨٩.

٥- الأعراف: ١١٨-١١٩.

فهزم فرعون في المقام الأول والثاني وظهر أمر الله وهم كارهون .

هذا وقد استمر الحوار والجدال بين موسى -عليه السلام- وفرعون وقومه واستحکم العناد في نفوسهم حتى قالوا لموسى : ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

فرعون كلما شعر بانتصار الحق عليه في إثبات وجود الله ووحدانيته وأنه ما ثم رب سواه، تقمّص أسلوب المراوغة في الجدل والتقلب في الكلام لصرف الناس عن الحق واستعبادهم، بل قد يلجأ إلى تقمص أثواب الألوهية ليرهب من حوله ويستميلهم إذا شعر بفجوة بينه وبينهم يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ (٢) .

فقد جعل فرعون ميزان الحق والصدق أمراً مادياً يرجع إلى قوة السلطان وطغيان المادة ولكنه في قرارة نفسه يشعر بخيبة الأمل وما عليه موسى -عليه السلام- من الحق والصدق وما هو مؤيد به من المعجزات التي تضمن انتصاره على الباطل مهما طال الزمن .

والقرآن الكريم صريح في ذلك حين يتحدث عن فرعون وملئه فقد أوضح أنهم قد عرفوا الحق ولكنهم تكبروا ظلماً وعلواً وانتهجوا دروب الفساد في الأرض : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٣) .

١- الأعراف: ١٣٢ .

٢- الزخرف: ٥١-٥٣ .

٣- النمل: ١٣-١٤ .

المسالك التي اتبعها موسى -عليه السلام- في إقامة الحجّة والرد على خصمه:

١- الاستدلال بوجود الأثر على وجود المؤثر:

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ (١).

وقوله: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ (٢).

فموسى -عليه السلام- استدل على وجود الله وإثبات وحدانيته بآثاره في الأرض والسماء فهو الذي بسط الأرض للقرار والبناء والغراس، وسلك فيها الطرق الموصلة من أرض إلى أرض وهو الذي أنزل المطر فأخرج به أصناف النباتات رزقاً لنا ولأنعامنا فهو الرب المعبود المالك المحمود الذي لا يستحق العبادة أحدٌ سواه.

فهذه الأمور التي ذكرها موسى -عليه السلام- لفرعون وقومه كلها محتاجة إلى مُحدثٍ لا يكون حادثاً.

إذ كل حادث لابد له من مُحدثٍ ينتهي إليه وإلا لزم الدور والتسلسل في المؤثرين إلى ما لا نهاية وهذا يمتنع قطعاً (٣).

٢- الاستدلال بالمعجزة الإلهية على صدق الدعوى:

فقد تكون الدعوى صحيحة ظاهرة تلمسها الحواس وتستيقنها النفوس، ومع ذلك تجد عند بعض الخصوم لُدداً في الخصومة، ومكابرة للحق وللواقع فينهج سبيل المعارضة كل ما خالف معتقده وهواه دون تدبر للحقائق أو نظرة عادلة لما يحُفُّ به من أمور، ومن هذا المسلك معارضة فرعون لموسى عليه السلام في البرهانين الذين أيده الله بهما وهما (العصا واليد)

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْتَنَا لَتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا

١- طه: ٥٣-٥٤.

٢- الشعراء: ٢٤.

٣- انظر مناهج الجدل في القرآن الكريم ص ٨٦.

أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿١﴾ .

قال ابن كثير - رحمه الله - (يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها وقوله لموسى إن هذا الذي جئت به سحر ونحن نعارضك بمثله ثم طلب من موسى - عليه السلام - أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم وكان هذا من أكبر مقاصد موسى - عليه السلام - أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرًا بحضرة الناس ولهذا قال : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ﴾ (٢) وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم ﴿ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ (٣) أي من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس فيكون الحق أظهر وأجلى ولم يطلب أن يكون ذلك ليلا في ظلام كيما يروج عليهم محالاً وباطلاً (٤) .

﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا السَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ (٥) .

فجمع فرعون من كان ببلاده من السحرة وحضر أمراؤه وأهل دولته عن بكرة أبيهم وتقدم موسى إلى السحرة فوعظهم وزجرهم عن تعاطي السحر ولكنهم تناجوا فيما بينهم أن موسى وأخاه يريدان أن يسحرا الناس ليجتمعوا حولهما ليستأصلا الملك وحاشيته (٦) . . ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ (٧) اصطف السحرة ووقف موسى وهارون - عليهما السلام - تجاههم وقالوا له إما أن تلقني وإما أن تلقني قبلك قال بل ألقوا فسحروا أعين الناس واسترهبوهم بحبال وعصي يخيل للرائي أنها تسعى (٨) فخاف موسى - عليه السلام - أن يفتن الناس بهذا السحر قبل أن يلقي ما في يده فجاءه الوحي من

١- طه : ٥٦-٥٩ .

٢، ٣- طه : ٥٩ .

٤- البداية والنهاية ١ / ٢٣٨ .

٥- طه من : ٦٠-٦٤ .

٦- انظر تفسير القرآن العظيم ٣ / ١٥٨ وانظر فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ٣ / ٣٧٤ .

٧- طه : ٦٤ .

٨- انظر دعوة الرسل إلى الله تعالى ص ١٨٥ .

الله أن يلقي عصاه فإذا هي تتحول إلى ثعبان عظيم تلقف ما صنعوا من الحبال والعصي واحداً واحداً في أسرع ما يكون من الحركة والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها .

وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم وتحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذي انبعث به هذا المؤيد، وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى، وأزاح عنها القسوة وأتابوا إلى ربهم وخرؤا له ساجدين^(١) :

﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجُودًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾^(٢) .

وهكذا عجز فرعون عن معارضة موسى -عليه السلام- فثبت الإعجاز وظهرت قدرة المعجز واتضح صدق صاحب الإعجاز فبطلت دعواهم بأن موسى -عليه السلام- ساحر لأن التحدي قد جعل دليلاً على أنهما من عند الله تعالى والدليل متى عورض بمثله بطل عمله فيسقط الاحتجاج به .

٣- مجارة الخصم لتبين عثرته :

وهذا المسلك مأخوذ من مجارة موسى -عليه السلام- لفرعون في الإجابة على أسئلته المتعددة^(٣) إلى أن أصلاه نار الحجج والبراهين، مما جعله يلجأ في فض تلك المجادلات إلى استخدام جاهه وسلطانه في تهديد موسى -عليه السلام- بالسجن والقتل ﴿ قَالَ لَنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾^(٤) .

١- انظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعبون الاقاويل في وجوه التأويل ٥٤٥/٢ وانظر فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ٣/٣٧٥ .

٢- طه : ٧٠-٧٣ .

٣- انظر المبحث الأول من هذا الفصل ص ١١٢ - ١١٤ .

٤- الشعراء : ٢٩ .

وما جاء على لسان مؤمن^(١) آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾^(٢). فرعون لما عجز عن مقاومة موسى—عليه السلام— في تلك المعارك الجدلية أصبح لا مناص لديه من معارك دموية فقد توعد موسى ومن اتبعه كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْدَرُونَ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾^(٣).

وهذه عادة الطغاة في كل زمان ومكان إذا قامت الحججة عليهم وعجزوا عن مقاومة الحق لجأوا إلى استخدام القوة. ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

٤- بيان بطلان دعوى الخصم وأن البرهان الصحيح قام على نقيضها:

لما ذهب موسى—عليه السلام— لميقات ربه يناجيه عمد رجل من بني اسرائيل يقال له هارون السامري إلى أخذ ما استعاره من حلي فصاغ منه عجلاً وألقى فيه قبضة من التراب كان قد أخذها من أثر فرس جبريل—عليه السلام— حين رآه يوم أغرق الله قوم فرعون فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي، فقال هذا إلهكم وإله موسى فنسي فعبدوه من دون الله^(٤) فلما رجع موسى—عليه السلام— ورأى ما هم عليه من عبادة العجل أقبل عليهم موبخاً لهم ومعاتباً إياهم على صنيعهم: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أُوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾^(٥).

١- مؤمن آل فرعون: اختلف المؤرخون والمفسرون في تحديد شخصية مؤمن آل فرعون على أقوال: القول الأول: أنه ابن عم فرعون وكان يكتنم إيمانه خوفاً من فرعون على نفسه. القول الثاني: زعم البعض أنه إسرائيلي وهو بعيد مخالف لسلامة الكلام لفظاً ومعنى. قال ابن جريج: (قال ابن عباس لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا والذي جاء من أقصى المدينة وامرأة فرعون) (انظر قصص الأنبياء ص ٤٢٠). واختلفوا في تعيين اسمه: فمنهم من ذهب إلى أن اسمه «شمعان». قال الدارقطني لا يعرف من اسمه شمعان إلا مؤمن آل فرعون حكاة السهيلي وذكره الطبراني في تاريخه أن اسمه (خير). وقال الطبري اسمه حبرك (انظر تاريخ الرسل والملوك ١/٢١٠). ومال كثير منهم إلى أن اسمه «حزقيل» (انظر الكامل في التاريخ ١/١٤١).

٢- غافر: ٢٨.

٣- الأعراف: ١٢٧.

٤- انظر تفسير القرآن العظيم ٣/١٦٤-١٦٥.

٥- طه: ٨٧.

ثم أقبل على أخيه هارون -عليهما السلام- قائلاً له:

﴿قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنَّهُمْ﴾^(١) أي هلا اتبعتني لما رأيت ما صنعوا فأعلمتني^(٢) بما فعلوا فقال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾^(٣). ثم أقبل موسى -عليه السلام- على السامري: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾^(٤). فقال له موسى: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخَلِّفَهُ﴾^(٥).

وهذا دعاء عليه بأن لا يمسه أحدٌ معاقبةً له على مسه في الدنيا ثم توعدده في الآخرة بأن له موعداً لن يخلفه^(٦).

ثم قال له: ﴿وَأَنْظِرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾^(٧) فعمد موسى -عليه السلام- إلى هذا العجل فحرّقه بالنار ثم ذراه في البحر ولسان حال موسى -عليه السلام- يقول لهم إن المحاجة لا تقوم إلا على الحجة والبرهان ولم تثبتوا على مدعاكم بأن هذا إله!! إذ لو كان إلهاً كما تزعمون فلماذا لم يدفع الضر عن نفسه حينما حرّق وألقي في اليم^(٨)? ومن لم يكن قادراً عن دفع الضر عن نفسه فكيف يدفعه عن غيره؟! .

١- طه: ٩٢-٩٣.

٢- انظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٢/ ٥٥٠.

٣- طه: ٩٤.

٤- طه: ٩٦.

٥- طه: ٩٧.

٦- انظر دعوة الرسل إلى الله تعالى ص ٢٥١.

٧- طه: ٩٧.

٨- انظر تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٦٥ وانظر دعوة الرسل إلى الله تعالى ص ٢٥١.

الفصل الثاني

الفصل الثاني

موضوعات الحوار في دعوة موسى عليه السلام

ويحتوي على مبحثين :

المبحث الأول : الحوار في دعوة موسى -عليه السلام- لإثبات ما يتعلق بالعبادة .

المبحث الثاني : الحوار في دعوة موسى -عليه السلام- لإثبات ما يتعلق بالأحكام والأخلاق

المبحث الأول : الحوار في دعوة موسى - عليه السلام - لإثبات ما يتعلق بالعتيدة

تمهيد :

العتيدة ليست مختصة بالإسلام، بل كل ديانة أو مذهب لابد لأصحابه من عتيدة يُقيمون عليها نظام حياتهم، وهذا ينطبق على الأفراد والجماعات .

والعتائد منذ بدء الخليقة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قسمان :

القسم الأول : يمثل العتيدة الصحيحة التي جاءت بها الرسل الكرام - عليهم السلام - فهي عتيدة واحدة، منزلة من العليم الخبير، ولا يتصور أن تختلف من رسول إلى رسول ومن زمان إلى زمان .

والقسم الثاني : يشمل العتائد الفاسدة وعلى كثرتها وتعددتها، ففسادها ناشئ من كونها نتاج أفكار البشر، ومن وضع عقلائهم ومفكرتهم، ومهما بلغ البشر من عظم الشأن، فإن علمهم يبقى محدوداً مقيداً بقيود متأثراً بما حولهم من عادات وتقاليد وأفكار، وقد يأتي فساد العتيدة من تحريفها، وتغييرها وتبديلها، كما هو الحال بالنسبة للديانة اليهودية والنصرانية في الوقت الحاضر، فإنهما حرقتا منذ عهد بعيد، ففسادهما كان من هذا التحريف وإن كانت كل واحدة منهما عتيدة سليمة في الأصل .

العتيدة لغة واصطلاحاً :

تردد كلمة العتيدة على ألسنة الناس وفي محاوراتهم كثيراً، فنراهم يقولون : (أنا أعتقد كذا) و(فلان عتيدته حسنة) والعتيدة هي السبب القوي الذي أدى إلى الانتصارات الإسلامية العظيمة في كل زمان ومكان .

فماذا يريد الناس من كلمة عتيدة؟ وما معنى هذه الكلمة في اللغة؟ وما مفهومها في الشرع؟

العتائد هي الأمور التي تصدق بها النفوس، وتطمئن إليها القلوب، وتكون يقيناً عند أصحابها لا يمازجها ريب ولا يخالطها شك .

يقال: عَقَدَ الشَّيْءُ عَقْدًا: التوى كأن فيه عقدة. واحتبس اللسان فهو أَعْقَدُ وَعَقْدٌ وهي عقدة وعقداء والرجلُ كان في لسانه حُبْسَةً أي عقدة^(١).

و«عقد الحبل» شد بعضه ببعض نقيض حَلَّه، ومادة (عَقَدَ) في اللغة مدارها على الزوم والتأكد والاستيثاق، ففي القرآن: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ^(٢)﴾ وتعقيد الأيمان إنما يكون بقصد القلب وعزمه، بخلاف لغو اليمين الذي يجري على اللسان بدون قصد.

و(العقود) أوثق العهود ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ^(٣)﴾ وتقول العرب: اعتقد الشيء: صلب واشتد^(٤).

والعقيدة في الإسلام تقابل الشريعة، إذ الإسلام عقيدة وشريعة فالشريعة تعني التكليف العملية التي جاء بها الإسلام في العبادات والمعاملات، والعقيدة ما يقصد به الاعتقاد دون العمل كعقيدة وجود الله مثلاً^(٥).

والعقيدة ليست أموراً عملية فحسب بل أمور علمية يجب على المسلم أن يعتقدها في قلبه، لأن الله أخبره بها بطريق كتابه أو بطريق وحيه إلى رسوله ﷺ.

وأصول العقائد التي أمرنا الله باعتقادها هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ^(٦)﴾ وحددها الرسول ﷺ في

١- لسان العرب ٤/ ٢٨٨ فصل العين حرف الدال وانظر المعجم الوسيط ٢/ ٦١٤ الطبعة الثانية، الناشر: المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع - تركيا.

٢- المائدة: ٨٩.

٣- المائدة: ١.

٤- لسان العرب ٤/ ٢٨٨ فصل العين حرف الدال.

٥- انظر التعريفات ص ١٩٦.

٦- البقرة: ٢٨٥.

حديث جبريل المشهور بقوله: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(١). إذن العقيدة الصحيحة هي المسائل العلمية التي صح بها الخبر عن الله ورسوله، والتي يجب أن ينعقد عليها قلب المؤمن تصديقاً لله ورسوله^(٢). وحتى تصبح هذه الأصول عقيدة لا بد أن نصدّق بها تصديقاً جازماً لا ريب فيه، فإن كان فيها ريب أو شك كانت ظناً لا عقيدة.

فالعقيدة هي الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى مُعتقده والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾^(٣).

ويلاحظ أن المسائل التي يجب اعتقادها أمور غيبية ليست مشاهدة منظورة، وهي التي عنها الله بقوله عندما مدح المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾^(٤).

فالله غيب، وكذلك الملائكة واليوم الآخر، أما الكتب والرسل فقد يتبادر أنها تشهد وتنظر، ولكن المراد هو الإيمان بنسبتها إلى الله، أي كون الرسل مبعوثين من عند الله، وأن الكتب منزلة من عند الله، وهذا أمر غيبي.

* علاقة العقيدة بالإيمان والأحكام:

أولاً: علاقة العقيدة بالإيمان:

امتدح الله في كتابه الإيمان وأهله في مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٥) وقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٦).

فالإيمان: عقيدة تستقر في القلب استقراراً يلازمه، ولا ينفك عنه، ويعلن صاحبها بلسانه عن

١- سبق تخريجه ص ٨٩.
٢- العقيدة في الله ص ١٢ تأليف: د. عمر بن سليمان الأشقر، الطبعة العاشرة - ١٤١٥هـ - الناشر: دار النفائس للنشر والتوزيع - الأردن.
٣- الحجرات: ١٥.
٤- البقرة: ٣.
٥- المؤمنون: ١.
٦- البقرة: ٥.

العقيدة المستكنة في القلب، ولا يكون لها وجود في الظاهر عقيدة خاوية باردة، لا تستحق أن تُسمى عقيدة.

وقد نرى كثيراً من الناس يعرفون الحقيقة على وجهها، ولكنهم لا ينصاعون لها، ولا يصوغون حياتهم وفقها، بل قد يعارضون الحق الذي استيقنوه ويحاربونه، فهذا إبليس يعرف الحقائق الكبرى معرفة يقينية، يعرف الله، ويعرف صدق الرسل والكتب، ولكنه نذر نفسه لمحاربة الحق الذي يعرفه.

وفرعون كان يوقن بأن المعجزات التي جاء بها موسى إنما هي من عند الله، ولكنه جحد بها استكباراً وعلواً، كما قال الله في حقه وملئه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾^(١). وقد خاطب موسى -عليه السلام- فرعون قائلاً: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ﴾^(٢). وأهل الكتاب يعرفون أن محمداً مرسل من ربه: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾^(٣) ولكنهم لا يقرون بذلك.

إذن ليس الإيمان مجرد معرفة بالله، أو معرفة يستعلي صاحبها عن الإقرار بها، أو يرفض أن ينصاع لحكمها، بل الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان^(٤).

ثانياً: علاقة العقيدة بالأحكام:

الإيمان كما ذكر - له شطران: عقيدة نقية راسخة تستكن في القلب، وعمل يظهر على الجوارح، فإذا فقد أحد الركنين، فإن الإيمان يزول أو يختل، إذ الاتصال بين الطرفين دقيق جداً.

فمثل الإيمان كمثل شجرة طيبة ضاربة بجذورها في الأرض الطيبة، وباسقة بسوقها في السماء، مزهرة مثمرة معطاء، تعطي أكلها كل حين بإذن ربها، فالإيمان هو الشجرة، وجذورها العقيدة التي تغلغت في قلب صاحبها، والسوق والفروع والثمار هي العمل^(٥).

١- النمل: ١٤.

٢- الإسراء: ١٠٢.

٣- البقرة: ١٤٦.

٤- شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٣٣.

٥- العقيدة في الله ص ٢٠.

ولاشك في أن الجذور إذا خُلعت أو تعفنت فسدت الشجرة، ويبست، ولم يبق لها وجود وكذلك الإيمان لا يبقى له وجود إذا زالت العقيدة، أما إذا قطعت الساق والفروع أو قطع بعض فروعها فإن الشجرة تضعف وتهزل، وقد تموت كلياً. وكذلك الأعمال إذا تركت أو ترك جزء منها، فإن الإيمان ينقص أو يزول بالكلية.

ونظراً لأهمية العقيدة ولأنها الأصل الأول في دعوات الأنبياء والرسل كما يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (١).

حرص موسى -عليه السلام- على تصحيح العقيدة في نفوس من أرسل إليهم ولذلك رأيتُ أن أقسم الحوار في دعوة موسى -عليه السلام- لإثبات ما يتعلق بالعقيدة إلى أربعة مطالب:

المطلب الأول: الدعوة إلى التوحيد.

المطلب الثاني: التحذير من الشرك.

المطلب الثالث: النهي عن عبادة العجل.

المطلب الرابع: قولهم أرنا الله جهرة.

١- سورة النحل: ٣٦.

المطلب الأول: الدعوة إلى التوحيد

كان أول دعوة الأنبياء عليهم السلام وأكبر هدفهم في كل زمان ومكان هو (تصحيح العقيدة) في الله تعالى وتصحيح (الصلة بين العبد وربّه) والدعوة إلى (إخلاص الدين) وإفراجه بالعبادة وحده.

فكانت حملتهم مركزة موجهة إلى الوثنية القائمة في عصورهم، الممثلة بصورة واضحة في عبادة الأوثان والأصنام والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات الذين كان يعتقد أهل الجاهلية أن الله قد خلع عليهم لباس الشرف والتأله وجعلهم متصرفين في بعض الأمور الخاصة. أما الإقرار بالله تعالى خالقاً ومدبراً، وأنه هو المحيي والمميت الرازق النافع الضار فمركوز في فطر بني آدم لا يكاد ينازع في ذلك أحد: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاؤَنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾^(١). وأشهر من عرف عنه التظاهر بإنكار الربوبية فرعون -قبحه الله- وإن كان مستيقناً بها في الباطن كما جاء ذلك على لسان موسى عليه السلام: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لِأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مُثَبَّرًا﴾^(٢) وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾^(٣).

ولكن هذا الإقرار لا قيمة له ما ظل أثراً خامداً في الشعور بل لا بد من الإتيان بلازمه من توحيد العبادة.

لذلك تركزت دعوة موسى -عليه السلام- مع قومه في هذا الجانب في نقطتين مهمتين:

١- إبراهيم: ١٠.

٢- الإسراء: ١٠٢.

٣- النمل: ١٤.

الأولى: الدعوة إلى توحيد الله سبحانه عن طريق لفت النظر إلى الآيات الكونية الدالة على وجود الله ووحدانيته والتذكير بنعمه عليهم وما يجب نحوهما من الشكر ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى:

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (١).

أي أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه، أو أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان، كل منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه ثم هدى كل شيء وعرفه كيف يرتفق بما أعطاه وكيف يتوصل إليه (٢).

قال الزمخشري - رحمه الله - : (ولله در هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالباً للحق) (٣). ومن تأمل بعض هدايته المبتوثة في العالم شهد بأنه هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة بأيسر نظر (٤).

ثم يقول: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ (٥) صالحة للمشي والضراب فيها لطلب الرزق ﴿ وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ (٦) فلم يجعلها جميعها جبلاً ولم يجعلها جميعها بحاراً، بل جعل فيها الماء واليابس، وجعل فيها الجبل والسهل ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾ (٧) مختلف في طوله وقصره، ولونه وطعمه ودرجة حلاوته وحموضته. ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ (٨) في ذلك كله من الأرض الممهدة المنتبتة والسماء الممطرة دلائل وعبر لأصحاب العقول.

١- طه : ٤٩ - ٥٠ .

٢- دعوة الرسل إلى الله تعالى ص ٢٤٤ .

٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل ٢ / ٥٣٨ .

٤- انظر الضوء المنير على التفسير ٤ / ٢١٠ جمعه: علي الحمد المحمد الصالحى من كتب الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الناشر: مؤسسة النور للطباعة والتجليد بالتعاون مع مكتبة دار السلام - الرياض .

٥، ٦، ٧- طه : ٥٣ .

٨- طه : ٥٤ .

ثم عقب موسى -عليه السلام- على ذلك بالتمهيد للبعث فقال: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾^(١) ليرى فرعون أن الإله الذي قَدَرَ على البدء قادر على الإعادة وأن النشأة من الأرض، وسنعود إلى الأرض فنصير جزءاً منها كما كنا، ثم يخرجنا الله منها عند البعث .

وفي موضع آخر يذكر الله سبحانه، حواراً آخر لموسى -عليه السلام- مع فرعون وهو يقرر فيه ربوبية الله سبحانه، بما يذكر له من آيات الله الناطقة بوحدايته فيقول سبحانه: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ * قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^(٢) .

وهي مُحاجة يتبين فيها إفلاس فرعون من وجود حجة بل شبهة يدفع بها ما جاء به موسى -عليه السلام- من البيّنات . فقد سأل فرعون عن الجنس ولا جنس لله تعالى، لأن الأجناس محدثة فعلم موسى -عليه السلام- جهله فأضرب عن سؤاله وأعلمه بعظيم قدرة الله التي تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها^(٣) ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾^(٤) . وهو جواب جامع فيه أن الكون كلّه بسمائه وأرضه وما فيهما وما بينهما إنما خالقه الخلاق العليم .

فبدأت تظهر هزيمة فرعون واضحةً ومراوغته ظاهرة فجعل يلتمس من قومه من يشهد له ضد موسى -عليه السلام- ويسخر منه ويتهم به^(٥) حين قال: ﴿ أَلَا تَسْتَمْعُونَ ﴾^(٦) على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة، إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم فزاد موسى بالبيان بقوله: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾^(٧) جاءهم بدليل يفهمونه عنه لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء وأنهم قد فنوا وأنه لا بد لهم من مغير، وأنهم قد كانوا بعد أن لم

١- طه : ٥٥ .

٢- الشعراء : ٢٣-٢٨ .

٣- الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ٩٨ .

٤- الشعراء : ٢٤ .

٥- انظر منهج الدعوة الإسلامية في البناء الاجتماعي على ضوء ما جاء في سورة الحجرات ص ٦١، تأليف: محمد بن محمد بن الأمين الأنصاري الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ، الناشر: مكتبة الأنصار .

٦- الشعراء : ٢٥ .

٧- الشعراء : ٢٦ .

يكونوا، وأنهم لا بد لهم من مكوّن، فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف:

﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾^(١) فأجابه موسى -عليه السلام-:
﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٢) فليس ملكه كملكك يا فرعون!!
فأنت تملك بلداً واحداً لا يجوز أمرك في غيره، والذي أرسلني يملك المشرق والمغرب^(٣).

وخصص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة وحساب مستوٍ من أظهر ما استدل به لظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الله عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على النمرود بن كنعان^(٤) - فبهت الذي كفر^(٥).

الثانية: في الدعوة إلى توحيد الله سبحانه عن طريق بيان صفات الكمال الثابتة لله وحده وأن ما يعبد من دونه على النقيض من ذلك.

ففرعون الذي تنهى في الطغيان والجبروت حتى قال: ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾^(٦) ووصل إلى الحد الذي وصفه الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٧). يظهر الله عجزه وضعفه أمام بعض آياته التي خر لأجلها السحرة سجداً لله تعالى.

فموسى -عليه السلام- لما جاءه ببعض الآيات البينات من عند الله تعالى، زعم فرعون أنها سحر، وادعى بأنه سيقابل السحر بمثله تعجيزاً لموسى -عليه السلام- وفعل ما استطاعه من أساليب الكيد لصد موسى -عليه السلام- عن دعوته وإضلال قومه، وإبعادهم عن هدى

١- الشعراء : ٢٧ .

٢- الشعراء : ٢٨ .

٣- انظر الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ٩٨ ، وانظر دعوة الرسل إلى الله تعالى ص ٢٥٦-٢٥٧ .

٤- هو النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح وهو أحد ملوك الدنيا فقد قيل إن ملوك الدنيا أربعة ملكان مؤمنان وهما ذو القرنين وسليمان وملكان كافران النمرود وبختنصر، ملك النمرود بابل أربعمئة سنة طغى فيها وتجرى ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لاشريك له حملة الجهل والضلال إلى إنكار الصانع فحاج إبراهيم الخليل في ذلك وادعى لنفسه الربوبية (انظر تاريخ الرسل والملوك ١ / ٢٣٤ وانظر البداية والنهاية ١ / ١٣٩).

٥- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٣ / ١١٠ .

٦- القصص : ٣٨ .

٧- القصص : ٤ .

الله سبحانه وهو لا يدري أنه بذلك يحاد الله سبحانه الذي بيده ملكوت كل شيء .

وأن موسى -عليه السلام- إنما جاءه بالحق من عند الله، لا بالسحر كما يزعم، فكانت النتيجة هي الخسران لفرعون وأتباعه بذهاب ملكه، وغرقه في الدنيا، ثم بالعذاب الأليم والحزني العظيم في الآخرة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ * قَالَ أَجئْنَا لِنُخْرِجَنَّهُ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِك يَا مُوسَىٰ * فَلِنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نَخْلُفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى * فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ * قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيَلِكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا فَيَسْحَتِكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ * فَتَنَّا زَعْوًا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ * قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّىٰ * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَىٰ ﴿١﴾ .

ففرعون جمع كل ساحر في مدائن مملكته ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (٢) . ومع ذلك فقد أراهم الله سبحانه ما كانوا عليه من الضلال وأبطل كيدهم، وجعل الحزني على الكافرين وأُفْلِت الأمر من يد فرعون، وظهر على حقيقته من الضعف والعجز بسبب عصا، أمرها بارتها سبحانه أن تلتهم كل ما ألقوه من السحر وماذا كانت النتيجة: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ (٣) فهؤلاء الذين كانوا أداة لفرعون يضل الناس بسحرهم أدركوا عظمة الله سبحانه، ولم يعودوا يُبَالُونَ بأي تهديد يصدر من فرعون لأنه لم يعد شيئاً يُرهب أمام آيات الله التي بهرتهم وأمام الإيمان الذي ملأ قلوبهم ولذلك لما هددهم بقوله كما حكى الله عنه: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ

١- طه : ٥٦-٦٤ .

٢- يونس : ٧٩ .

٣- طه : ٧٠ .

كَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السَّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي
جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿١﴾ .

لم يحفلوا بتهديده، وإنما كان جوابهم عليه، ما حكى الله سبحانه عنهم بقوله:
﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي
هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ
وَأَبْقَى﴾ (٢) .

كما يتجلى لنا مظهر آخر من مظاهر قدرة الله البالغة وعجز فرعون في انفلاق البحر،
وظهور الطريق اليبس فيه، لينجى الله سبحانه، نبيه موسى -عليه السلام- ومن معه ويهلك
عدوه فرعون وقومه:

﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَامَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي
سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّوْدِ
الْعَظِيمِ * وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (٣) .

ومن ذلك أيضاً ما حكى الله سبحانه عن مقاتله لبني إسرائيل بعد أن ذهب لميقات ربه
وعاد إليهم وقد أضلهم السامري بما اتخذ لهم من عجل عكفوا على عبادته - كما سيأتي
بيانه إن شاء الله تعالى (٤):

﴿وَأَنْظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُْحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (٥) . أحرق

١- طه : ٧١ .

٢- طه : ٧٢-٧٣ .

٣- الشعراء : ٦١-٦٥ .

٤- انظر المطلب الثاني من هذا الفصل ص ١٨٩ - ٢٠٧ .

٥- طه : ٩٧ .

نبيُ الله تعالى موسى -عليه السلام- العجل الذي عكف على عبادته بنو إسرائيل وهذا دليل حي على ضلال من يعبد الجماد الذي لا يملك لنفسه شيئاً من ضرٍ أو نفع فهو يحرقه ويلقي رماده في البحر دون أن يُدافع عن نفسه فكيف يملك ضرراً أو نفعاً لمن يعبده^(١)، أليس من سفاهة العقول وتفاهتها أن تعكف على عبادة مثل هذا الجماد العاجز؟ .

١- انظر المبحث الثاني من الفصل الأول ص ١٦٩ هامش (٨) .

المطلب الثاني: التحذير من الشرك

كان بنو إسرائيل يُسامون الخسفَ في ظلم الوثنية الجاهلية عند فرعون وملئه، فيقتل أبناءهم ويستحي نساءهم، فأنقذهم الله على يدي نبيهم موسى -عليه السلام- وكان المفترض أن يكون لهم في ذلك درس يزيدهم إيماناً بعقيدة التوحيد ويعمق في نفوسهم أن لا إله إلا الله وأن عبادة غيره كفر وضلال مبين، لاسيما بعد رؤيتهم لتلك المعجزات الباهرات التي أيد الله بها موسى -عليه السلام- ناهيك عن نعمة إنقاذهم من فرعون وملئه.

ولكن الذي ثبت أنهم على عكس ذلك، فما كادوا يقعون على مشهد من مشاهد الوثنية حتى هفت نفوسهم إلى عبادة غير الله. ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ^(١)﴾.

فالله -عز وجل- حينما أنقذ بني إسرائيل وجاوز بهم البحر وقعت أبصارهم على قوم وثنيين عاكفين على أصنام لهم يعبدونها ويقدمونها.

قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين وقال قتادة: (هم قوم من لحم وجذام وكانوا نزولاً بالبرقة^(٢))^(٣).

وقال ابن كثير -رحمه الله- (كانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل^(٤)).

١- الأعراف آية ١٣٨.

٢- الرقة مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام، معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي. (انظر معجم البلدان ٥٩/٣).

٣- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٦/ ٩٥ لأبي محمد بن عبد الحق بن عطية الأندلسي تحقيق وتعليق: عبد الله ابن إبراهيم الأنصاري، السيد عبدالعال السيد ابراهيم، محمد الشافعي صادق العناني، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، الناشر: مؤسسة دار العلوم للطباعة.

٤- تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٤٣-٢٤٤.

وقال القاضي أبو محمد^(١) - رحمه الله: (القوم المشار إليهم في الآية هم العرب^(٢)).
والقوم في الكلام: الرجال خاصة ومنه قول الشاعر:

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء^(٣)

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾^(٤)

وقوله ﴿يَعْكُفُونَ﴾: يقال عَكَفَ يَعْكِفُ بمعنى أقام على الشيء ولزمه^(٥)، ومنه الاعتكاف في المساجد^(٦).

فهؤلاء النفر من بني إسرائيل لم ينتفعوا بذلك التاريخ الذي قارب ربع قرن من الزمان وما فيه من الصراع بين وثنية فرعون ودعواه الألوهية، وبين كلمة التوحيد التي جاءهم بها نبيهم موسى - عليه السلام - من عند الله - عز وجل - لم ينتفعوا بذلك ولا بما رأوا من الآيات الباهرات قاطعة الدلالة على أن التوحيد هو الحق وأن ما دونه هو الباطل، فراحوا يستشرفون عبادة الأوثان.

قال القاضي أبو محمد - رحمه الله -:

(والظاهر من مقالة بني إسرائيل لموسى - عليه السلام - ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾^(٧) أنهم استحسبوا ما رأوه من آلهة أولئك القوم، فأرادوا أن يكون ذلك في شرع

١- هو الإمام العلامة أبو محمد بن عبدالحق بن الحافظ أبي بكر غالب بن عطية المحاربي الغرناطي الإمام شيخ المفسرين كان إماماً في الفقه وفي التفسير وفي العربية ولد سنة ثمانين وأربع مائة. طلب العلم وهو صغير وولي قضاء المرية في سنة تسع وعشرين وخمس مائة. توفي بحصن سنة إحدى وأربعين وخمس مائة، (انظر سير أعلام النبلاء ٥٨٧/١٩-٥٨٨).

٢- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٥٩/٦.

٣- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١١، شرح وتحقيق: حجر عاصي الطبعة الأولى ١٩٩٤م الناشر: دار الفكر العربي بيروت.

٤- الحجرات: ١١.

٥- الجامع لأحكام القرآن ٧/٢٧٣.

٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٦٠/٦.

٧- الأعراف: ١٣٨.

موسى - عليه السلام - وفي جملة ما يتقرب به إلى الله وإلا فبعيد أن يقولوا لموسى - عليه السلام - اجعل لنا صنماً نفرده بالعبادة ونكفر بربك فعرفهم موسى - عليه السلام - أن هذا جهل منهم إذ سألوا أمراً حراماً فيه الإشراك في العبادة^(١) . فقال كما جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾^(٢) .

ولم يحدد ماذا يجهلون لأن في إطلاق اللفظ ما يعني الجهل الكامل الشامل ... وليُشيرَ إلى أن الانحراف عن التوحيد إلى الشرك إنما ينشأ من الجهل والحماسة، وأن العلم والتعقل كلاهما يقود إلى الله الواحد .

ولم يكتف موسى - عليه السلام - بمقولته السابقة - كما جاء في القرآن الكريم - ولكنه حاول أن يزيل الغشاوة عن العيون ويبين لبني إسرائيل محاوراً أياهم أن هؤلاء الذين يعكفون على هذه الأصنام والذين تطلعتهم إلى تقليدهم ينتظرهم سوء العاقبة والمصير لأن هذا كله متبر هالك باطل اعتقاداً كان، أو عملاً وسلوكاً فكيف تتطلعون إلى ما هم فيه من الضلال وقد أنعم الله عليكم بالتوحيد .

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣)

مُتَّبِعُونَ أَي مُهْلِكٌ، وَالتَّبَارُ: الهلاك^(٤) .

روى الإمام الزهري^(٥) في تفسير هذه الآية عن سنان بن أبي سنان الدؤلي^(٦) عن

١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٦ / ٦٠-٦١ .

٢- الأعراف : ١٣٨ .

٣- الأعراف : ١٣٩ .

٤- تفسير غريب القرآن ص ١٧٢ .

٥- هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري من بني زهرة بن كلاب أبو بكر أحد الفقهاء السبعة وأحد الأعلام المشهورين وهو أول من دون الحديث وسمع من بعض الصحابة - تابعي مدني، ومن الحفاظ الثقة ومن المكثرين للحديث مع إتقان وفقه، يعد من الطبقة الرابعة توفي رحمه الله سنة (١٢٤هـ) وله ٧٤ سنة (انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١/ ١٦٢-١٦٣) .

٦- هو سنان بن أبي سنان يزيد بن أبي أمية ويقال ابن ربيعة الديلي المدني تابعي ثقة، توفي سنة خمس ومئة وله اثنتان وثمانون سنة، (انظر تهذيب التهذيب ٢/ ١١٩) .

أبي واقد الليثي^(١) أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر^(٢) مر بشجرة للمشركين، يقال لها ذات أنواط^(٣) يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال النبي ﷺ: «سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾^(٤)، والذي نفسي بيده لتركبن سنن^(٥) من كان قبلكم^(٦)».

ثم يواصل موسى -عليه السلام- حوارَه مع قومه مستفهماً استفهام إنكار وتوبيخ عن سبب طلبهم عبادة غير الله بعد ما تجلّى لهم أنه الإله الحق: ﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْيَعِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٧) أي كيف أطلب لكم غير الله إلهاً تعبدونه وقد شاهدتم من آياته العظام ما يكفي بعض منها.

وإدخال الهمزة على ﴿غير﴾ للإشعار بأن المنكر هو كون المبتغى إلهاً غيره سبحانه وتعالى و﴿غير﴾ مفعول للفعل الذي بعده و﴿إلهاً﴾ تمييز أو حال، وجملة ﴿وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٨) في محل نصب على الحال: أي والحال أنه فضلكم على العالمين من أهل عصركم بما أنعم به عليكم من إهلاك عدوكم واستخلافكم في الأرض وإخراجكم من الذل والهوان إلى العز والرفعة، فكيف تقابلون هذه النعم بطلب عبادة غير الله^(٩)؟

يقول الإمام ابن عطية -رحمه الله-: «﴿وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١٠) لفظ عام يراد به تخصيص عالمي زمانهم لأن أمة محمد ﷺ أفضل منهم بإجماع لقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١١) اللهم إلا أن يراد بالفضل كثرة الأنبياء منهم فإنهم

١- هو الصحابي الجليل أبو واقد: الحارث بن عوف بن أسيد بن جابر الليثي، أسلم يوم الفتح وشهد تبوك واليرموك وكان يحمل راية قومه، توفي رضي الله عنه سنة ٦٨ وقيل ٨٥ هـ وهو ابن خمس وسبعين سنة (انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ٦/٣١٩-٣٢٠ ترجمة رقم (٦٣٣٤) وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ٧/٣٧-٣٧١ ترجمة رقم (١٠٧٠١)).

٢- خيبر ناحية على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام يطلق هذا الاسم على الولاية وتشتمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير وهو الموضع المذكور في غزاة النبي ﷺ فتحت خيبر عنوة سنة سبع للهجرة (انظر معجم البلدان ٢/٤٠٩).

٣- ذات أنواط: هي اسم شجرة بعينها كانت للمشركين يعلقون بها سلاحهم ويعكفون حولها (النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/١٢٨).

٤- الأعراف: ١٣٨.

٥- السنن: الطريقة والسيره والمراد الطريقة التي سلكها من قبلكم من الأمم كاليهود والنصارى حين وقعوا في هذه البدع، (انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ص ٤٠٩).

٦- أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/٢١٨ وأخرجه الترمذي في كتاب الفتن باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم ٤/٤٧٥ رقم ٢١٨٠ قال الألباني حديث صحيح انظر سنن الترمذي ٢/٢٣٥.

٧، ٨- الأعراف: ١٤٠.

٩- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ٢/٢٤١.

١٠- الأعراف: ١٤٠.

١١- آل عمران: ١١٠.

فضلوا في ذلك على العالمين بالإطلاق^(١)).

والتمييز على العالمين في زمانهم يتجلى في اختيارهم لرسالة التوحيد من بين المشركين وليس وراء ذلك فضل ولا منة كما أنه اختارهم ليورثهم الأرض المقدسة التي كانت إذ ذاك في أيدي مشركي. فكيف بعد هذا كله يطلبون إلى نبيهم أن يطلب لهم إلهاً غير الله وهم في نعمته وفضله يتقبلون؟.

وقيل: فضلهم بإهلاك عدوهم وبما خصهم به من الآيات^(٢)، ثم عدد عليهم النعم التي يجب من أجلها ألا يكفروا به ولا يرغبوا في عبادة غيره ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ^(٣)﴾

يذكرهم موسى - عليه السلام - بنعم الله عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره وما كانوا فيه من الهوان والذلة وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه^(٤).

يقول ابن كثير - رحمه الله - معلقاً على طلب بني إسرائيل من موسى بأن يجعل لهم إلهاً: (وليس كل بني إسرائيل سأل هذا السؤال بل هذا الضمير عائد على الجنس في قوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ^(٥)﴾ أي قال بعضهم كما في قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا لَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا^(٦)﴾ فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم^(٧)).

١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٦/٦٢-٦٣.

٢- الجامع لأحكام القرآن ٧/٢٧٤.

٣- الأعراف: ١٤١.

٤- تفسير القرآن العظيم ٢/٢٤٤.

٥- الأعراف: ١٣٨.

٦- الكهف: ٤٧-٤٨.

٧- البداية والنهاية ١/٢٥٩.

المطلب الثالث: النهي عن عبادة العجل

يقول الله عز وجل: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١).

لقد انتهت المرحلة الأولى من مهمة موسى -عليه السلام- التي أرسل لها ... انتهت مرحلة تخليص بني إسرائيل من حياة الذل والهوان والنكال والتعذيب من فرعون وملكه وإنقاذهم من أرض الذل والقهر. تمهيداً لدخولهم الأرض المقدسة ولكن القوم لم يكونوا بعد على استعداد لهذه المهمة الكبرى مهمة الخلافة في الأرض بدين الله ... فلقد رأينا كيف اشترأت نفوسهم إلى الوثنية والشرك بمجرد أن رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم، وتخلخلت عقيدة التوحيد التي جاءهم بها موسى -عليه السلام- ولم يمضِ عليها إلا الوقت القليل، فلم يكن بدّ من رسالة مفصلة لتربية هؤلاء القوم وإعدادهم لما هم مقبلون عليه من الأمر العظيم، ومن أجل هذه الرسالة المفصلة كانت مواعدة الله لعبده موسى -عليه السلام- ليلقاه ويتلقى عنه وكانت هذه المواعدة إعداداً لموسى -عليه السلام- نفسه كي يتهيأ في هذه الليالي للموقف ويستعد لتلقيه.

وهذا الموعد الشريف من الله -عز وجل- لنبيه موسى -عليه السلام- يُعدُّ نعمة عظيمة أنعم الله بها على بني إسرائيل حيث أكرمهم وأكرم نبيهم بهذا الموعد لمناجاة ربه وتكليمه بالوحي بلا واسطة، بل قربه الله نجياً من وراء حجاب.

قوله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾^(٢) فيه ثلاث مسائل:

(الأولى: قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾^(٣) ذكر أن مما أكرم الله به

١، ٢، ٣- الاعراف: ١٤٢.

موسى - عليه السلام - وعده بالمناجاة .

الثانية : دلت هذه الآية على أن ضرب الأجل للمواعدة سنة ماضية، وأول أجل ضربه الله تعالى الأيام الستة التي خلق فيها جميع المخلوقات ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾^(١) . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾^(٢) وقد ضرب الله تعالى لموسى ثلاثين ثم زادها عشرا لتتمة الأربعين .

وأبطأ موسى - عليه السلام - في هذه العشر على قومه فما عقلوا جواز التأنى والتأخر حتى قالوا : إن موسى ضل أو نسي فنكثوا عهده وبدلوا بعده وعبدوا إلهاً غير الله .

الثالثة : دلت الآية أيضاً على أن التاريخ يكون بالليالي دون الأيام لقوله تعالى ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾^(٣) لأن الليالي أوائل الشهور وبها كانت الصحابة تخبر عن الأيام . حتى روي عنهم أنهم كانوا يقولون : صمنا خمسا مع رسول الله ﷺ .

والعجم تخالف في ذلك فتحسب بالأيام لأن معولها على الشمس ولهذا قيل : (حساب الشمس للمنافع، وحساب القمر للمناسك)^(٤) .

وقوله ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ فيها قولان :

أحدهما : أن الثلاثين ليلة شهر أمر بصيامه، والعشر بعدها أجل لمناجاة ربه .

١- ق : ٣٨ .

٢- الأعراف : ٥٤ .

٣- الأعراف : ١٤٢ .

٤- الجامع لاحكام القرآن ٧ / ٢٧٥-٢٧٦ .

وثانیهما: أن الأربعین کلها أجلٌ لمناجاة ربه، أجل في الأول ثلاثین ليلة ثم زیدت عشرًا بعدها^(١).

وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟

فالأكثر علی أن الثلاثین هي ذو القعدة والعشر عشر من ذي الحجة قاله مجاهد وغيره. وقد أمره الله أن يصوم هذا الشهر وينفرد فيه بالعبادة، فلما صامه أنكر خلوف فمه فاستاك، بعود خرنوب فقالت الملائكة إنا كنا نستشف من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فزید علیه عشر ليالي من ذي الحجة^(٢) فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر وحصل فيه التكليم لموسى - عليه السلام -^(٣) وحين أراد موسى - عليه السلام - الذهاب لمناجاة ربه استخلف أخاه هارون كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾^(٤) فالمعنى: أن موسى - عليه السلام - حين أراد المضي للمناجاة والمغيب فيها قال لأخيه هارون كن خليفتي فدل على النيابة. وفي الحديث عن سعد بن أبي وقاص^(٥) رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي حين خَلَفَهُ في بعض مغازيه: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيُّ بعدي^(٦) .

١- النكت والعيون ٥٣/٢ .

٢- الجامع لأحكام القرآن ٢٧٤/٧ .

٣- تفسير القرآن العظيم ٢٤٤/٢ .

٤- الأعراف آية: ١٤٢ .

٥- هو سعد بن أبي وقاص بن مالك بن أهيب بن عبيد مناف بن هرة بن كلاب بن مرة بن لؤي . أسلم قديماً وهو ابن سبع عشرة سنة وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله وولي الولايات من قبل عمر وعثمان توفي بالعقيق سنة خمس وخمسين وحمل إلى المدينة ودفن بالبقيع (انظر صفة الصفوة ١/ ١٨٧ وانظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ٤٥٢/٢ - ٤٥٧ ترجمة رقم (٢٠٣٨)، وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ٦١/٣ - ٦٥ ترجمة رقم (٣٢٠٢) .

٦- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب مناقب علي بن أبي طالب ١٢٠/٥ وأخرجه في كتاب المغازي باب غزوة تبوك - العسرة - وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل علي بن أبي طالب ٤/ ١٨٧٠-١٨٧١ رقم (٢٤٠٤) .

فاستدل بهذا الروافض^(١) والإمامية^(٢) وسائر فرق الشيعة^(٣) على أن النبي استخلف علياً على جميع الأمة حتى كفر الصحابة الإمامية - قبحهم الله - لأنهم تركوا العمل الذي هو النص على استخلاف علي واستخلفوا غيره بالاجتهاد منهم، ومنهم من كفرَ علياً إذ لم يقم بطلب حقه. وهؤلاء لاشك في كفرهم وكفر من تبعهم على مقالته، ولم يعلموا أن هذا استخلاف في حياة كالكوالة التي تنقض بعزل الموكل أو بموته، فينحل على هذا ما تعلق به الإمامية وغيرهم.

فقد استخلف النبي ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم^(٤) وغيره، ولم يلزم من ذلك استخلافه دائماً بالاتفاق. على أنه قد كان هارون شرك مع موسى - عليه السلام - في أصل الرسالة، فلا يكون لهم فيه على ما راموه دلالة^(٥).

وخلاصة القول أن موسى - عليه السلام - استخلف أخاه علي بن إسرائيل وأوصاه بالإصلاح فيهم ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين بموافقتهم على المعاصي. ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٦).

١- الرافضة: ويسمون بالجعفرية أو بالإمامية الاثني عشرية لأنهم قالوا بوجوب الإمامة. وأما سبب تسميتهم بالرافضة فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (أنه في زمن خروج زيد بن علي بن الحسين افتقرت الشيعة إلى رافضة وزيدية لأنه لما سئل رضي الله عنه عن الشيخين (أبي بكر وعمر) ترحم عليهما فرفضه بعضهم فقال لهم: رفضتموني فسموا رافضة، وهم يسلكون مسلك المعتزلة في عقائدهم وينفردون عنهم بأراء في الإمامة والصحابة وغير ذلك، والرافضة كما قال شيخ الإسلام: أكذب الطوائف وأشبهها باليهود)، (انظر مختصر منهاج السنة ١/٧-٢٥ لأبي العباس شيخ الإسلام أحمد بن تيمية اختصره: الشيخ عبدالله الغنيمان الطبعة الأولى ١٤١١ هـ الناشر: مكتبة الكوثر بالرياض ودار الأرقم ببريطانيا، وانظر الملل والنحل ١/١٤٦-١٩٠).

٢- الإمامية: هم فرقة من المسلمين تمسكوا بحق علي رضي الله عنه في وراثة الخلافة بعد النبي ﷺ وقالوا باثني عشر إماماً دخل آخرهم السرداب بسامراء على حد زعمهم وهم يتطلعون إلى نشر مذهبهم ليعم العالم الإسلامي. (انظر الملل والنحل ص ١٦٢ وانظر الموسوعة الميسرة للاديان والمذاهب المعاصرة ص ٢٩٩).

٣- الشيعة: هم الذين شايعوا علياً رضي الله عنه على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده. وقالوا أن الإمامة هي ركن الدين لا يجوز للرسول عليهم السلام إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامة وإرساله (انظر الملل والنحل ص ١٤٦).

٤- ابن أم مكتوم مختلف في اسمه فأهل المدينة يقولون: عبدالله بن قيس بن زائدة بن الأصم بن رواحة القرشي العامري. وأما أهل العراق فسموه عمراً، وهو أحد السابقين المهاجرين وقد كان النبي ﷺ يستخلفه على المدينة إذا خرج منها فيصلي ببقايا الناس كما كان مؤذناً لرسول الله ﷺ مع بلال. استشهد يوم القادسية وقيل شهد القادسية ثم رجع إلى المدينة فمات بها رضي الله عنه (انظر سير أعلام النبلاء ١/٣٦٠-٣٦٥).

٥- الجامع لأحكام القرآن ٧/٢٧٧.

٦- الأعراف: ١٤٢.

ف قوله ﴿ وَأَصْلِح ﴾ : يريد الرفق بهم والإحسان إليهم (١) . وكان من الإصلاح أن يزجر السامري ويغير عليه .

وبينما كان موسى - عليه السلام - في حضرة ربه يناجيه كان قومه يرتكسون ويتكسون ويتخذون لهم عجلاً جسداً له خوار لا حياة فيه يعبدونه من دون الله . ﴿ وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ ﴾ (٢) .

قال الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - : (إن جميع آيات اتخاذهم العجل إليها حُذِفَ فيها المفعول الثاني في جميع القرآن كما في قوله هنا : ﴿ وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً ﴾ (٣) أي اتخذوه إليها والنكته في حذفه دائماً التنبيه : على أنه لا ينبغي التلطف بأن عجلاً مصطنعاً من جماد إليه ، وقد أشار تعالى إلى هذا المفعول المحذوف دائماً في (طه) بقوله : ﴿ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ (٤) (٥) .

وروي في قصص العجل : أن السامري أخذ ما كان استعاره القوم من حلي آل فرعون التي استعاروها منهم في يوم عيد لهم فلما أخرجهم الله من مصر وغرق القبط بقيت تلك الحلي في أيديهم فقال لهم السامري : إنها حرام عليكم فها تورا ما عندكم فنحرقه (٦) . فصاغ منها عجلاً وألقى فيه قبضة من التراب كان قد أخذها من أثر فرس جبريل - عليه السلام - حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي ، ويقال إنه استحال عجلاً جسداً أي لحماً ودماً حياً يخور (٧) .

١- معالم التنزيل ٣ / ٢٧٥ .

٢- الأعراف : ١٤٨ .

٣- الأعراف : ١٤٨ .

٤- طه : ٨٨ .

٥- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢ / ٣٢٣ .

٦- الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٢٨٤ .

٧- انظر تفسير القرآن العظيم ٢ / ٢٤٨ .

وقد اختلف المفسرون في العجل الذي صنعه السامري على أقوال عدة منها:

- ١- أنه كان جسداً مجسداً من ذهب لا روح فيه وكان يُسمع منه صوت.
- ٢- أنه كان يُسمع منه الخوار وهو لا يتحرك قاله وهب.

٣- أنه كان يخور ويمشي وكلما خار سجدوا له، وإذا سكت رفعوا رؤوسهم^(١). قاله السدي والراجح الذي عليه المفسرون أنه عجل مصنوع من ذهب كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه فيخور كما تخور البقرة فيرقصون حوله ويفرحون.

﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾^(٢) أي ضل وأخطأ الطريق. وفي رواية أخرى: ﴿فَنَسِيَ﴾ أي أن موسى ذهب يطلب ربه فضل، ولم يعلم مكانه، وقيل: نسي أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم^(٣).

وقال قتادة: (إن السامري قال لهم: قد نسي موسى إلهه عندكم)^(٤) وهذا هو القول المشهور: أن قوله ﴿فَنَسِيَ﴾ من كلام السامري وعباد العجل معه.

وقيل إن هذا من إخبار الله تعالى عن السامري: أنه نسي أي ترك ما كان عليه من الإيمان.

والصحيح القول الأول - أن موسى - عليه السلام - نسي إلهه عندهم - والسياق يدل عليه، أما عن سبب قول السامري ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾^(٥) فإنه لما صنع العجل

١- انظر معالم التنزيل ٣/ ٢٨٣.

٢- طه : ٨٨.

٣- زاد المسير في علم التفسير ٥/ ٣١٥.

٤- النكت والعيون ٣/ ٢٥.

٥- طه : ٨٨.

استحضر سؤالاً من بني إسرائيل يوردونه عليه، فيقولون له إذا كان هذا إله موسى، فلاي شيء ذهب، فأجاب عن هذا السؤال قبل إيرادته عليه بقوله ﴿فَنَسِيَ﴾ أي نسي موسى ربه عندنا وذهب يتطلبه وهو ههنا تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً^(١).

فتوجهوا إليه بالدعاء والعبادة ناسين وصية نبيهم لهم من قبل بالثبات على عبادة الله الذي لا تراه الأبصار، فهذا العجل حينما عبدوه لم يتدبروا في حقيقته ولا في صفاته التي لا تكون لبشر فضلاً من أن تكون لإله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا^(٢)﴾ وقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ^(٣)﴾ فذكر الله - عز وجل - أن هذا الحيوان الذي عكفوا على عبادته والذي صنعه واحد منهم لا يتكلم ولا يرد جواباً، ولا يملك ضراً ولا نفعاً ولا يهدي إلى رشد، اتخذه وهم ظالمون لأنفسهم عالمون في قراراتها بطلان ما هم عليه.

يقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - : (وعدم الكلام نقصٌ عظيم فهم أكمل حالاً من هذا الحيوان أو الجماد الذي لا يتكلم ولا يهديهم سبيلاً لأن المتقرر في العقول والفطر أن اتخاذه إله لا يتكلم، ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل ولهذا قال: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾^(٤) حيث وضعوا العبادة في غير موضعها وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً.

وفيهما دليل على أن من أنكر كلام الله، فقد أنكر خصائص إلهية لله تعالى . لأن الله ذكر أن عدم الكلام، دليل على عدم صلاحية الذي يتكلم للإلهية^(٥).

فلقد استغرقتهم الضلالة المثيرة فعموا وضموا عن أبسط ما يدل عليه العقل السليم إذ

١- انظر الضوء المنير على التفسير ٤ / ٢٢٠ .

٢- طه : ٨٩ .

٣- الأعراف : ١٤٨ .

٤- الأعراف : ١٤٨ .

٥- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٣ / ٩٢-٩٣ .

كيف يستقيم مع هذا العقل المدعى أن يعبدوا من دون الله الخالق القادر ما لا يكلمهم ولا يهديهم إلى خير بل لا يرجع إليهم قولاً، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً^(١).

من أجل ذلك حكم الله عليهم بالظلم فيما صنعوا فقال سبحانه: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾^(٢) إذ لم يكن لهم أي عذر في ذلك الانحراف وأين العذر مع وجود الأدلة القاطعة؟ بأن الله هو الخالق القادر الحكيم، فعندما ينصرف المرء عن الأدلة الواضحة ويهمل عقله ويغرق في اتباع الهوى يكون ظالماً لنفسه وهؤلاء المغضوب عليهم أعرضوا عن كل ما يدعو إلى الثبات على الإيمان وعبدوا ما صنعه لهم السامري من دون الله. ولكن الحقيقة تجلت لهم وظهر لهم سخف عقولهم فجاءت توبة الندم: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣).

يقال للنادم المتحير: قد سقط في يده إذا عدم الحيلة في دفع ما هو بصدده من أمر^(٤)، والسقاط في كلام العرب كثرة الخطأ والندم^(٥).

ومنه قول سويد بن أبي كاهل^(٦)

كَيْفَ يَرْجُونَ سَقَاطِي بَعْدَمَا لَفَعَ الرَّأْسَ مَشِيبٌ وَصَلَعٌ^(٧)

والندم يكون في القلب، ولكنه ذكر اليد لأنه يقال لمن تحصل على شيء: قد حصل في يده أمر كذا، لأن مباشرة الأشياء في الغالب باليد قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكَ﴾^(٨) وأيضاً: الندم وإن حل في القلب فآثره يظهر في البدن، لأن النادم يعرض يده، ويضرب إحدى يديه على الأخرى: ﴿فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَّيْهِ عَلَيَّ مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾^(٩) أي ندم.

١- انظر اليهود في القرآن و السنة بعض من خلافتهم ١١٦/١ تأليف د. محمد أديب الصالح الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ الناشر: دار الهدى.

٢- الأعراف : ١٤٨ .

٣- الأعراف : ١٤٩ .

٤- انظر تفسير غريب القرآن ص ١٧٢، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت ١٣٩٨ هـ، وانظر المفردات في غريب القرآن ص ٢٣٥ .

٥- الجامع لأحكام القرآن ٢٨٦/٧ .

٦- سويد كاهل بن حارثة الذيباني الكناني أبو سعد، شاعر جاهلي أدرك الإسلام وعمر طويلاً، متقدم في قول الشعر، شعره وجداني أشهر شعره عينيه كانت تسمى في الجاهلية (التيمة) توفي سنة ٦١ هـ (انظر الأعلام ٢١٥/٣).

٧- شرح المفصلية للتبريزي ٧٣٧/٢ تأليف: أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيباني، تحقيق علي السجاوي الناشر: دار نهضة مصر.

٨- الحج : ١٠ .

٩- الكهف : ٤٢ .

وتلك حال بني إسرائيل من الندم والحسرة لما رأوا تلك النكسة التي وقعوا فيها ببعدهم عن الله - عز وجل - فلم يكن لهم بدّ من الالتجاء إليه بالدعاء وطلب المغفرة والرحمة: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١).

وهذه القولة تدل على أنه كان فيهم - إلى ذلك الحين - بقية من استعداد صالح فلم تكن قلوبهم قد قست كما قست من بعد فهي كالحجارة أو أشد قسوة - كما يصفهم من هو أعلم بهم فلما تبين لهم ضلالهم ندموا وعرفوا أنه لا ينقذهم من عاقبة ما أتوا إلا أن تدرّكهم رحمة ربهم ومغفرته ... وهذه علامة طيبة على بقية من استعداد في الفطرة للصالح.

والمقصود أن ما حدث لهم من النكسة أولاً ثم التوبة كان على بُعدٍ من مرأى ومسمع من موسى - عليه السلام - الذي كان بين يدي ربه في مناجاة وكلام ولا يدري ما أحدث القوم بعده .. ولكن الله أخبره بما حصل كما جاء في القرآن الكريم ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتْرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾^(٢) وهكذا علم موسى بما أحدث القوم بعده - وهو الذي أرسل لهم ليخلصهم من الذل والاستعباد وليصوغ منهم أمة ذات رسالة وذات تكاليف - ولكن الاستعباد الطويل في ظل الفرعونية الوثنية أفسد طبيعة القوم وأضعف استعدادهم لاحتمال التكاليف والصبر عليها والوفاء بالعهد والثبات عليه وترك في كيانهم النفسي استعداداً للانقياد والتقليد فما يكاد موسى يتركهم في رعاية هارون ويبعد عنهم قليلاً حتى تتخلخل عقيدتهم كلها وتنهار أمام أول اختبار وهو ابتلاؤهم بالعجل الذي صنعه لهم السامري . فلما علم موسى - عليه السلام - بشناعة الفعلة التي أقدموا عليها عجل بالعودة إليهم وهو غضبان أشد الغضب: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾^(٣).

١- الأعراف : ١٤٩ .

٢- طه : ٨٣-٨٥ .

٣- الأعراف : ١٥٠ .

عَجَّلَ إِلَيْهِم بِالْعُودَةِ وَهُوَ غَضَبَانِ أَشَدَّ الْغَضَبِ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ إِقْرَؤُهُ لِتِلْكَ الْأَلْوَاحِ الَّتِي كَانَتْ تَحْمِلُ كَلِمَاتِ رَبِّهِ فَهُوَ لَا يَلْقِيهَا إِلَّا وَقَدْ أَفْقَدَهُ الْغَضَبُ زَمَامَ نَفْسِهِ وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ عِنْدَمَا أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ^(١).

وهنا لا بد من الإشارة إلى قاعدة مثبتة في السنة النبوية تتعلق بإلقاء موسى -عليه السلام- الألواح بعد أن عاد إلى قومه غضبان أسفا، وهي أنه ليس المعاین كالمخبر، فقد روي عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى ليس المعاین كالمخبر أخبره ربه -عز وجل- أن قومه فُتِنُوا بعده فلم يلق الألواح فلما رأهم وعاینهم ألقى الألواح^(٢)».

فالحاصل أن نقول إن موسى -عليه السلام- بعد عودته أخذ يحاور قومه معاتباً لهم على سوء ما عملوا في غيابه ﴿بِسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي^(٣)﴾.

يقال: خلفه بخير أو بشر إذا ولاه في أهله بعد شخوصه عنهم خيراً أو شراً ثم يستفسر في حوارهم أيضاً عن سبب اتخاذ هذا العجل إليها ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ^(٤)﴾.

وقال الماوردي: ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ^(٥)﴾ فيه قولان:

أحدهما: يعني وعد ربكم الذي وعدني به من الأربعين ليلة، وذلك أنهم قدروا أنه قد مات لما لم يأت على رأس الثلاثين ليلة.

ثانيهما: وعد ربكم بالثواب على عبادته حتى عدلتم إلى عبادة غيره. قاله بعض المتأخرين^(٦).

١- انظر المبحث الثاني من الفصل الأول ص ٧٨ .

٢- أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٧١/١ والحاكم في المستدرک کتاب التفسیر باب ليس الخیر كالمعاینة ٣٢١/٢ قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي . ورواه الطبراني أيضاً في الأوسط والبخاري في مسنده وابن أبي حاتم في تفسيره وابن حبان في صحيحه وابن مردويه في تفسيره كلهم من حديث ابن عباس، كما ذكره السيوطي في الدرر (٢٣٥/٣).

٣، ٤- الأعراف : ١٥٠ .

٥- الأعراف : ١٥٠ .

٦- انظر النكت والعيون ٥٨/٢ .

فموسى - عليه السلام - غضب على قومه أشد الغضب وحق له أن يغضب فهو فيما هو فيه من المناجاة مع ربه والاعتناء بأمرهم، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم، ثم يعود ليجدهم عاكفين على عجل من ذهب لا ينفع ولا يضر. وقد وعدهم الله بالنصر ودخول الأرض المقدسة في ظل التوحيد، ولم يمض على هذا الوعد وإنجاز مقدماته طويلاً وقت لذلك أخذ يؤنبهم في استنكار: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾^(١) ﴿فَاعْتَدُوا إِلَيْهِ بِمَا لَيْسَ بِصَاحِبٍ: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾^(٢).

تخرجوا من تملك حلي آل فرعون، وهم أهل حرب، وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ولم يتخرجوا بجهلهم وقلة علمهم وسخافة عقولهم من عبادة العجل الجسد الذي له خوار مع الواحد الأحد الفرد الصمد^(٣).

ثم إن موسى - عليه السلام - لم يكتف بتوبيخ قومه بل التفت إلى خليفته فيهم وهو هارون - عليه السلام - معاتباً له على ما حصل منهم وهو فيهم كما جاء في القرآن الكريم . . ﴿يَا هَارُونَ مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾^(٤) ﴿فِيَجِيبُهُ أَخَاهُ يَقُولُ: ﴿قَالَ يَا بَنُومَ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾^(٥).

فموسى - عليه السلام - يستنكر على أخيه ترك القوم يعبدون العجل وهو فيهم وقد أوصاه بالإصلاح.

١- طه : ٨٦ .

٢- طه : ٨٧ .

٣- انظر تفسير القرآن العظيم ١٦٣/٣ .

٤- طه : ٩٢-٩٣ .

٥- طه : ٩٤ .

فيجيبه هارون -عليه السلام- بنداء رقيق: ﴿قَالَ يَا بَنُومَ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾^(١) وفي آية أخرى ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي﴾^(٢) ﴿ابْنُ أُمِّ﴾ قرأ أهل الشام بكسر الميم يريد ﴿يا ابن أُمِّي﴾ فحذفت ياء الإضافة وأبقيت الكسرة لتدل على الإضافة كقوله (يا عباد) ومن العرب من يقول يا ابن أُمِّي باثبات الياء^(٣).

قال ابن كثير -رحمه الله-: (ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه لأن ذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف^(٤)) وقيل إن هارون كان أخوه لأمه دون أبيه^(٥).
وللعلماء في أخذ موسى برأس أخيه أربع تأويلات:

الأول: أن ذلك كان متعارفاً عندهم، كما كانت العرب تفعله من قبض الرجل على لحية أخيه وصاحبه إكراماً وتعظيماً، فلم يكن ذلك على طريق الإذلال. كما فعل عروة بن مسعود الثقفي^(٦) في صلح الحديبية فقد كان يكلم النبي ﷺ وهو آخذ بلحيته كما يقول ابن القيم -رحمه الله- ولم يقابله النبي ﷺ على ذلك لأنها كانت عادة العرب^(٧).

الثاني: أن ذلك إنما كان ليُسِرَّ إليه نزول الألواح عليه، لأنها نزلت عليه في هذه المناجاة، وأراد أن يخفيها عن بني إسرائيل قبل التوراة فقال له هارون -عليه السلام-: لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، لئلا يشتبه سراره على بني إسرائيل بإذلاله.

١- طه : ٩٤ .

٢- الأعراف : ١٥٠ .

٣- معالم التنزيل ٣ / ٣٨٤ .

٤- تفسير القرآن العظيم ٣ / ١٦٤ .

٥- انظر الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٢٩٠ .

٦- هو عروة بن مسعود بن معتب الثقفي، كان أحد الأكابر في قومه، وكانت له اليد البيضاء في تقرير صلح يوم الحديبية وهو كافر أسلم في السنة التاسعة وقتله قومه (انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ٤ / ٣٠-٣١، وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ٤ / ٤٠٦-٤٠٨).

٧- زاد المعاد في هدي خير العباد ٣ / ٣٠٥ .

الثالث: إنما فعل ذلك به لأنه وقع في نفسه أن هارون مائلٌ مع بني إسرائيل فيما فعلوه من أمر العجل، ومثل هذا لا يجوز للأنبياء.

الرابع: ضم إليه أخاه ليعلم بما لديه، فكره ذلك هارون لئلا يظن بنو إسرائيل أنه أهانه فبين له أخوه أنهم استضعفوه يعني عبدة العجل، وكادوا يقتلونه لأنه حاول نصحهم وزجرهم عن عبادة العجل كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾^(١) ﴿٢﴾ ولكنهم لم يطيعوه ولم يلتفتوا إلى كلامه بل أعلنوا إصرارهم على ما هم عليه حتى يرجع إليهم موسى: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾^(٣).

وليتهم اكتفوا بالمخالفة والإصرار على ما فتنوا به من عبادة العجل بل كادوا يقتلونه عليه السلام لذلك نجده يستجيش أخاه برابطة الأخوة في أن لا يخلطه معهم في غضبه عليهم وتأنيبه إياهم، حتى لا يكون مرتعاً خصباً للشماتة من قبل الأعداء الذين ضلوا وكفروا بربهم وهو بريء منهم^(٤): ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٥) قوله: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ﴾ أي لا تسرهم^(٦).

والشماتة: السرور بما يصيب أخاك من المصائب في الدين والدنيا^(٧)، والمعنى أن هارون - عليه السلام - خاطب أخاه مستعظماً إياه بتلك الوشيجة الرحيمة وذلك النداء الرقيق

-
- ١- طه : ٩٠ .
 - ٢- الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٢٨٩ .
 - ٣- طه : ٩١ .
 - ٤- انظر تفسير القرآن العظيم ١ / ٢٤٩ وانظر في ظلال القرآن ٣ / ١٣٨٥ .
 - ٥- الأعراف : ١٥٠ .
 - ٦- انظر نزاهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز ص ١٧٨ للإمام أبي بكر السجستاني حققه وعلق عليه : د . يوسف بن عبدالرحمن المرعشلي الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ الناشر: دار المعرفة - بيروت .
 - ٧- انظر المفردات في غريب القرآن ص ٢٦٩ وانظر الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٢٩١ .

﴿ يَا بَنُوٓمِ ﴾ بأن لا تعجل في لومي وتعنيفي، فإني ما آليتُ جهداً في الإنكار عليهم، وما قصرت في نصيحتهم ولكنهم لم يستمعوا إليّ، بل قهروني واستضعفوني، وأوشكوا أن يقتلوني عندما بذلت أقصى طاقتي لأخفف من اندفاعهم نحو العجل، فلا تفعل بي ما هو أمّنتهم ومحل شماتتهم من الاستهانة بي والإساءة إليّ، فإن من شأن الأخوة بيننا أن تكون ناصرةً معينة حين يكون هناك أعداء يشمتون، ولا تجعلني في زمرة القوم الظالمين فإني بريء منهم، فلما سمع موسى -عليه السلام- عذراً أخيه واقتنع ببراءته من مغبة التقصير قال: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾^(١) أي اغفر لي ما كان من الغضب الذي ألقيت من أجله الألواح، ولأخي لأنه ظنّه مقصراً في الإنكار عليهم، وإن لم يقع منه تقصير.

قال بعض المفسرين: عبّد كلهم العجل غير هارون، إذ لو كان ثم مؤمن غير موسى وهارون -عليهما السلام- لما اقتصر على قوله: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ﴾^(٢). وقيل: استغفر لنفسه من فعله بأخيه وقد فعل ذلك لوجدته عليه، إذ لم يلحق به فيعرفه ما جرى ليرجع إليهم^(٣).

وبهذا يكون القرآن قد برأ ساحة هارون من التقصير، وفي ذلك إبطال لما جاء في التوراة: (الفصل الثاني والثلاثين من سفر الخروج) من أن هارون -عليه السلام- هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل ليعبدوه في غيبة موسى -عليه السلام-.

ثم يتجه موسى -عليه السلام- بعد ذلك إلى السامري صاحب الفتنة من أساسها فتكون هذه هي المرحلة الثالثة من حوار موسى مع عبدة العجل.

١- الأعراف : ١٥١ .

٢- الأعراف : ١٥١ .

٣- الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٢٩١ .

حيث وجه حوارهِ في بداية الأمر إلى القوم لأنهم مسؤولون عن أنفسهم ابتداءً في أن لا يتبعوا كل ناعق.

ثم توجه إلى هارون المستخلف عليهم.

وأخيراً يتجه في حوارهِ إلى من أغواهم فغروا وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى موسى ونصح هارون عليهما السلام: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ...^(١) الخطب: مصدر خَطَبَ الأمر إذا طلبه فإذا قيل لمن يفعل شيئاً ما خطبك: فمعناه: ما طلبك له والخطب ما يحدث من الأمور الجليلة التي يخاطب عليها^(٢)

قال جمهور المفسرين:

(أن السامري قال لموسى - عليه السلام - عَلِمْتُ ما لم يعلموا به، ورأيت ما لم يروه فقد رأيت جبريل^(٥) حين جاء لهلاك فرعون راكباً على فرس لا يمر بشيء إلا سرت فيه الحياة، فقبضت قبضة تراب من موضع حافر فرسه فنبذتها - أي فألقيتها - في الحلي المذاب فصار عجلاً جسداً له خوار فألقيتها في جوف العجل المسبوك من الحلي فصار حياً، وقد سولت لي نفسي أن أفعل ذلك لأفتن بني إسرائيل وأجعلهم يتركون عبادة الله إلى عبادة العجل)^(٣).

وعلى هذا التفسير الذي ذهب إليه جمهور المفسرين يكون المراد بالرسول الذي بَصُرَ به السامري هو جبريل - عليه السلام - ويكون المرادُ بأثره التراب الذي أخذه من موضع حافر فرسه. فزين لبني إسرائيل بعد غيبة موسى - عليه السلام - أن يلقوا ما معهم من الحلي في النار فلما فعلوا ذلك سَبَكَ منه عجلاً جسداً له منافذ على هيئة رقيقة إذا تخللتها الرياح وتراكت

١- طه: ٩٥-٩٦.

٢- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٥٥١/٢.

٣- تفسير القرآن العظيم ١٦٣/٣.

فيها كان له صوتٌ كالخوار، فعبدوه من دون الله . ثم إن موسى عليه السلام، قال له : ما خطبك يا سامري وما شأنك حتى أوقعتهم في هذه الضلالة؟ أجاب السامري : بأنه قد وصل علمي إلى ما لم يصل إليه غيري، فعرفت أن ما أنت عليه من الشريعة ليس هو الحق، ومن أجل ذلك نبذت ما كنت أؤمن به منها وزينتُ لقومي ما رأيتُه حقاً وهو ترك عبادة إلهك يا موسى - عليه السلام- إلى عبادة العجل الذي صنعتُه لهم فقال له موسى - عليه السلام- : إن عقوبتك في الدنيا على ضلالك أن تحرم من لذة النساء حتى لا يكون لك عَقَب وهو المراد من قوله : ﴿لَا مَسَاسَ﴾ .

وقيل : لأن موسى عليه السلام أمر بني إسرائيل لا يؤاكلوه ولا يخالطوه فكان لا يمسُّ ولا يُمسُّ وإذا اتفق أن ماسَّ أحداً رجلاً كان أو امرأة؛ حُمَّ الماسُّ والممسوس، فتحامى الناس وتحاموه وكان يصيح لا مساس^(١) وأن لك في الآخرة ما لكل مشرك ترك عبادة الله وأقام على الضلال .

وأما قوله : ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُْحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لِنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾^(٢) فتتجلى هنا العقوبة الثالثة للسامري، حيث عوقب في المرة الأولى بأن لا يمس ولا يُمس، وعوقب في الثانية بسوء المصير في الآخرة - وأما الثالثة فهي إهدار سعيه وإبطال ما افتتن به وفتن غيره، حيث استحال العجل لحماً ودماً فحرَّقه موسى - عليه السلام- بالنار ثم ألقى رماده في البحر، فقليل أنه لم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب فقالوا لموسى ما توبتنا؟ قال يقتل بعضكم بعضاً قاله السدي^(٣) .

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- : (فلو كان إلهاً، لامتنع ممن يريد به بأذى، ويسعى له بالإتلاف، وحيث إن العجل قد أُشرب في قلوب بني إسرائيل أراد موسى

١- انظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٥٥١/٢ وانظر النكت والعيون ٢٨/٣ .

٢- طه : ٩٧ .

٣- انظر تفسير القرآن العظيم ١٦٥/٣ .

-عليه السلام-، إتلافه - وهم ينظرون على وجه لا تمكن إعادته- بالحرق والسحق ليزول مما في قلوبهم من حبه كما زال شخصه ولأن في إبقائه، محنة، لأن في النفوس أقوى داع إلى الباطل(١).

فلما تبين لهم بطلانه، أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لاشريك له فقال ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٢).

وبعد أن خلص موسى -عليه السلام- القوم من عبادة العجل وبين لهم أن الله هو المستحق وحده بالعبادة، توعدهم الله -عز وجل- عبدة العجل بالغضب والذلة في الدنيا كما جاء في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ (٣).

الغضب والذلة هو أمرهم بقتل أنفسهم هذا هو الظاهر.

وقال بعض المفسرين الذلة: الجزية. وقيل الإشارة في قوله ﴿الَّذِينَ﴾ أي من مات من عبدة العجل قبل التوبة بقتل النفس وإلى من فرلم يكن حاضراً وقت القتل(٤).
وقيل: أراد أولادهم، وهو ماجرى على بني قريظة والنضير(٥).

والآية فيها وعد ووعيد من الله -عز وجل- بالغضب والذلة للذين عبدوا العجل ولكن هذا الوعيد قائم ما لم تتحقق القاعدة العامة، قاعدة التوبة والاستغفار: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَأَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٦).

وصفة توبة الله على بني إسرائيل جاءت في سورة البقرة على لسان موسى -عليه السلام-: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى

١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١٨٥/٥.

٢- طه: ٩٨.

٣- الأعراف: ١٥٢.

٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٩٠/٦.

٥- الجامع لأحكام القرآن ٢٩٢/٧.

٦- الأعراف: ١٥٣.

بَارِئِكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ^(١) ﴿﴾ فالله عز وجل رتب عفوهم عنهم على توبتهم من هذا الشرك الفظيع، وإن صدق توبتهم لا يكون إلا بقتلهم أنفسهم يعني أن المطيع الذي لم يعبد العجل يقتل المشرك الذي عبد العجل لأن الذي لم يعبد العجل لم ينكر على من عبده، فصارت عاقبة ترك الإنكار بالكلام والمقاطعة إعمال السيف فيما بينهم ولذا قال لهم موسى -عليه السلام-:

﴿ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ^(٢) ﴾ قوله ﴿ ظَلَمْتُمْ ﴾: الظلم عند أهل اللغة: وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة^(٣) قال تعالى: ﴿ كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا^(٤) ﴾ أي لم تنقص منه شيئاً^(٥). وكل من نقص من حق أحد كان ظالماً، وإذا أطلق الظلم في القرآن كان معناه الشرك، لأن المشرك ينتقص الله بنقصه أي حق من حقوق الله وصرفه إلى غيره قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ^(٦) ﴾.

يقول الشيخ: عبد الرحمن الدوسري^(٧) -رحمه الله-:

(وبنو إسرائيل انتقصوا الله انتقاصاً لا مثيل له بعبادتهم العجل خصوصاً بعد ما شاهدوا معجزات باهرات تدل على ألوهية الله، وتبطل ألوهية ما سواه، بحيث لا يجوز حصول شبهة في قلب أي عاقل بعد وقوع تلك المعجزات القاهرة، فقد ظلموا باتخاذهم العجل ظلماً عظيماً، وحيث أن ضرر الكفر والشرك ونحوهما لا يضر الله، لأنه منزّه عن الاستكمال بطاعة الطائعين وعن الانتقاص بمعصية العاصين فإن ظلم أولئك يعود عليهم بالضرر ولهذا قال: ﴿ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ^(٨) ﴾ وقوله ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ^(٩) ﴾ أي توبوا إلى الله خالقكم وبارئكم

١، ٢- البقرة: ٥٤.

٣- المفردات في غريب القرآن ص ٣١٥.

٤- الكهف: ٣٣.

٥- لسان العرب ١٥/ ٢٩٨ فصل الظاء حرف الميم.

٦- لقمان: ١٣.

٧- هو عبدالرحمن بن محمد بن خلف بن عبدالله الفهد آل نادر الدوسري نسبة إلى قبيلة الدواسر. ولد في مدينة البحرين، وسافر به والده إلى الكويت بعد أشهر قليلة من ولادته. نشأ في بيئة صالحة محافظة من أحياء الكويت تسمى «المرقاب» وحفظ القرآن الكريم في أسابيع معدودة ومن مؤلفاته: إيضاح الغوامض من علم الفرائض، مشكاة التنوير على شرح الكوكب المنير، صفوة الآثار والمفاهيم في تفسير القرآن العظيم وغيرها كثير، (انظر علماء ومفكرون عرفتهم ص ٦٨-٧٢ وانظر حياة الداعية الشيخ عبدالرحمن بن محمد الدوسري ص ٢٤-٨٦ رسالة ماجستير، إعداد الطالب: سليمان بن ناصر الطيار، إشراف الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله الفالح عام ١٤٠٣-١٤٠٤هـ).

٨، ٩- البقرة: ٥٤.

من العدم إذ لا يستحق العبادة سواه، ومن تأمل حقيقة التوبة وغايتها لا يستنكر ما رُتب عليها من ذلك التكليف الشاق، خصوصاً للنفوس المنهارة سريعة التنكر والإيغال في المنكر^(١).

وإضافة إلى عبادة اليهود للعجل فقد عبد فريق منهم الأصنام مثل صنم (ملوخ)^(٢) وعبد فريق آخر صنماً على عهد إلياس^(٣) - عليه السلام - يدعى بعلاً: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ^(٤)﴾ وبعل: هو اسم صنم كان لأهل بك من الشام وهو البلد المعروف اليوم (ببعلك)^(٥).

قيل: كان من ذهب طوله عشرون ذراعاً وله أربعة أوجه فُتِنوا به وعظموه حتى أخذموه أربعمئة سادن وجعلوهم أنبياء، فكان الشيطان يدخل جوفه ويتكلم بشرعية الضلال والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس^(٦).

١- صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم ١٣١/٢ للشيخ عبد الرحمن بن محمد الدوسري الطبعة الأولى ١٤٠١هـ الناشر: مكتبة دار الأرقم - الكويت.

٢- ملوخ: صنم من نحاس على هيئة حيوان مفترس كبير كانوا يوقدون فيه النار ويلقون بيناتهم في جوفه فتأكلهم النار ويحتسبونهن قرابين. (انظر لماذا لعن اليهود في القرآن والسنة ص ٦١ تأليف: أحمد بن إبراهيم الحاج الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر - بيروت).

٣- هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران بعثه الله عز وجل نبياً في بني إسرائيل لما عبدوا الأوثان وتركوا عهد الله الذي عهد إليهم في التوراة وكان الأنبياء في بني إسرائيل بعد موسى بن عمران يبعثون بتجديد ما نسوا من التوراة، (انظر تاريخ الرسل والملوك ١/٤٦١ وانظر الكامل في التاريخ ١/١٦١-١٦٢، وانظر البداية والنهاية ١/٣١٤-٣١٦).

٤- الصافات: ١٢٣-١٢٥.

٥- بعلك مدينة قديمة مشهورة بقرب دمشق فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين الرخام لا مثيل لها في الدنيا. (وبعلك) اسم مركب من (بعل) وهو اسم صنم و (بك) اسم رجل وقيل: إن (بك) موضع معروف منذ قديم الزمان بعبادة بني إسرائيل فيه صنم اسمه (بعل) فأضيف الصنم إلى اسم ذلك الموضع فصار المجموع اسماً للمدينة (انظر معجم البلدان ١/٤٥٣ وانظر آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٥٦).

٦- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٧/٢٠٣.

المطلب الرابع: قولهم أرنا الله جهرة

لقد بلغ من إجرامهم وتجروؤهم على الله - عز وجل - أن طلبوا رؤية الله عياناً حتى يؤمنوا به بعد أن جاءتهم الآيات والمعجزات التي تدل على عظمته سبحانه، وقد سجل القرآن هذا الطلب فقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾^(١) ﴿٢﴾ فكان من نتيجة هذا الطلب أن عاقبهم الله تعالى، فأرسل عليهم الصاعقة وهم ينظرون إليها ثم أحياهم الله تعالى بعد ذلك ليشكروا نعمة الله عليهم لكنهم استمروا في كفرهم وطغيانهم ومعصيتهم:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(٢) ﴿٣﴾
ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^(٣) ﴿٤﴾
زمن وقوع هذا الطلب:

وقد اختلف المفسرون في زمن وقوع هذا الطلب من بني إسرائيل فمنهم من يقول إنه وقع منهم - وعددهم عشرة آلاف - بعد العفو عنهم من عبادتهم العجل كما هو ظاهر من ترتيب الآيات روى ذلك السدي.

وقيل: إنهم سألوه عند مناجاة الله وأن السائلين هم السبعون المختارون لميقات التوبة. وليس في التوراة ما هو صريح لترجيح أحد القولين ولا ما هو صريح في وقوع هذا السؤال، ولكن ظاهر ما في سفر التثنية منها ما يشير إلى أن هذا الاقتراح قد صدر وأنه وقع بعد كلام الله تعالى الأول لموسى - عليه السلام - لأنها لما حكت تذكير موسى في مخاطبة بني إسرائيل ذكرت ما يغير كيفية المناجاة الأولى إذ قال كما جاء في سفر التثنية الإصحاح الخامس: (فلما سمعتم الصوت من وسط الظلام والجبل يشتعل بالنار تقدم إلي جميع رؤساء أسباطكم وشيوخكم وقلتم هو ذا الرب إلهنا قد أرانا مجده وعظمته، وسمعنا صوته من وسط النار

١ - الجهر يقال لظهور الشيء بإفراط حاسة البصر أو حاسة السمع. أما البصر رأيته جهاراً قال تعالى ﴿أرنا الله جهرة﴾ أي علانية، (انظر تفسير غريب القرآن ص ٤٩، وانظر نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز ص ١٨٩ وانظر المفردات في غريب القرآن ص ١٠١).

٢ - البقرة : ٥٥.

٣ - البقرة : ٥٥-٥٦.

... إنا عندما نسمع صوت الرب إلهنا أيضاً نموت ... تقدم أنت واسمع كل ما يقول لك الرب إلهنا وكلمنا بكل ما يكلمك به الرب .

وهذا يؤذن أن هنالك ترقباً كان منهم لرؤية الله تعالى وأنه أصابهم ما بلغ بهم مبلغ الموت^(١) .

وعن زمن هذا السؤال قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم^(٢) لما رجع موسى -عليه السلام- من عند ربه بالألواح وقد كتب فيها التوراة وجدهم يعبدون العجل أمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا فتاب الله عليهم فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذي أمركم به، ونهيكم الذي نهاكم عنه . فقالوا: ومن يأخذ بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة ويطلع علينا فيقول: هذا كتابي فخذوه فماله لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى وقرأ قول الله: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾^(٣) ، قال فجاءت غضبة من الله فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون . قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم وقرأ قول الله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٤) فقال لهم موسى -عليه السلام- خذوا كتاب الله . فقالوا: لا، فقال أي شيء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أننا متنا ثم أحيينا، قال خذوا كتاب الله . قالوا: لا فبعث الله ملائكة نتقت الجبل فوقهم، وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعدما أحيوا^(٥)، وهذا هو الصحيح لأن معاينتهم للأمور العظيمة لا تمنع تكليفهم لأن بني إسرائيل قد شاهدوا أموراً عظيماً من خوارق العادات وهم في ذلك مكلفون^(٦) .

ويروى أن اليهود قد طلبوا من الرسول ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً مكتوباً من الله ليدل

- ١- انظر التحرير والتنوير ١/ ٥٠٦ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر ١٤٠٤ هـ.
- ٢- عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي مولاهم المدني كان صاحب قرآن وتفسير، جمع تفسيراً في مجلد وكتاباً في الناسخ والنسخ حدث عن أبيه، وابن المذکور توفي سنة اثنتين وثمانين ومئة . (انظر تهذيب التهذيب ٢/ ٥٠٧-٥٠٨ وانظر سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٤٩) .
- ٣- البقرة : ٥٥ .
- ٤- البقرة : ٥٦ .
- ٥- تفسير القرآن العظيم ١/ ٩٥ .
- ٦- الجامع لأحكام القرآن ١/ ٤٠٥ .

على صدقه كما أتى موسى -عليه السلام- بالتوراة، وذلك عندما جاء بعض أحبار اليهود وقالوا للرسول ﷺ إن كنت نبياً فأتنا بكتاب جملة من السماء، كما أتى به موسى عليه السلام فأنزل الله عليه: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (١) ﴿٢﴾.

وكان هذا السؤال منهم على سبيل التعنت والعناد والكفر وكان تبجحاً لا يصدر عن طبع خالطته بشاشة الإيمان، أو فيه مجرد الاستعداد للإيمان على عكس السؤال الذي سألته موسى -عليه السلام- عندما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ (٣) فالفارق بين سؤال موسى عليه السلام ربه أن يراه وسؤال اليهود الرؤية: أن موسى -عليه السلام- سأل الرؤية مع الإيمان شوقاً لله وهؤلاء سألوا تعنتاً وكفراً إذ علقوا الإيمان بموسى -عليه السلام- بعد ظهور معجزاته حتى يروا ربهم جهرة، والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم، ولا يجوز الاقتراح عليهم.

وسؤالهم هذا لم يكن سؤال استرشاد بل سؤال تعنت وعناد، فعوقبوا على ذلك بالصعق والموت فدل ذلك على عظم الجرم (٤).

وقد استدلت المعتزلة (٥) بقوله تعالى ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (٦) على أن رؤية الله ممتنعة.

فقالوا: إنها لو كانت جائزة لكان طلب بني اسرائيل جائزاً فوجب أن لا تنزل بهم العقوبة كما لم تنزل بهم العقوبة لما التمسوا النقل من قوت إلى قوت ومن طعام إلى طعام في

١- النساء : ١٥٣ .

٢- انظر الدرر المنثور في التفسير بالماثور ٢/ ٢٣٨ وانظر أسباب النزول ص ١٥٣ للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري تحقيق: أيمن صالح شعبان الطبعة الأولى، الناشر: دار الحديث بالقاهرة.

٣- الأعراف : ١٤٣ .

٤- الأساس في التفسير ١/ ١٤٨ تأليف سعيد حوي الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع بمصر.

٥- المعتزلة يلقبون بالقدرية أي إحالة الأحوال كلها على القدر المحتوم ويعتقدون أن الله تعالى قديم وأن كلامه محدث مخلوق وأن العبد خالق لأفعاله خيرا وشرها وأن الرب منزه أن يضاف إليه شر فهو لا يفعل إلا الصلاح والخير كما اتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالإبصار في دار القرار التي أثبتت بالأحاديث الصحيحة عن المصطفى ﷺ، (انظر الملل والنحل ص ٤٥) .

٦- البقرة : ٥٥ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ مَا ذَكَرَ سُؤَالَ الرَّؤْيَةِ إِلَّا اسْتَعْظَمَهُ وَذَلِكَ فِي آيَاتٍ:

أحدها: هذه الآية فإن الرؤية لو كانت جائزة لكان قولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾^(٢) كقول الأمم لأنبيائهم: لن نؤمن لك إلا بإحياء ميت في أنه لا يستعظم ولا تأخذهم الصاعقة.

ثانيها: قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾^(٣) ﴿فَسُمِّيَ ذَلِكَ ظُلْمًا وَعَاقِبُهُمْ فِي الْحَالِ فَلَوْ كَانَتْ الرَّؤْيَةُ جَائِزَةً لَجَرَىٰ سُؤَالُهُمْ لَهَا مَجْرَىٰ مِنْ يَسْأَلُ مَعْجِزَةً زَائِدَةً.

ثالثها: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾^(٤) ﴿فَالرُّؤْيَةُ لَوْ كَانَتْ جَائِزَةً، وَهِيَ عِنْدَ مُجِيزِهَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَنَافِعِ، لَمْ يَكُنِ التَّمَاثُلُ عَتْوًا لِأَنَّ مَنْ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَىٰ نِعْمَةً فِي الدِّينِ أَوْ الدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ عَاتِيًا وَجَرَىٰ ذَلِكَ مَجْرَىٰ مَا يُقَالُ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ يَحْيِيَ اللَّهُ بَدْعَاتِكَ هَذَا الْمَيْتَ.

يقول الإمام الرازي -رحمه الله- في الرد عليهم: (وقولكم: إن طلب سائر المنافع من النقل من طعام إلى طعام لما كان ممكناً لم يكن طالبه عاتياً وكذا القول في طلب سائر المعجزات.

قلنا: ولم قلتُم إنه لما كان طالب ذلك الممكن ليس بعاتٍ وجب أن يكون طالب كل ممكن غير عاتٍ والاعتماد في مثل هذا الموضع على ضروب الأمثلة لا يليق بأهل العلم، وكيف وإن الله تعالى ما ذكر الرؤية إلا وذكر معها شيئاً ممكناً حكماً بجوازه بالاتفاق وهو إما نزول الكتاب من السماء أو نزول الملائكة، وأثبت صفة العتو على مجموع الأمرين وذلك كالدلالة

١- البقرة: ٦١.

٢- البقرة: ٥٥.

٣- النساء: ١٥٣.

٤- الفرقان: ٢١.

القاطعة في أن صفة العتو ما حصلت لأجل كون المطلوب ممتنعاً.

أما قولكم الظاهر يقتضي كون الكل ممتنعاً ترك العمل به في البعض فيبقي معمولاً به في

الباقي .

قلنا : إنكم ما أقمتم دليلاً على أن الاستعظام لا يتحقق إلا إذا كان المطلوب ممتنعاً وإنما

عولتم فيه على ضروب الأمثلة، والمثال لا ينفع في هذا الباب فبطل قولكم^(١) .

كما استدلت المعتزلة بقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي ﴾^(٢)

وبقوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾^(٣) ولكن الآيتين دليل عليهما : أما الآية الأولى : فالاستدلال

هنا على ثبوت رؤيته من وجوه :

أحدها : أنه لا يظن بكليم الله ورسوله الكريم أن يسأل ما لا يجوز له بل هو عندهم من

أعظم المحال .

الثاني : أن الله لم ينكر عليه سؤاله ولما سأل نوحٌ ربه نجاه ابنه أنكر سؤاله، وقال : ﴿ إِنِّي

أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾^(٤) .

الثالث : أنه تعالى قال ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ ولم يقل : إنني لا أرى أو لا تجوز رؤيتي أو لست

بمرئي والفرق بين الجوابين ظاهر - فالله سبحانه وتعالى مرئي، ولكن موسى - عليه السلام - لا

تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى .

الرابع : وهو قوله : ﴿ وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾^(٥) .

فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار، فكيف بالبشر الذي خلق

من ضعف ؟

١- مفاتيح الغيب ٣/ ٨٥-٨٦ .

٢- الأعراف : ١٤٣ .

٣- الأنعام : ١٠٣ .

٤- هود : ٤٦ .

٥- الأعراف : ١٤٣ .

الخامس : أن الله سبحانه قادر على أن يجعل الجبل مستقراً، وذلك ممكن، وقد علق به الرؤية .

السادس : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ^(١) ﴾ فإذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه في دار كرامته؟ ولكن الله أعلم موسى -عليه السلام- أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضعف .

السابع : أن الله كلم موسى وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم فرؤيته أولى بالجواز ^(٢) .

وأما الآية الثانية : فالاستدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف، وهو أن الله تعالى إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به، وإنما يمدح الرب تعالى بالنفي إذا تضمن أمراً وجودياً، كمدحه بنفي السنة والنوم، المتضمن كمال القيومية، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة .

فالمعنى : أنه لا يرى ولا يحاط به فقوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ^(٣) ﴾ يدل على كمال عظمته وأنه أكبر من كل شيء وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به فإن (الإدراك) هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَائِلًا أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ قَالًا ^(٤) ﴾ فلم ينف موسى الرؤية وإنما نفى الإدراك فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه فالرب تعالى يرى ولا يدرك ^(٥) .

أدلة ثبوت الرؤية في الكتاب والسنة وإجماع الصحابة :

وأما الآيات والأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه الدالة على الرؤية فثابتة في الكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم .

-
- ١- الأعراف : ١٤٣ .
 - ٢- شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩١-١٩٢ .
 - ٣- الأنعام : ١٠٣ .
 - ٤- الشعراء : ٦١ .
 - ٥- شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٢-١٩٣ .

فمن أدلة الكتاب قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾^(١) قال الإمام الجويني: (والنظر إذا عُدِّيَ بـ (إلى) اقتضى رؤية البصر)^(٢).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾^(٣)، قال الباقلاني^(٤) في تعليقه على الآية: (تخصيصاً منه برؤيته للمؤمنين والتفرقة فيما بينهم وبين الكافرين)^(٥).

وقوله تعالى على لسان موسى - عليه السلام - ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾^(٦).

قالوا: لو أن النظر إلى الله سبحانه وتعالى ممنوع ومستحيل لما طلبه موسى - عليه السلام - وكيف يطلب شيئاً يعلم أنه مستحيل، وهو في كمال عقله وصمته فدل طلبه على جواز الرؤية^(٧).

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾^(٨) فقالوا: الحسنى هي الجنة والزيادة رؤية الله سبحانه^(٩) وقالوا عن قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾^(١٠) أن المزيد هو النظر إلى وجه الله سبحانه^(١١).

١- القيامة: ٢٣.

٢- لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة ص ١٠٢ تأليف: عبد المالك الجويني تقديم وتحقيق د. فوقية حسين محمود الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ، الناشر: الدار العربية للتأليف والترجمة.

٣- المطرفين: ١٥.

٤- هو محمد بن الطيب بن محمد، أبو بكر القاضي المعروف بابن الباقلاني ولد ببغداد سنة ٣٣٨ هـ وسكن بها وكان من أفصح الناس وأذكاهم سمع الحديث وله تصانيف كثيرة منتشرة في الرد على المخالفين من الرافضة والمعتزلة والجهمية والخوارج وغيرهم، منها إعجاز القرآن، أسرار الباطنية وغيرها كثير توفي رحمه الله سنة ٤٠٣ هـ، (انظر تاريخ بغداد للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، الناشر: المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ٣٧٦-٣٨٣، وانظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٣/ ١٧٧-١٧٨).

٥- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ص ٣٧ للقاضي أبي بكر الباقلاني تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ الناشر: عالم الكتب بيروت.

٦- الأعراف: ١٤٣.

٧- انظر لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة ص ١٠٢-١٠٥.

٨- يونس: ٢٦.

٩- انظر الأنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ص ٢٥٤.

١٠- ق: ٣٥.

١١- انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٢٩.

وأما ما ورد في السنة من أحاديث الرؤية فكثيرة نذكر بعضها:

ما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-: «أن أناساً في زمن رسول الله ﷺ قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال رسول الله ﷺ «هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحب؟ قالوا: لا يارسول الله قال: ما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما^(١)».

وحديث جرير بن عبدالله البجلي^(٢) -رضي الله عنه- قال: «كنا جلوساً مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة، فقال: إنكم سترون ربكم عياناً، كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته^(٣)».

واستدلوا كذلك بقوله ﷺ في الدعاء: «أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة^(٤)»... قال الباقلاني: (وهذا... تصريح من الرسول عليه الصلاة والسلام في جواز الرؤية وأنها غير مستحيلة لأنه لا يُسأل في أمر مستحيل)^(٥).

- ١- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ ١٨٤-١٨١/٨ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية ١٦٧/١-١٧١ رقم ١٨٣.
- ٢- هو جرير بن عبدالله بن جابر بن مالك بن نصر بن ثعلبة بن جشم بن عوف، أبو عمرو وقيل: أبو عبدالله البجلي القسري من أعيان الصحابة بايع النبي ﷺ على النصح لكل مسلم، سكن الكوفة، ثم سكن قرقيسياء وقدم رسولاً من علي إلى معاوية رضي الله تعالى عنهم جميعاً.
- توفي سنة إحدى وخمسين وقيل سنة أربع وخمسين، (انظر سير أعلام النبلاء ٢/٥٣٠-٥٣٧).
- ٣- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب مواقيت الصلاة باب فضل صلاة العصر ١٣٨/١ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما ٤٣٩/١ رقم ٦٣٣.
- ٤- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب مواقيت الصلاة باب فضل صلاة العصر ١٣٨/١ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما ٤٣٩/١ رقم ٦٣٣.
- ٥- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ص ٢٤٧.

واستدل أهل السنة والجماعة بأدلة عقلية في إثبات رؤية الله منها:

أنه تعالى موجود والموجود لا يستحيل رؤيته وإنما يستحيل رؤية المعدوم^(١).

وقالوا أيضاً: إن الله يرى جميع المراتب وقد قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾^(٢) وكل راء يجوز أن يُرى ولا يجوز أن تحمل الرؤية منه تعالى على العلم لأنه تعالى فصل بين الأمرين^(٣).

فالرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنا ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾^(٤). وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بأرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم الله عز وجل ولرسوله ورد علم ما اشبهه عليه إلى عالمه^(٥).

وقد اتفقت الأمة على أن الله سبحانه وتعالى لا يرى في الدنيا ولم يتنازعا في ذلك

١- لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة ص ١٠١.

٢- العلق : ١٤ .

٣- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ص ٢٤٨.

٤- القيامة : ٢٢-٢٣ .

٥- شرح العقيدة الطحاوية ص ١٨٨ .

إلا في حق نبينا ﷺ خاصة، فمنهم من نفى رؤيته بالعين، ومنهم من أثبتها له ﷺ .

وحكى القاضي عياض^(١) اختلاف الصحابة وَمَنْ بعدهم في رؤيته ﷺ، وإنكار عائشة رضي الله عنها أن يكون ﷺ رأى ربه بعين رأسه، وأنها قالت لمسروق حين سألها: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قَفَّ شعري مما قلت، ثم قالت: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب^(٢) وقال جماعة بقول عائشة -رضي الله عنها-، وهو المشهور عن ابن مسعود وأبي هريرة -رضي الله عنهما- واختلف عنه، وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين.

ثم قال: وأما وجوبه لنبينا ﷺ والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطع ولا نص، والمعول فيه على آيتي النجم، والتنازع فيهما ماثور، والاحتمال لهما ممكن، وهذا القول الذي قاله القاضي عياض -رحمه الله- هو الحق^(٣).

ولم يرد عن النبي ﷺ نص بأنه رأى ربه بعين رأسه، بل ورد ما يدل على نفي الرؤية وهو ما رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه» وفي رواية: «رأيت نوراً»^(٤) وهذا النص صريح في نفي الرؤية في الدنيا. والله أعلم.

١- هو الإمام العلامة الحافظ أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي، ثم السبتي المالكي ولد في سنة ست وسبعين وأربع مئة رحل إلى الأندلس سنة بضع وخمسين ومائة واستبحر من العلوم فجمع وألف له تصانيف كثيرة منها: الشفا في شرق المصطفى، ترتيب المدارك وتقريب المسالك في ذكر فقهاء مذهب مالك وغيرها كثير، توفي يرحمه الله سنة خمس مئة ودفن بمراكش (انظر وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ٤٨٣-٤٨٥ ترجمة رقم ٥١١، وانظر سير أعلام النبلاء ٢٠/٢١٢-٢١٧).

٢- سبق تخريجه ص ٣٩ .

٣- شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٦-١٩٧ .

٤- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: نور أنى أراه، ١/١٦١ رقم (١٧٨)، وفي رواية أخرى عند مسلم رقم ١٧٨-٢٦٢ «رأيت نوراً» ومعناه رأيت النور حسب ولم أر غيره.

وللمفسرين في الصاعقة قولان :

الأول : أنها هي الموت، وهو قول قتادة واحتجوا عليه بقوله تعالى : ﴿ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾^(١) وهذا ضعيف لوجه .

أ- قوله : ﴿ فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾^(٢) ولو كانت الصاعقة هي الموت لامتنع كونهم ناظرين إلى الصاعقة، إلا أن يكون المراد نظر الأسباب المؤثرة للموت .

ب- أنه تعالى قال في حق موسى : ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾^(٣) أثبت الصاعقة في حقه مع أنه لم يكن ميتاً لأنه قال : فلما أفاق والإفاقة لا تكون من الموت بل عن الغشي .

ج- أن ورودها وهم يشاهدونها أعظم في باب العقوبة منها إذا وردت بغتة وهم لا يعلمون .

الثاني : أن الصاعقة هي سبب الموت ولذلك قال في سورة الأعراف ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾^(٤) واختلفوا في ذلك السبب على ثلاثة أوجه :

أولها : أنها نار وقعت من السماء فأحرقتهم .

ثانيها : أنها صيحة جاءت من السماء .

ثالثها : قيل أرسل الله جنوداً سمعوا بحسها فخرؤا صَعِقِينَ ميتين يوماً وليلة^(٥) . ثم يمتنُّ الله - عز وجل - على بني إسرائيل بأن أحياهم بعد ما أماتهم ليشكروه على نعمة البعث بعد الموت كما جاء في قوله : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(٦) ، وأصل البعث : إثارة الشيء وتوجيهه^(٧) .

١- الزمر : ٦٨ .

٢- البقرة : ٥٥ .

٣- الأعراف : ١٤٣ .

٤- الأعراف : ١٥٥ .

٥- انظر مفاتيح الغيب ٣ / ٨٦ .

٦- البقرة : ٥٦ .

٧- المفردات في غريب القرآن ص ٥٢ .

قال قتادة: (أحياهم ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، ولو ماتوا بآجالهم لم يُبعثوا إلى يوم القيامة)^(١).

وإنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لأنهم طلبوا ما لم يأذن الله به من رؤيته في الدنيا. وحتى يومنا هذا ورثت فئة من الناس -الملاحدة- هذا القول، ولم يؤمنوا بالله ووجوده بسبب عدم رؤيتهم له، فهم لا يؤمنون إلا بما تراه أعينهم. ثم إن كثيراً من هؤلاء زاد على هذا الطلب حيث طلبوا الرؤية من أجل أن يؤذوا الله في زعمهم، فسبقوا بني إسرائيل الذين طلبوا الرؤية وعلقوا الإيمان عليها، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

١- معالم التنزيل ١/٩٧.

المبحث الثاني: الحوار في دعوة موسى عليه السلام لإثبات ما يتعلق بالأحكام والأخلاق

أولاً: الحوار في دعوة موسى عليه السلام لإثبات ما يتعلق بالأحكام:

تمهيد:

إنّ الأحكام الشرعية التي أنزلت من عند الله معيناً صافياً عذباً لا ينضب ولا يتكدر من كثرة الذين ينهلون منه، فهي من عند الله الذي أتقن كل شيء، والفرق بينها وبين أحكام البشر، كالفرق بين صنع الله وصنع البشر، فقد يصنع البشر من الطين تماثيل جامدة، ولكنهم لن ينفخوا فيها الروح، وسيبقى الفارق بين الإنسان الذي صنعه الله من قبضة من طين، فإذا هو هذا المخلوق العاقل الحي السميع المبصر، وبين التمثال الذي يصنعه الإنسان، أنّ التمثال لا يمثل بأي حال من الأحوال إلا صورةً ليس لها حقيقة الإنسان.

وما أنزل الله من تشريع إنما هو روح ونور وحياء ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (١) وما يصنعه البشر من أحكام ليس إلا نصوص جامدة لا روح فيها، تلفها ظلمات بعضها فوق بعض.

أليس من العجيب أن بعض الناس لا يبصرون ضوء الشمس؟ والشمس ساطعة ظاهرة ليس دونها غمام، إن العيب في العيون التي يغشيها النهار بضوئه، لا في الشمس التي ترسل النور والضياء فتغمر الكون بأشعتها.

وكذلك الأحكام الشرعية إنما هي شمس، وأولو الألباب لا يخفى عليهم نورها إنما يعمي ضوءها خفافيش البشر.

فالذي يمعن النظر في الأحكام المنزلة من عند الله من قبل أن تمتد إليها يد التحريف والتبديل لن يجد فيها عيباً ولا قصوراً وإذا رام أفذاذ الرجال أن يجدوا فيها شيئاً من ذلك فإن البصر ينقلب خاسئاً وهو حسير. قال تعالى:

١- الشورى: ٥٢.

﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾^(١)

وشريعة التوراة وما حوت من أحكام خصت بمزيد ذكر في كثير من آيات القرآن الكريم التي بينت صورتها السليمة وما اشتملت عليه في الأصل إجمالاً كقوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾^(٢).

فالتوراة نزلت جملة واحدة على موسى -عليه السلام- وفيها موعظة وتفصيل لكل شيء ومن ذلك ما يجب اعتقاده لله من الألوهية والربوبية وتنزيهه عن جميع العيوب والنقائص، وتنزيه رسله كذلك مما لا يليق بمقامهم وما يقرب من الجنة ويباعد من النار، لأنها هدى في وقتها من الضلال والكفر كما أخبر سبحانه عنها في غير موضع كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوْنَ النَّاسَ وَالْأَخْشَاءُ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾^(٣).

فقد دلت هذه الآية على أن التوراة شريعة لجميع بني إسرائيل ورسولهم، حتى مجيء الإسلام ونزول القرآن، فهي هدى ونور لمن اتبعها في وقتها، والإنجيل إنما هو ناسخ لبعض أحكامها، ولهذا علمها الله لعيسى -عليه السلام- ليعمل بها إلى جانب الإنجيل. كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَفِينَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعَيْسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ وَلِيَحْكُمُ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(٤).

قال شيخ الإسلام بن تيمية -رحمه الله-: (وموسى صاحب الكتاب والكلام والشريعة الذي لم ينزل من السماء كتاب أهدى منه ومن القرآن ولهذا قرن بينهما في مواضع كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾^(٥))^(٦).

١- سورة الملك : ٣ .

٢- الأعراف : ١٤٥ .

٣- المائدة : ٤٤ .

٤- المائدة : ٤٦-٤٧ .

٥- الأحقاف : ٣٠ .

٦- مجموع الفتاوى ١٦ / ٢٠٢ .

لذا . . فقد تناولتُ ما ظهر لي بالبحث والكتابة من هذه الأحكام فكانت نصوص الكتاب والسنة وفقه الأئمة لهذه النصوص، المرشد والموجه لي في إبراز أحكام الشريعة التي ظهرت في حوار موسى -عليه السلام- مع قومه. ولقد رأيت أن أقدم لهذا البحث بمقدمة يسيرة أعرف فيها بالأحكام لنعطي فكرة واضحة عن الأحكام الشرعية والأحكام الوضعية.

تعريف الحكم في اللغة والاصطلاح:

يقال حكم فلانٌ في الشيء: جعله حكماً وفي التنزيل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾^(١). واحتكم الخصمان إلى الحاكم: رفعاً خصومتهم إليه، والحكم: القضاء وقد حكم بالأمر حكماً: قضى. والمحكمة: المختصة إلى الحاكم^(٢). وحاكمتنا فلاناً إلى الله: أي دعونا إلى حكم الله^(٣). يقال: حكم له، وحكم عليه، وحكم بينهم والمصدر حكمٌ يحكُمُ. وأحكمت الشيء فاستحكمت: أي توثق وصار محكماً ومنه قوله تعالى: ﴿كُنَّا أَحْكَمَتِ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾^(٤) جاء في التفسير: ﴿أَحْكَمَتِ آيَاتُهُ﴾ بالأمر والنهي والحلال والحرام ثم فصلت بالوعد والوعيد.

والحكم الشرعي في الاصطلاح: هو خطاب الشارع المفيد فائدة شرعية^(٥).

وعرفه الجرجاني في كتابه فقال: (عبارة عن حكم الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين^(٦)).

وقد جاء القرآن الكريم بثلاثة أنواع من الأحكام:

١- الأحكام الاعتقادية:

وهي التي تتعلق بما يجب على المكلف اعتقاده في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره^(٧).

٢- الأحكام العملية وهي التي تتصل بما يصدر عن المكلف من قول أو فعل أو أي

تصرف من التصرفات.

١- النساء: ٦٥.

٢- مختار الصحاح ص ٤٤١ باب الميم فصل الحاء.

٣- لسان العرب ٣٢/١٥ فصل الحاء حرف الميم.

٤- هود: ١.

٥- الإحكام في أصول الأحكام ١/٩٠ تأليف سيف الدين أبي الحسن علي بن أبي علي بن محمد الأمدي، الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ١٣٨٧هـ.

٦- التعريفات ص ١٢٣.

٧- سبق الحديث عن هذا النوع من الأحكام في المبحث الأول من الفصل الثاني ص ١٧٧ - ٢١٩.

وهذا التنوع بين الأحكام إما أحكام تتعلق بالعبادات، وهي التي تنظم علاقة الانسان بربه كالأحكام المتعلقة بالصلاة والزكاة والصوم والحج والنذر ونحو ذلك .

وإما أحكام تتعلق بالمعاملات وهي التي تنظم علاقة المكلف مع المكلف مثله وعلاقة المكلف وتصرفاته وجنایاته وعقوباته وموقفه بالنسبة للمجتمع الذي يعيش فيه^(١).

٣- الأحكام الخلقية :

وهي التي تتصل بالفضائل التي يجب على المكلف أن يستظل برايتها وينطوي تحت أعلامها، وبالرذائل التي لابد للمكلف أن يبتعد ويقلع عنها. وسيأتي الحديث عنها مفصلاً بعد الحوار في دعوة موسى -عليه السلام- لإثبات ما يتعلق بالأحكام^(٢).

إذاً فالأحكام الشرعية عند الإطلاق لا يراد بها إلا ما شرع الله وحده وسنّه لعباده على السنة أنبيائه عليهم السلام: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^(٣) فلا تطلق الأحكام الشرعية على المبادئ الهدامة والمذاهب المخالفة لشرع الله. هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فإن الأحكام الشرعية تشمل كل ما شرع الله لعباده وسنّ لهم من الأمر والنهي والحلال والحرام، والفرائض، والحدود، والعقائد والمعاملات، والأخلاق وغيرها من جوانب الحياة المتعددة، وليست مقصورة على علم من العلوم أو عمل من الأعمال بل هي تنظيم لجميع مصالح الدين والدنيا، فما وافقها فهو حق مقبول، وما خالفها فهو مردود .

والتأمل للشرعية التي جاء بها موسى -عليه السلام- يجد أنها حوت العديد من الأحكام والشرائع التي يصلح بها أمر الدين والدنيا .

ونظراً لأهميتها رأيت أن أخصص لها مبحثاً مستقلاً حاولت فيه الإمام بالأحكام التي جاء بها موسى -عليه السلام- في التوراة مع عدم الإطالة نظراً لظروف البحث :

١- انظر أصول الأحكام الشرعية ومبادئ علم الأنظمة ص ٣٩-٤٤ تأليف د. عبد العزيز المعلي النعيم الطبعة الأولى الناشر دار الاتحاد العربي للطباعة .

٢- انظر المبحث الثاني من هذا الفصل ص ٢٩٢ - ٣٣٤ .

٣- الشورى آية ١٣ .

المطلب الأول: أحكام تتعلق بالعبادات

أولاً: أمهات الأحكام في العبادات:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ^(١) ﴾

في هذه الآية تذكير بأمهات الأحكام في العبادات التي هي من أصول العقيدة والإيمان، وفي المعاملات السياسية والاجتماعية مما هي من ضروريات الحياة، كما فيها بيان ما عليه اليهود من غلظة القلوب وقسوتها، وكثرة المراء والمشغبة، فلذا جاء الله بها على سبيل الإطناب لما شحنت به أذهانهم مما يسمى علماً خالياً من الإيمان الصحيح والتقوى، وكل علم خال من ذلك يحجب قلوب أهله عن دخول شعاع الحق، والركون إلى ذكر الله، فيحصل من أهلها التعنت على الدعاة، والضلال عن طرق الخير والهداية، كالعلم المادي الذي يتلقاه أكثر الناس في هذا الزمان، مما هو من تخطيط اليهود، فالعلم الذي لا يكون مشبعاً بروح التوحيد والإيمان يكون ضرره أكثر من نفعه - إن لم يكن كله ضرراً - ولذا قال تعالى عنهم: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ^(٢) ﴾ .

وأول هذه الأحكام التي حوتها هذه الآية والتي أخذ الله فيها العهد والميثاق على بني إسرائيل هو الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ^(٣) ﴾ والنهي عن عبادة غير الله مستلزم للأمر بعبادته، لأن الأصل الأول لدين الله على السنة جميع الأنبياء والمرسلين أن تحصر جميع أنواع العبادة لله ﴿ وَنَقَدُ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ^(٤) ﴾ فلا يُشرك معه غيره، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل.

ومن مهمات العبادة الوقوف عند حدود الله فيما أباحه أو حرمه أو أوجب الاحتكام إليه، فمن حرم شيئاً مما أباح الله، أو أباح شيئاً مما حرم الله، أو حكم بغير ما أنزل الله، معتقداً

١- البقرة : ٨٣ .

٢- البقرة : ٢١٣ .

٣- البقرة : ٨٣ .

٤- النحل : ٣٦ .

أنه أفضل من حكم الله، فهو مشرك مهما عمل من الأعمال، فوصية الله الأولى في خلقه أجمعين أن لا يعبدوا إلا الله، ولا يشركوا به شيئاً، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل^(١): «أتدري ما حق الله على العباد؟» قال الله ورسوله أعلم قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»، ثم قال «أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم^(٢)».

ثم يأتي بعد ذلك الأمر بتوثيق الصلة بين وشائج الإنسانية، والتي منها بر الوالدين، والإحسان إلى الأقارب، والعطف والحنان على اليتامى والمساكين، فابتدأ الله بالأهم منها فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(٣): وذلك باحترامهما وتوقيرهما، والعطف عليهما، وطاعة أمرهما فيما لا يخالف أوامر الله، وعدم الشح عليهما، لأنهما قد بذلا له غاية الرعاية والشفقة، وقاما بشؤونهن، وتألماً لآلامهن، سهراً لسهرهن، وفضلاً شهوته على شهوتهما، وراحته على راحتتهما، وخصوصاً الأم، فإنها تمتاز بمزيد من البر والإحسان، لزيادة شفقتها وعظيم مشقتها.

وفي الصحيح عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنه قال: قلت يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال «الصلاة على وقتها قلت ثم أي؟ قال: بر الوالدين قلت ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله^(٤)» ولهذا جاء في الحديث الصحيح أيضاً أن رجلاً قال يا رسول الله من أبر؟ قال: «أملك» قال ثم من؟ قال: «أملك» قال ثم من؟ قال: «أباك ثم أدناك فأدناك^(٥)» وقوله ﴿وَدَوِّي الْقُرْبَى﴾^(٦) القربى: هم القرابة من جهة الآباء والأمهات، لأن الإحسان إليهم يقوي الروابط فتتأصل الوشائج، فبالتعاطف والإحسان للأقربين يبلغ الاتحاد والتكاتف

١- هو أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري الخزرجي المدني البصري، شهد العقبة وما بعدها، عدّه النبي ﷺ كما في البخاري من الأربعة الذين يؤخذ القرآن عنهم، وقال عنه كذلك كما في حديث الترمذي وأحمد إنه أعلم الأمة بالحلال والحرام. توفي رحمه الله بطاعون عمواس بناحية الأردن من الشام سنة ثمان عشرة وقيل عمره ثلاث وثلاثون سنة (انظر صفة الصفوة ١/٢٥٣-٢٥٩ وانظر سير أعلام النبلاء ١/٤٤٣-٤٦١).

٢- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الجهاد باب اسم الفرس والحمار ٣/٢١٦ وأخرجه في كتاب التوحيد باب ماجاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله ٨/١٦٤ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ١/٥٨ رقم (٣٠).

٣- البقرة: ٨٣.

٤- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الجهاد باب فضل الجهاد والسير ٣/٢٠٠ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب بيان كون الإيمان بالله أفضل الأعمال ١/٨٩ رقم ٨٥.

٥- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الأدب باب من أحق الناس عن الصحبة ٧/٦٩ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة باب بر الوالدين ٤٠/١٩٧٤ رقم (٢٥٤٨).

٦- البقرة: ٨٣.

والتساند أعلى درجات الكمال، والأمة تتألف من أسر وعائلات، ومن ليس له بيت صالح ليس له أمة، وصلاح البيوت بالعطف والحنان والبذل والإحسان، وجميع بيوت القرابة تكون بيتاً واحداً، وبحصول ذلك يحصل التراحم والتعاون بين سائر الأقارب فتقوى الروابط وتشتد الأواصر حتى يكون أبعد الأقارب نسباً مثل أقربهما.

فهذه الأوامر الشرعية هي من الضروريات الفطرية لبني الإنسان، ومن فسدت فطرته فقسا على أقاربه وأعرض عنهم وابتعد بخيره منهم، فإنه لا يرجى فيه خير للأمة، ويكون محروماً من نصره عصبته وأقاربه، وإذا خذله القريب فالبعيد أولى بالازدراء والحرمان.

وقوله: ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾^(١) اليتيم: انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه أما لدى سائر الحيوانات فاليتيم من فقد أمه^(٢). وقد قُدِّمَ حق اليتيم على المسكين في جميع الوصايا دون تقييد بفقر، أو مسكنه لأن الوصية مقصودة لذاتها، لكون اليتيم قد فقد حنان والده ونصرته وعزّه، ففي قلبه حسرة وانكسار ينبغي على كل أفراد المجتمع اجتثائه بإسباغ العطف والإحسان والمواساة، والقيام بحفظ حقوقه، حتى لا يشعر بقهر ولا ذلة. وهذا من جملة الدلائل على عظم صلاحية دين الله للناس، وموافقته لفطرتهم، وقوامته على إنسانيتهم.

أما المساكين: فهم جمع مسكين، وهو من أسكنته الحاجة وذلته^(٣)، وهو أشد فقراً من الفقير عند أكثر أهل اللغة^(٤) وهو الذي عجز عن تحصيل ما يكفيه، فينبغي الإحسان إليهم ورفع مستواهم ولا ينطبق هذا المسمى على محترفي السؤال الذين يجمعون أضعاف كفايتهم، وإنما المساكين هم الذين لا يسألون الناس إلحافاً.

وقوله سبحانه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(٥) فهذه وصية عامة بعد الوصايا الخاصة بما يصلح البيوت من الإحسان إلى الوالدين والأقارب، وما يصلح بعض العامة من معونة اليتامى ورفد المساكين، أوصى بهذه الوصية العامة لسائر الناس، فكأنه يقول: يا بني إسرائيل عاملوا

١- البقرة: ٨٣.

٢- انظر نزهة القلوب في تفسير القرآن العزيز ص ٤٨٧ وانظر المفردات في غريب القرآن ص ٥٥٠.

٣- انظر نزهة القلوب في تفسير القرآن العزيز ص ٤٣٩.

٤- انظر المفردات في غريب القرآن ص ٢٣٧.

٥- البقرة: ٨٣.

الناس بمثل ما تحبون أن يعاملوكم به، انصحوا لهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحسن التوجيه والقيام بالإصلاح، فليس معنى ﴿قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(١) مجرد اللطف بالقول والمجاملة، وإنما هو ما يريد الله من النصيحة بكامل أنواعها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^(٢): أمر الله أولاً بعبادته مجملاً ليعلم كل فرد منهم ومن غيرهم أنه مكلف بنوع من أنواع العبادة، فيقيم وجهه فيه لله وحده لا شريك له، وحيث إن بعض العبادات لا يهتدي إليها إلا بهداية الله، وأعظم ذلك الصلاة، اختصها بالذكر قائلاً: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^(٣) وإقامتها بصدق التوجه إليه والخشوع التام لعظمته وجلالته والاستكانة لسلطانه. وقد كانت بنو إسرائيل لا تصلي إلا بخلع نعالها اقتداءً بفعل موسى عليه السلام حينما أمره الله بخلع نعليه عند مناجاته بالواد المقدس قال تعالى:

﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾^(٥) قال ابن تيمية -رحمه الله-: (.. وهذا مع أن نزع اليهود نعالهم مأخوذ عن موسى -عليه السلام- لما قيل له: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾^(٦) (٧).

وقد ذكر المفسرون أقوالاً في سبب أمر الله لموسى بخلع نعليه فقيل: لأنها نجسة إذ هي من جلد غير مذكى.

وقيل: أمر بخلع النعلين للخشوع والتواضع عند مناجاة الله تعالى.

قال القرطبي -رحمه الله- في تفسيره: (وكذلك فعل السلف حين طافوا بالبيت.

وقيل: يحتمل أن يكون موسى -عليه السلام- أمر بخلع نعليه، وكان ذلك أول فرض عليه كما كان أول ما قيل لمحمد ﷺ: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجُزَ فَاهْجُرْ﴾^(٨) (٩).

١، ٢، ٣- البقرة: ٨٣.

٤- طوى اسم أعجمي للوادي المذكور في ال: وهو موضع بالشام عند الطور. قال الجوهري: وذو طوى، بالضم أيضاً موضع عند مكة (انظر معجم البلدان ص ٤٤-٤٥).

٥- طه: ١٢.

٦- طه: ١٢.

٧- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ١/ ١٨١.

٨- المدثر: ٢-٥.

٩- الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٧٣.

وقد جاء عن النبي ﷺ فيما رواه أبو سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال: «ما حملكم على إلقاء نعالكم؟ قالوا رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن جبريل -عليه السلام- أتاني فأخبرني أن فيهما قدراً^(١)».

وما رواه شداد بن أوس^(٢) -رضي الله عنه- أنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم^(٣)».

وذلك محمول على الندب لا على الوجوب لما رواه عمرو بن شعيب^(٤) عن أبيه عن جده قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي حافياً ومنتعلاً^(٥)» وقال بعضهم على الجواز والله أعلم.

١- أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٩٢/٣ وأخرجه أبو داود كتاب الصلاة باب الصلاة في النعل ١/١٧٥ رقم ٦٥٠، وأخرجه الدارمي في كتاب الصلاة باب الصلاة في النعلين ١/٢٦٠ رقم ١٣٨٥. قال عبد الله هاشم المدني محقق سنن الدارمي إن سنده جيد وعزاه إلى ابن حبان في صحيحه والبيهقي في سننه أيضاً.

٢- هو شداد بن أوس بن ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي أبو يعلى ويقال: أبو عبد الرحمن الأنصاري البخاري الخزرجي من فضلاء الصحابة وعلمائهم وقد روى شداد عن النبي ﷺ وكان رضي الله عنه ذا بيان إذا نطق ويكظم الغيظ إذا غضب وتوفي رضي الله عنه بفلسطين سنة ٥٥٨ هـ وعمره ٧٥ سنة (انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ٢/٦١٣-٦١٤ ترجمة رقم (٢٣٩٣) وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ٣/٢٥٨-٢٥٩، وانظر سير أعلام النبلاء ٢/٤٦٠-٤٦٤).

٣- أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب الصلاة في النعل - ١/١٧٦ رقم (٦٥٢). ورواه الحاكم في المستدرک وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه المستدرک للحاكم (١/٢٦٠).

٤- هو عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي أبو إبراهيم وقيل أبو عبد الله القرشي أحد علماء زمانه روى عن بعض الصحابة والتابعين. وقال الأوزاعي ما رأيت قرشياً أكمل من عمرو بن شعيب توفي بالطائف سنة ١١٨ هـ (انظر تهذيب التهذيب ٣/٢٨١٢٧٧، وانظر ميزان الاعتدال في نقد الرجال لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ٣/٢٦٣ رقم ٦٣٨٣. تحقيق على البجاوي الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى الباني الحلبي وشركاه).

٥- أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢/١٧٤-١٧٨، ١٧٩، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الإقامة باب الصلاة في النعال ١/٣٣٠ رقم ١٠٣٨ وأخرجه أبو داود في كتاب الصلاة في النعل ١/١٧٦ رقم ٦٥٣، قال الألباني: حسن صحيح انظر صحيح سنن ابن ماجه ١/١٧٠.

وكما أن بني إسرائيل كانت لا تصلى إلا بنعالها فقد أبيع لهم أيضاً الكلام والالتفات في الصلاة كما جاء في قصة جريج^(١) العابد . حيث روى عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه قال : قال النبي ﷺ : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى ، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلى فجاءته أمه فدعته ، فقال : أجبها أو أصلي ؟ فقالت : اللهم لا تمته حتى تريبه وجوه المومسات^(٢) ، وكان جريج في صومعته ، فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى ، فأنت راعياً فأمكنته من نفسها ، فولدت غلاماً فقالت : من جريج فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه فتوضأ وصلى ، ثم أتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام قال : الراعي ، قالوا : بني صومعتك من ذهب ؟ قال : لا ، إلا من طين^(٣) .» .

فاستدل به على أن الكلام في صلاتهم لا يقطعها ، وكذلك الالتفات ، لأن أم جريج نادته ليتلفت إليها ويكلمها على عادته ولو لم يكن الكلام والالتفات بالبدن جائزاً في شرعهم لما ألحقت ابنها الملام . ودعت عليه ، ولا سيما وقد استجاب الله دعاءها عليه كما بينته بعض ألفاظ الحديث فإن في بعضها : أنهم مروا به من بين المومسات فصار ينظر إليهن ويضحك . ولما سئل عما يضحك ؟ قال : دعوة أمي عليّ .

قال الحافظ بن حجر^(٤) : (سبب دعاء أم جريج على ولدها أن الكلام في الصلاة كان في شرعهم مباحاً ، لما أثر استمراره في صلاته ومناجاته على إيجابتها دعت عليه لتأخيره حقها^(٥)) .

١- جريج عابد في بني إسرائيل جاء بعد عيسى - عليه السلام - فهو من أتباعه لأنهم هم الذين ابتدعوا الترهيب وحبس النفس في الصومع . (انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦ / ٤٨٠ كتاب أحاديث الأنبياء باب قوله تعالى ﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها ﴾ مريم آية ١٦) .

٢- المومسات : جمع مومسة وهن الفاجرات (انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ص ٣٧٣) ..

٣- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء باب قوله : ﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها ﴾ . ٤ / ١٤٠ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب البر باب تقديم بر الوالدين على التطوع / ١٩٧٦ / ٤-١٩٧٨ رقم ٣٤٣٦ .

٤- هو أحمد بن علي بن محمد بن علي بن أحمد شهاب الدين أبو الفضل الكناني العسقلاني الشافعي ابن حجر لقب لبعض آبائه الحافظ الكبير الشهير المنفرد بمعرفة الحديث وعلمه في الأزمنة المتأخرة ولد في شعبان سنة ٧٧٣هـ بمصر ونشأ بها يتيماً فحفظ القرآن وهو ابن تسع وتلقى العلوم المختلفة وبرع فيها وخاصة الحديث وعلومه وقصر نفسه عليه له مؤلفات عظيمة نافعة منها فتح الباري ، الإصابة في تمييز الصحابة وغير ذلك توفي سنة ٨٥٢هـ (انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٧ / ٢٧٠-٢٧٣ وانظر الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٢ / ٣٦-٤٠ تأليف : شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي الناشر : منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - لبنان ، وانظر البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ١ / ٨٧-٩٢) .

٥- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦ / ٤٨١-٤٨٢ .

وفي الاستدلال بقصة جريج على إباحة الكلام والالتفات في الصلاة نظر لترديد جريج في مناجاته لربه وهو في صلاته بقوله: (أمي وصلاتي) كما جاء في بعض روايات الحديث أنه ردد ذلك ثلاث مرات، فلو كان الالتفات والكلام لغير مصلحة الصلاة جائزاً لأجاب أمر أمه واستمر في صلاته، إلا أن يقال: ليحافظ على كمالها ولا يقطع مناجاته لربه وخشوعه والله أعلم.

ولما كانت الزكاة قرينة الصلاة في الفرضية، وقرينتها في التأثير، من تليين القلب، ومراقبة الله بالدفع، وتطهير القلب وصيانة المال، قال الله لهم: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾^(١) لما فيها من إصلاح المجتمع، وبذر المودة فيما بينهم، وحسن التصرف في المال، وقد كان لهم ضروب في دفع الزكاة، منها ما يدفعونه لآل هارون الذين يسمونهم الآن بالأيوبيين، ومنها ما يدفعونه للمساكين، ومنها زكاة ثمرات الأرض، ومنها زكاة السبب في كل سنة سابعة يتصدقون بما يخرج منها، ولكنهم لما قصروا في إقامة الصلاة، فقسست قلوبهم عن تحقيق واجب الزكاة، استمر أكثرهم على التمرد، ونقض العهود، والتولي عن أمر الله فلهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾^(٢).

يعني ثم كان عاقبة أمركم بعد هذا الميثاق الذي فيه سعادتكم وصلاح مجتمعكم، وفوزكم برضوان الله الذي يعدكم، وينجز لكم وعده العاجل والآجل، كانت عاقبتكم التولي عن العمل بما أمر الله عن إعراض عنه وعدم اكتراث به.

وفي مقابل ما أمرهم الله به من أوامر ذات صبغة اجتماعية واقتصادية، فقد أخذ الله عز وجل عليهم العهد والميثاق في أمور حرمت عليهم ذات صبغة سياسية وهي التي وردت في سياق قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ

١- البقرة: ٤٣.

٢- البقرة: ٨٣.

مَنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفْتُؤْمِنُونَ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ^(١) ﴿﴾ .

فهذا الميثاق السياسي الذي واثقهم الله به وشهدوا عليه واعترفوا به يحتوي على أربعة

أمور:

١- ترك القتل .

٢- ترك الإخراج .

٣- ترك المظاهرة .

٤- فداء الأسرى .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهَدُونَ^(٢)﴾ ﴿﴾ .

قال السدي: (إن الله أخذ على بني إسرائيل في التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضاً، وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بني إسرائيل فاشتروا بما قام ثمناً فاعتقوه، فكانت قريظة حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقتتلون، فيقاتل بنو قريظة مع حلفائها، والنضير وحلفاؤها، وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها فيغلبونها، فيخربون بيوتهم، ويخرجونهم منها، فإذا أسر الرجل من الفريقين كليهما جمعوا له حتى يفتدوه، فتعيره العرب بذلك ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا: إنا أمرنا أن نفديهم وحرّم علينا قتالهم. قالوا: فلم تقاتلونهم؟ قالوا: إنا نستحي أن نستذل حلفاءنا، فذلك حين غيرهم الله عز وجل فقال:

١- البقرة: ٨٤-٨٥ .

٢- البقرة: ٨٤ .

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(١) ﴿٢﴾.

وفي هذا توجيه لبعض المسلمين في أن يغيروا موقفهم من القرآن فيعملوا به جميعاً في غاية التنفيذ والتطبيق، مخالفة لليهود الذين عملوا ببعض التوراة وتركوا بعضها الآخر، فإن عملهم هذا كفر عظيم يوجب الخزي في الحياة الدنيا والآخرة.

١- البقرة : ٨٥ .
٢- تفسير القرآن العظيم ١ / ١٢٢ .

ثانياً: نحايلهم في الأوامر الشرعية:

من الأخلاق السيئة التي وقع فيها بنو إسرائيل، نتيجة ضعف إرادتهم أمام الأهواء والأطماع والمنافع القريبة، خسة التحايل على الأوامر والنواهي الشرعية، وذلك ليصلوا إلى مطامعهم وشهواتهم ظناً منهم - لجهلهم وعدم فقههم - أنهم عن طريق التحايل على النصوص سيفلتون من المؤاخذة والعقوبة. وقصة أصحاب السبت^(١) كما جاءت في القرآن الكريم وهي صورة حية ناطقة تصور هذا الفسوق والجشع والتلاعب بالدين والتهالك على متاع الحياة الدنيا.

والحديث عن هذه الواقعة جاء مفصلاً في سورة الأعراف، وبصورة مجملة في سورة البقرة، وفي سورة النساء ورد تصريح بعقوبة اللعن التي حاقت ببني إسرائيل، بسبب تحايلهم على استحلال محارم الله تعالى، كما ورد نص صريح في نهى القوم عن الاعتداء يوم السبت، وفي سورة النحل إشارة إلى العقوبة التي حلت بهم بسبب تعديهم في ذلك اليوم من أيام الأسبوع.

وفيما يلي نصوص هذه الآيات: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَلَقْنَا لَهُمْ كُنُوزًا قَرَدَةً حَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ^(٢)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرًا مَّفْعُولًا^(٣)﴾.

١- السبت: هو أول أيام الأسبوع، تعظمه اليهود زاعمة أن الله استراح فيه بعد خلقه السماوات والأرض فكذبهم الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لَغْوٍ﴾ ق آية: ٣٨. والزمهم الله به عقوبة لهم. وتسمية السبت مأخوذة من القطع. يعني أن الأشياء سبتت وتمت خلقها وقيل هو مأخوذ من السبوت وهو الراحة والدعة، وأما لماذا كان يوم السبت بالتحديد؟ لأن هذا اليوم كان فيه تغليظ وتشديد على اليهود لرفضهم العمل وترك المعاش فيه، بسبب اختلافهم ﴿إِنَّمَا جَعَلَ السَّبْتِ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ النمل آية ١٢٤ (انظر المفردات في غريب القرآن ص ٢٢٠).

٢- البقرة: ٦٥-٦٦.

٣- النساء: ٤٧.

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ (١) سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٢) ﴾ .

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ (٣) الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذْرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤) ﴾ .

﴿ إِنَّمَا جَعَلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٥) ﴾ .

الظاهر من هذه الآيات الكريمة أن الله تعالى ابتلى بني إسرائيل بالحيتان، تكثر يوم السبت وتختفي في غيره، وقد نهاهم عن صيدها في ذلك اليوم، وأمرهم ألا يأكلوها ولا يعرضوا لها. ولكن قوماً منهم تجاوزوا حد الله تعالى وركبوا ما نهاهم عنه في يوم السبت وعصوا أمره تعالى، فغضب سبحانه عليهم ومسحهم قردة، وجعلهم عبرة لمن عاصرهم، ولن أتى بعدهم، وموعظة للمتقين.

١- الباب لم يذكر اسمه ولا جهته وقد قال بعض المفسرين كالسدي وابن عباس إنه المسمى (باب الخطه) والظاهر أن الباب المقصود في ال: هو مدخل المدينة، (انظر تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٧٤).

٢- النساء: ١٥٤.

٣- قال الراغب: القرية اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس، وللناس جميعاً ويستعمل في كل واحد منهما قال تعالى: ﴿ واسأل القرية ﴾ قال كثير من المفسرين معناه أهل القرية (المفردات في غريب القرآن ص ٤٠٢).

٤- الاعراف الآيات من ١٦٣-١٦٧.

٥- النحل: ١٢٤.

قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(١).

يقول تعالى لنبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ أي واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم، لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم^(٢).

واختلف في المراد بهذه القرية فقيل:

هي أيلة^(٣) على شاطئ بحر القلزم^(٤)، وهو قول ابن كثير وغيره من المفسرين وقيل: هي قرية طبرية^(٥)، وقيل: هي مدين، بين أيلة والطور، وقيل هي مقناة^(٦).

قال الإمام الطبري -رحمه الله-: (والصواب من القول في ذلك أن يقال: هي قرية حاضرة البحر، وجائز أن تكون أيلة، وجائز أن تكون مدين، وجائز أن تكون مقناة، لأن كل ذلك حاضرة البحر، ولا خبر عن رسول الله ﷺ يقطع العذر بأي ذلك، والاختلاف فيه على ما وصفت. ولا يُوصل إلى علم ما قد كان فمضى مما لم نعاينه إلا بخبر يوجب العلم ولا خبر كذلك في ذلك^(٧)).

وعلى أية حال فهذه القرية: ﴿كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾^(٨) أي بقرب البحر وعلى

١- الأعراف: ١٦٣.

٢- تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٥٨.

٣- أيلة: قال أبو زيد: مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير وهي مدينة لليهود الذين حرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فخالفوا أمره فمسخوا قرده وخنازير. وتقع أيلة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام. سميت بأيلة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام. (انظر معجم البلدان ١/ ٢٩٢).

٤- سمي بحر القلزم قلزما لالتهامه من ركبته، وهو المكان الذي غرق فيه فرعون وآله والقلزم بلدة على ساحل بحر اليمن قرب أيلة والطور ومدين (انظر معجم البلدان ٤/ ٣٨٧).

٥- طبرية: بلدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية وهي في طرف جبل وجبل الطور مطلٌ عليها. وهي من أعمال الأردن في طرف الغور.

قال أبو عبد الله بن البناء: طبرية قصبة الأردن موضوعة بين الجبل وبحيرة فهي ضيقة كربة في الصيف وخمة وبثة وهي كثيرة الأسماك لا تطيب لغير أهلها وماؤها عذب ليس بحلو. (انظر معجم البلدان ٤/ ١٧-١٨ وانظر آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢١٧-٢١٨).

٦- مقناة: قرب أيلة وكان أهلها يهوداً صالحهم النبي ﷺ على ربع ثمارهم (انظر معجم البلدان ٥/ ١٧٨).

٧- جامع البيان في تفسير القرآن ١٣/ ١٨٢.

٨- الأعراف: ١٦٣.

شاطئه وكان أهلها يتجاوزون أمر الله تعالى إلى ما حرّمه عليهم من صيد الحيتان يوم السبت، حيث كانت تأتيهم في ذلك اليوم شوارع ظاهرة على الماء من كل طريق وناحية أما في سائر الأيام غير يوم السبت فلا تأتيهم حيتانهم، وذلك ابتلاء من الله تعالى واختبار لهم في يومهم المعظم.

قال تعالى: ﴿... إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ^(١)﴾.

قال القرطبي - رحمه الله-: (روى في قصص هذه الآية أن إبليس أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت، فاتخذوا الحياض، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها، لقلّة الماء فيأخذونها يوم الأحد^(٢)).

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَبَلُّوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ^(٣)﴾ أي مثل هذا الابتلاء، وهو ظهور الحيتان على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيدها، واختفاؤها في أيام الحلّ، بمثل هذا نبتليهم، وذلك بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى.

وهذا يدل على أن من أطاع الله - عز وجل - خفف الله عنه أحوال الدنيا والآخرة: ومن عصاه ابتلاه بأنواع البلاء والحن. وبهذا جرت سنة الله تعالى، واقتضت حكمته وعدالته. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ^(٤)﴾ ثم بين الله سبحانه وتعالى فرق هذه القرية وحال كل فريق بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا

١- الأعراف : ١٦٣ .

٢- الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٣٠٦ .

٣- الأعراف : ١٦٣ .

٤- فصلت : ٤٦ .

اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١﴾

الظاهر من هذه الآية الكريمة أن أهل هذه القرية صاروا إلى ثلاث فرق:

فرقة عاصية محتالة .

وفرقة تقف في وجه المعصية والاحتيال وقفةً إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة، وفرقة تقف موقف الإنكار السلبي وتدع المنكر وأهله، ولا تدفعه بعمل إيجابي، بل لامت الفرقة الثانية على وعظهم للفرقة الأولى، وذلك ليأسهم من صلاح المتجاوزين لحدود الله تعالى بارتكاب المحظور يوم السبت . وهذه الفرقة الثالثة هي التي عناها الله تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ (٢).

والمعنى: قالت جماعة من جماعة القرية لجماعة أخرى كانت تعظ المخالفين لأمر الله تعالى، المتعددين حدوده بصيد الحيتان يوم سبتهم، قالت: لم تنصحون هؤلاء القوم؟ إنه لفائدة من وعظهم ولا جدوى من نهيهم عن المنكر، لأن الله قد قضى بهلاكهم، لمعصيتهم إياه واستحلالهم ما حرم عليهم، أو قضى بتعذيبهم عذاباً شديداً في الآخرة جزاءً بما كانوا يعملون . هنالك أجابهم الواعظون بقولهم: نصحنا إياهم وتذكيرنا لهم بالعواقب إنما هو معذرةٌ إلى الله تعالى، تؤدي فرضه علينا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا يدل على أن الأمر والنهي كان مفروضاً في شريعة موسى -عليه السلام- ولعلمهم بهذا الوعظ يمتثلون أوامر الله ويجتنبون نواهيه أو يخافون الله عز وجل، وينيبون إلى طاعته، ويتوبون مما هم فيه من المعصية وارتكاب المحظور.

١، ٢- الأعراف : ١٦٤ .

قال جمهور المفسرين :

(إن بني إسرائيل افتقرت ثلاث فرق : فرقة عصت وصادت، وكانت نحو سبعين ألفاً، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص، وفرقة اعتزلت ونهت ولم تعص . فقالت الطائفة التي لم تنه ولم تعص للفرقة الناهية : ﴿ لِمَ تَعْزُونَ قَوْمًا ﴾^(١) يريدون الفرقة العاصية ﴿ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ ﴾^(٢) قالوا ذلك على غلبة الظن لما جرت به سنة الله من إهلاك العصاة أو تعذيبهم من دون استئصال بالهلاك، فقالت الناهية : موعظتنا معذرة إلى الله ولعلمهم يتقون . ولو كانوا فرقتين فقط : ناهية غير عاصية، وعاصية، لقال : لعلكم تتقون^(٣) .

فلما لم يُجدِ النصحُ، ولم تنفع العظة، وأعرض العصاة المحتالون إعراضاً كلياً عما ذكرهم به صلحاً واهم بحيث لم يخطر ببالهم شيء من تلك المواعظ، واستمروا في غيهم، آنذاك؛ حل العذاب الشديد بالظالمين المعتدين، بسبب فسقهم وظلمهم وخروجهم من طاعة خالقهم، وأما الذين كانوا ينهون عن السوء فقد أنجاهم الله عز وجل، في حين أن الفرقة التي لامت الواعظين على وعظهم للمعتدين لم يرد ذكرها بعد ذلك، وكأنها أهملت وسكت عنها، تهويناً لشأنها لوقوفها موقف الإنكار السلبي .

وقد اختلف في مصيرها فقليل : إنها هلكت مع الفرقة العاصية، عقوبة لها على ترك النهي عن المنكر، فضلاً عن أنها لامت الناصحين لغيرهم .

ويرى كثيرٌ من المفسرين : أنها كانت من الناجين لأنها كانت منكراً للمنكر، مستقبحة لما فعله العصاة المحتالون في السبت، ولم ترتكب شيئاً مما ارتكبه . وإذا كانت قد ارعوت عن

١، ٢- الأعراف : ١٦٤ .
٣- الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٣٠٧ .

الوعظ للقوم المعتدين، فليأسها من صلاحهم، ومن فائدة النصح لأمثالهم^(١).

قال الرمخشري -رحمه الله-: (فإن قلت: الأمة الذين قالوا: ﴿لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾^(٢) من أي الفريقين هم؟ قلت: من فريق الناجين، لأنهم من فريق الناهين. وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه، حيث لم يروا فيه غرضاً صحيحاً لعلمهم بحال القوم، وإذا علم الناهي حال المنهي، وأن النهي لا يؤثر فيه، سقط عنه النهي، وربما وجب الترك، لدخوله في باب العبث)^(٣).

ومما يدل على أنه إنما هلكت الفرقة العادية لاغير، قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾^(٤) الآية وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾^(٥) وعلى هذا يفهم أن الفرقة الثالثة التي لم تنه ولم تعص، كانت من الناجين من العذاب، مع أنه سكت عنها ولم ينص على نجاتها، والسكوت في موضع البيان بيان.

قال الحافظ بن كثير -رحمه الله-:

(فنص على نجات الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين، لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحون، ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهن هل كانوا من الهالكين أو من الناجين)^(٦).

ثم بين سبحانه العذاب البئيس الذي أصابهم فقال: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾^(٧)

- ١- انظر تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٥٩ وانظر فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ٢/ ٢٥٨-٢٥٩.
- ٢- الأعراف: ١٦٤.
- ٣- انظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٢/ ١٢٦.
- ٤- الأعراف: ١٦٥.
- ٥- البقرة: ٦٥.
- ٦- تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٥٨.
- ٧- الأعراف: ١٦٦.

قال الأستاذ محمد رشيد رضا^(١) عند تفسير هذه الآية: (قيل: إن هذا بيان وتفصيل للعذاب البئيس في الآية السابقة.

وقيل: هو عذاب آخر، وأن الله عاقبهم أولاً بالبؤس والشقاء في المعيشة، لأن من الناس من لا يريبه ويهذه إلا الشدة والبؤس، كما أن منهم من يريبه ويهذه الرخاء والنعمة، وبكل يتبلي الله عباده ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾^(٢). وقال في بني إسرائيل: ﴿وَبَلَّوْنَاَهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٣)، ولكن هؤلاء القوم لم يزدتهم البؤس والسوء إلا اعتواً وإصراراً على الفسق والظلم، فدمدم عليهم ربهم بذنبيهم، ومسخهم مسخ خلق وبدن فكانوا قردة بالفعل، أو مسخ خلق ونفس، فكانوا كالقردة في طيشها وشرها، وإفسادها لما تصل إليه أيديها، والأول قول الجمهور، والثاني قول مجاهد، قال: مسخت قلوبهم فلم يوفقوا لفهم الحق^(٤).

وهذه العقوبة الشنيعة مناسبة لخبث نفوسهم وسوء طريقتهم الملتوية واستخفافهم بحساب الله سبحانه، وإحادهم في أسمائه تعالى، فإن معصيتهم تضخمت جداً، لكونها

١- هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد بن علي القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني محدث مفسر، مؤرخ أديب سياسي ولد في القلمون قرب طرابلس الشام سنة ١٢٨٢هـ وتعلم في طرابلس وبيروت ثم ارتحل إلى مصر والتقى بالشيخ محمد عبده وأصدر مجلة المنار وأنشأ مدرسة الدعوة والإرشاد، من تصانيفه، تفسير القرآن الحكيم لم يكمل، الخلافة والإمامة العظمى، الوهابيون والحجاز وغيرها توفي برحمة الله سنة ١٣٥٤هـ (انظر معجم المؤلفين تراجم مصنفين الكتب العربية ٩/ ٣١٠-٣١٢، تأليف عمر رضا كحالة، الناشر: مكتبة المثنى بيروت ودار إحياء التراث العربي - بيروت، وانظر المستدرك على معجم المؤلفين ص ٦٣٩).

٢- الأنبياء: ٣٥.

٣- الأعراف: ١٦٨.

٤- تفسير القرآن الحكيم ٩/ ٣٧٩ تأليف: محمد رشيد رضا، الطبعة الثانية، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان.

مشوبة بالحيلة على الله، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^(١) - ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾^(٢).

فمعصيتهم وإن كانت في الفروع فإن لها أعظم المساس في الأصول بادئ بدء لارتكازها على الحيلة هذا من جهة .

ومن جهة أخرى إصرارهم عليها وعدم انصياعهم لنصح الأمرين بالمعروف، اعتماداً على الاحتيال على الله واستخفافاً بجنابه، وإلحاداً في بعض أسمائه، من العليم والخبير، والمحيط والبصير، والرقيب والحفيظ .

لقد جمعوا في خطيئتهم تلك النكول عن عهد الله بانتقاص قدره والإلحاد في أسمائه حيث جرى ارتكابهم للخطيئة بوسيلة الحيلة التي فيها هدم للعقيدة والدين، ثم النكوص عن مقام الإنسانية والنزول بها إلى مستوى البهائم التي لا ترتفع عن حاجة البطون وشهوات النفوس فلما وصلت بهم طبيعتهم اليهودية إلى هذا الحد استحقوا من الله تلك العقوبة الشنيعة .

ويمكننا أن نستبط من هذا الحوار فوائد عدة :

الأولى : إن من مقتضيات العقوبة ولوازمها إبقاء أفهام وإحساس هؤلاء المسوخين ليعرفوا ما نزل بهم من العذاب، ولينظر بعضهم إلى بعض فيحسوا بشؤم المعصية وسوء العاقبة . وفي هذا رد على من يقول إن حالهم كحال القرود الأصلية التي لا تحس بالأم ولا ترى بصورتها من بأس، فهذا قياس فاسد، لأن القرود الأصلي لا يذكر له صورة غير صورته ولا خلقاً غير خلقته، ومن ثم فهو لا يتألم من حاله -أما أولئك المسوخون فمن مقتضيات الحال ولوازمها أن يكونوا على حالة تُبقي جميع أحاسيسهم الإنسانية لييصروا صنيع الله بهم،

١- التوبة : ٧٨ .

٢- القصص : ٦٩ .

ويتذوقوا صنوف العذاب الحسي والمعنوي، وإلا فما الفائدة من مسخهم إذا كانوا لا يميزون ولا يتعارفون ولا يتألمون؟

الثانية: قوله سبحانه ﴿كُونُوا قِرْدَةً خَاسِئِينَ﴾^(١) ليس هذا أمراً لهم، لأنهم ما كانوا أبداً قادرين على أن يقبلوا أنفسهم قردة، فتتميز بها صورتهم الإنسانية إلى صورة قردية، وإنما المراد من ذلك سرعة التكوين منه سبحانه وتعالى كقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢).

والمعنى أنه سبحانه لن يُعجزه ما أراد إنزاله من العقوبة بهؤلاء، بل لما قال لهم كونوا قردة صاروا كما أراد الله بهم، فهو كقوله سبحانه: ﴿كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾^(٣).

الثالثة: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾^(٤) تحذير لبني إسرائيل المعاصرين لدعوة محمد ﷺ من تماديهم في الجحود والعناد، أو تحايلهم على النصوص، أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل السبت من المسخ.

الرابعة: في ابتلاء الله لهم وإمهاله، حتى تمادوا في المعصية وجاهروا بها، شبهة يرددها بعض الجدليين أن في هذا إثارة للفتنة لإخلاقهم، ولكن الواقع ليس كذلك وإنما الابتلاء كان امتحاناً واختباراً لهم، حيث ابتلاهم الله بتوارد السمك عليهم يوم السبت، ويذهب عنهم بالكلية في غيره. ليمتحنهم في الثبات على الإيمان والتمسك بأداء حق الله، والوقف عند حدوده، وليميز بين خبيثهم وطيبهم، ومؤمنهم وفاسقهم.

وليس في هذا إثارة للفتنة، ولا إرادة للإضلال، كما يزعمه أهل الجدل، بل في هذا تحقيق للجهاد النفسي الذي هو لباب الدين والإيمان. وفيه تمحيص للقلوب وهو من أسباب

١- البقرة : ٦٥ .

٢- النحل : ٤٠ .

٣- النساء : ٤٧ .

٤- البقرة : ٦٥ .

الرشد والهداية لا الإضلال كما زعموا، ثم إنه كيف تحصل ثمرات التكليف إلا بمثل ذلك لو كانوا يعقلون .

الخامسة: في قصة احتيال أصحاب السبت على الله -عز وجل- في صيد السمك وإجراء العقوبة الصارمة عليهم، فيها وعيد وتحذير لهذه الأمة المحمدية من سلوك شيء من مسالك الحيل، يتخذونه ذريعة إلى ارتكاب الحرام أو فعل الحرام والله -عز وجل- يقول: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(١).

فجميع الحيل محرمة في دين الله تحريماً قاطعاً وقد عقد الشيخ موفق الدين أبو محمد عبد الله بن قدامة المقدسي^(٢) في كتابه (المغني) باباً طويلاً مفيداً شافياً في تحريم جميع الحيل والتمثيل لها، سواء في النكاح أو الطلاق أو أكل الربا أو في سائر المعاملات، وذكر عقوبة الله لأصحاب السبت^(٣).

وللأسف الشديد فقد كثر في وقتنا الحاضر المتحايلون على الله في مسائل عدة مثل النكاح وأكل الربا وغير ذلك .

فتجدهم في النكاح يعمدون إلى الشغار بحيلة دفع الصداق مع وجود الغرض النفسي المحجف بالمولية مما لا يصح معه نكاح .

ويتحيلون على أكل الربا، بما يجمعون به بين العينة والربا، يأتي أحدهم إلى الآخر يريد

١- البقرة : ٦٦ .

٢- هو موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الحنبلي ولد بقرية جماعيل سنة ٥٤١ هـ. اشتغل بالعلم وأتقن الفقه والحديث وعلم الخلاف وكانت له الصدارة فيها . قال الصفدي: كان أوحد زمانه، إماماً في علم الخلاف والفرائض والأصول والفقه والنحو والحساب والنجوم السيارة والمنازل له مصنفات كثيرة منها: ذم التأويل، الروضة في أصول الفقه، المغني وغيره، توفي يرحمه الله سنة ٦٢٠ هـ. (انظر التكملة لوفيات النقلة ٣/ ١٠٧، تأليف: زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري حققه وعلق عليه: د. بشار عواد معروف، الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ، الناشر: مؤسسة الرسالة، وانظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٥/ ٨٨-٩٢، وانظر سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٦٥-١٧٣).

٣- انظر المغني ٦/ ١١٦-١١٨، ٧/ ٤٨٥-٤٨٨ تأليف موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي الحنبلي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، د. عبدالفتاح محمد الحلو الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ الناشر: هجر للطباعة والنشر بالقاهرة .

دراهم مثلاً، يتفق معه على مرابحة عشرية معلومة، ثم يقول له: أشتري لك سكرًا أو أرزًا، يقبل ويشترى له ما لم يكن في حوزته، ثم يقول له اقبض، ويوقفه على باب مخزن أو مستودع، فيلمس ما يقدر على لمسه من المال، ويعدونه قابضاً، ثم يقول له: إنك ستبيعه فراجعني عليه، فيراجعه بالمساومة حتى يبيعه عليه ويستلم الثمن ببيع صوري لم يربح منه حامل ولا وزن ولا خازن.

وهذه وغيرها نماذج من الحيل التي ورثها أصحاب السبب، وقد ذكر ابن القيم - رحمه الله - عدداً كبيراً من الحيل في كتابه (أعلام الموقعين)^(١) جرت في زمنه وأغلبها - وللأسف الشديد - مستعمل في زماننا، ولكل قوم وارث، ولا يتحمل هذا البحث أكثر من تلك الإشارة، فليتقوا الله، وابتعدوا عن موجبات سخطه.

١- انظر أعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/ ١٦٠-٤٠٥، ٤/ ١-٤٧، تأليف: الإمام شمس الدين محمد بن بكر بن قيم الجوزية مراجعة. طه عبدالرؤوف سعد، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية بمصر ١٣٨٨هـ.

ثالثاً: الأمر بدخول الأرض المقدسة^(١):

من القبائح التي طُبِعَ عليها اليهود في كل زمان ومكان، صفة التهالك على الدنيا والحرص على الحياة، مهما اتسمت بالذل وقد أدى بهم هذا الحب الشديد للحياة إلى الجبن والخوف، والنكوص على الأعقاب في كل موطن شريف، والاعتذار عن القتال في سبيل الحق بثتى ألوان المعاذير، ولقد صور القرآن الكريم هذه الرذائل التي جبن عليها اليهود أكمل تصوير وأصدقته...

ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله تعالى:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمَنِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

فالناس جميعاً وإن كانوا يشتركون مع اليهود في الحرص على الحياة إلا أن اليهود يزيدون على سائر الناس أنهم أحرصهم، وأنهم من أجل حرصهم ربما يضحون بدينهم وكرامتهم. وذكر سبحانه الحياة التي يحرصون عليها زيادة في تحقيرهم فكأنه سبحانه يقول: إنهم شديداً والحرص على الحياة، ولو كانت حياة بؤس وشقاء، وللإشعار بأن ما يهمهم هو مطلق حياة كيفما كانت بصرف النظر عن العزة والكرامة.

ولا شك أن شدة التهالك على الحياة تؤدي إلى الجبن واحتمال الضيم، وتجعل الأمة التي تنتشر فيها هذه الرذيلة لا تفرق بين الحياة الكريمة والحياة الذليلة.

ومما يصور لنا ما فطر عليه بنو إسرائيل من جبن شديد وعزيمة خوارة، ما جاء في سورة المائدة من آيات تحكي بأسلوبها البليغ حواراً تاريخياً مشهوراً بين موسى عليه السلام وبنو إسرائيل:

١- سميت بذلك لأنها كانت أرض الأنبياء ومسكن المؤمنين واختلفوا في هذه الأرض على أقوال: القول الأول: أن الأرض هي بيت المقدس وما حولها ويقال لها إيليا وتفسيرها بيت الله. والثاني: أنها ما بين العريش إلى الفرات قاله معاذ بن جبل.

والثالث: أنها الطور قاله جرير وفي رواية أخرى أنها أريحاء قاله السدي. (انظر معالم التنزيل ٣/ ٣٥ وانظر تفسير مبهمات القرآن الموسوم بصلة الجمع وعائد التذييل لموصول كتابي الأعلام والتكميل ١/ ٣٨٤-٣٨٥ للإمام أبي عبد الله محمد بن علي البلنسي دراسة وتحقيق الدكتور: حنيف بن حسن القاسمي. الطبعة الأولى ١٤١١هـ، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت).

٢- البقرة: ٩٦.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانكُمُ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١﴾ .

يذكر المفسرون أن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر أمرهم موسى -عليه السلام- بجهاد أهل أريحاء^(٢) من بلاد فلسطين^(٣) فقالوا: لا علم لنا بتلك الديار، فأوحى الله إليه أن يختار من قومه اثني عشر نقيباً من كل سبط رجل، يتحسسون الأخبار، ويستطلعون أحوال السكان فرأوا من ضخامة أجسام سكانها ما أدخل في نفوسهم الرعب والفرع فلما عادوا أخبروا بني إسرائيل بما وقفوا عليه من حال القوم المقيمين بالأرض المقدسة فصعقت نفوسهم، وخارت قواهم، ولم يعد لديهم طاقة للقتال أو الجهاد، ومن ثم امتنعوا عن تنفيذ أمر الله تعالى، جنباً وضعفاً فخالفوا بذلك أمر نبيهم -عليه السلام- وأصرروا على أن لا يدخلوها حتى يخرج منها القوم الجبارون. لأنهم اعتادوا الذل في ملك المصريين، ومن كان كذلك فلا يصلح لقتال ولا استقلال^(٤).

يقول الله عز وجل ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ .

١- المائدة : ٢٠-٢٦ .

٢- أريحاء مدينة بقرب بيت المقدس في الغور من أرض الأردن بالشام، سميت بأريحاء بن مالك بن أرمخشد بن سام بن نوح -عليه السلام- وهي قرية الجبارين التي أمر الله موسى -عليه السلام- بدخولها. (انظر معجم البلدان ١/ ١٦٥ وانظر آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٤٢).

٣- فلسطين: هي آخر كور الشام من ناحية مصر قصبته البيت المقدس. قيل في تحديدها: إنها أول أجناد الشام من ناحية الغرب وأولها رفح من ناحية مصر وآخرها اللجون من ناحية الغور. سميت بفلسطين بن سام بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. وفلسطين منطقة تكثر فيها الجبال كما أن السهول فيها قليلة. (انظر معجم البلدان ٤/ ٢٧٤-٢٧٥).

٤- انظر قصص الأنبياء ص ٣١٠ .

٥- المائدة : ٢٠ .

ففي قول موسى -عليه السلام- (يا قوم) تلتطف في الخطاب معهم، وحمل لهم على شكر النعمة، واستعمالها فيما خلقت له، لكي يزيدهم الله من فضله على هذا الشكر وقوله لهم: ﴿إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾^(١) بيان لنعم ثلاث أسبغها الله تعالى عليهم:

- أما النعمة الأولى: وهي أرفعها قدراً وأعلاها ذكراً أن جعل كثيراً من الأنبياء فيهم كموسى وهارون وعيسى - عليهم السلام - ولم يبعث الله تعالى أنبياء في أمة من الأمم كما بعث في بني إسرائيل^(٢)، فقد أرسل - سبحانه - عدداً كبيراً من الأنبياء إليهم في فترات متعاقبة، ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، وينقذوهم من الظلم والفجور.

- وأما النعمة الثانية فهي جعلهم ملوكاً والمراد من الملك هنا: الحرية في تدبير الأمور بعد أن كانوا أذلاء مستعبدين^(٣).

روى الإمام مسلم في صحيحه أن رجلاً سأل عبدالله بن عمرو بن العاص^(٤): (ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبدالله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإن كان لي خادم قال: فأنت من الملوك)^(٥).

- والنعمة الثالثة: أن الله آتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين، أي عالمي زمانهم

١- المائة : ٢٠ .

٢- انظر زاد المسير في علم التفسير ٢ / ٣٢١ وانظر تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٧ .

٣- انظر النكت والعيون ١ / ٤٥٤ .

٤- هو عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب الإمام الخبير العابد صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه أبو محمد وقيل أبو عبد الرحمن . أسلم قبل أبيه وكان اسمه العاص فلما أسلم سمي عبدالله له مناقب وفضائل كثيرة ومقام راسخ في العلم والعمل قال عنه أبو هريرة: ما كان أحد أكثر حديثاً عن رسول الله مني إلا عبدالله بن عمرو فإنه كان يكتب وكنت لا أكتب، (انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣ / ٣٤٥-٣٤٨ ترجمة رقم (٣٠٩٢) وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ٤ / ١٦٥-١٦٧ ترجمة رقم (٤٨٦٥) وانظر سير أعلام النبلاء ٣ / ٧٩-٩٤) .

٥- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الزهد والرقائق باب (بدون اسم) ٤ / ٢٢٨٥ رقم ٢٩٧٩ .

وشعوبه^(١) التي كانت مستعبدة للطغاة من الملوك فقد خصهم بأنواع عظيمة من الإكرام، فقد فلق لهم البحر، وأهلك عدوهم وأورثهم أموالهم، وأنزل عليهم المن والسلوى، وفجر لهم اثنتي عشرة عينا حتى يعلم كل أناس مشربهم، إلى غير ذلك من صنوف النعم التي حباهم الله بها والتي كانت تستلزم منهم المبادرة إلى امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

ولم يكتب موسى -عليه السلام- ببيان هذه الأمور الثلاثة ليغريهم بالاستجابة لنصائحه بل أضاف إلى ذلك نداء آخر فيه ترغيب وترهيب فقال:

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾^(٢).

فهو يحثهم على دخول الأرض المقدسة التي فيها ضمان بالنصر، وبشارة بالفوز لأن الله قد كتب في اللوح المحفوظ أنها تكون مسكناً لهم إن آمنوا وأطاعوا وليس هناك توكيد أقوى من هذا التوكيد لضمان النصر، لأنه ضمان صادر من الله القوي العزيز.

وبعد أن أغراهم بمقتضيات الأقدام، حذرهم من الجبن والإحجام فقال: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾^(٣).

فإن ترتيب الخيبة والخسران على الارتداد يدل على اشتراط المجاهدة المترتبة على الإيمان والطاعة قطعاً. أي لا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة، أو لا تترددوا عن دينكم بالعصيان وعدم الوثوق بالله تعالى.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا:

١- تفسير القرآن العظيم ٣٨/٢ .
٢، ٣- المائدة: ٢١ .

(قيل إن الخسران هو خسران ثواب الجهاد، وخيبة الأمل في امتلاك البلاد، والذي أجزم به أن المراد بالخسران تحريم الأرض المقدسة على المخاطبين، وحرمانهم من خيراتها وبركاتهما وعقابهم بالتيه أربعين سنة ينقرض فيها المرتدون على أدبارهم، فإن هذا الخسران هو الذي وقع بالفعل وبيّنه الله في الكتاب ولا يعارضه كون الله تعالى كتبها لهم، فإن هذه الكتابة ليست لأولئك الأفراد بأعيانهم، وإنما هي لشعبهم وأمتهم^(١) .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾^(٢) تحمل طابع التحذير الشديد، وتذرهم الخسران المبين إذا لم يستجيبوا لأمره بعد أن ساق لهم ألوان المشجعات لأن موسى -عليه السلام- كان مشفقاً ومتوقفاً إجحام القوم عن الجهاد بعد أن جرب خبث نفوسهم وسوء طباعهم في مواطن كثيرة، جعلته يذكر لهم أكبر النعم وهو يأمرهم بدخول الأرض المقدسة ويسوق لهم أكرم الذكريات لكي يمتثلوا أمره ويقبلوا على الجهد بعزيمة صادقة وهمة عالية .

ولكن بني إسرائيل مهما ذكر لهم من ألوان الترغيب والترهيب فإن همتهم الساقطة وعزيمتهم الخائرة وطبيعتهم المنتكسة لم تتركهم فقد قالوا لنبیهم متذرعين بالمعاذير الكاذبة :
﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾^(٣) وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾^(٤) .

١- تفسير القرآن الحكيم ٦/ ٣٢٩ .

٢- المائدة : ٢١ .

٣- أصل الجبر إصلاح الشيء بضرب من القهر يقال جبرته فانجبر واجتبر . قال السجستاني (جبارين) أي أقوياء عظام الجسام والجبار في صفة الإنسان يقال لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالي لا يستحقها وهذا لا يقال إلا على طريق الذم كقوله ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ (المائدة : ٢٢) ، (نزهة القلوب في تفسير القرآن العزيز ص ١٨٩ وانظر المفردات في غريب القرآن ص ٨٥-٨٦) .

وقيل إن هؤلاء الجبارين هم من بقايا عاد، وقيل من ولد عيصون بن اسحاق، وكانوا من الروم العماليق وهم بنو عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام (انظر تفسير مبهمات القرآن الموسوم بصلة الجمع وعائد التذييل لموصول كتابي الأعلام والتكميل ١/ ٣٨٥) .
٤- المائدة : ٢٢ .

قالوا: إن هذه الأرض التي أمرتنا بدخولها - يا موسى - فيها قومٌ أولي بأس وقوة، ولا قدرة لنا على قتالهم، فهم قوم عظام الأجسام، يغلبون كل من يقاتلهم وليس من الحكمة أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة بالدخول عليهم، وإنما لن ندخل هذه الأرض ما دام هؤلاء الجبارون فيها.

قال القرطبي - رحمه الله -:

(وكانهم طمعوا أن يخرج القوم منها بما ألفوا من المعجزات، وخوارق العادات، ثم يدخلوا موفرين لم يكلم أحدٌ منهم في سبيل الله بكلم، ولم يُصب بجرح، شأن الضعيف العاجز والخائر الجبان) (١).

وبما أن كل أمة لا تخلو من أفراد مؤمنين، صالحين، ذوي فطر سليمة فقد انبرى رجلا ن ممن طبعهم الله تعالى على الإيمان والتقوى، وفطر نفوسهم على الطاعة والإيمان إلى قومهما ناصحين كما جاء في قوله تعالى:

قال تعالى:

﴿قَالَ رَجُلَانِ (٢) مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٣).

هنا تبرز قيمة الإيمان بالله والخوف منه، فهذان رجلا ن من الذين يخافون الله عز وجل ينشئ لهما هذا الخوف استهانة بالجبارين، لأن الذي يخاف الله لا يخاف أحداً بعده، ولا يخاف شيئاً سواه (٤).

وفي قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ (٥) أي يخافون من الله عز وجل - وهو الصحيح - وقيل من الجبارين.

١- الجامع لأحكام القرآن ٦ / ١٢٧.

٢- هما يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف عليهم السلام - وهو فتى موسى - وكالب بن يوقنا وردت بالقاف (يوقنا) ووردت بالفاء (يوقنا) ويقال ابن قانيا ختن موسى عليه السلام وكانا من الاثني عشر نقيبا وقيل كانا من الجبارين فأسلما وتبعوا موسى عليه السلام (انظر تفسير مبهمات القرآن ١ / ٣٨٧).

٣- المائدة : ٢٣.

٤- انظر في ظلال القرآن ٢ / ٨٧٠.

٥- المائدة : ٢٣.

وقيل من الذين يخافون ضعف بني إسرائيل وجبنهم .

وقيل الواو في (يخافون) أي الذين يخافهم بنو إسرائيل^(١) فلقد توجهوا إلى القوم ناصحين لهم في دخول الأرض المقدسة، وأن لا يفزعهم عظم أجسام سكانها فأجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة، وكانا يعلمان أنهما إذا دخلا من ذلك الباب كان لهما الغلب، ويحتمل أن يكونا قالا ذلك ثقة بوعده الله^(٢) .

فإن قيل من أين علما أنهما غائبون؟

قال الزمخشري :

(من جهة إخبار موسى - عليه السلام - بذلك في قوله تعالى : ﴿ .. الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ وقيل من جهة غلبة الظن وما تبينا من عادة الله في نصرته رسله وما عهدا من صنع الله لموسى - عليه السلام - في قهر أعدائه وما عرفا من حال الجبابرة)^(٣) .

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(٤)

أي ثقوا بالله فإنه معكم إن أطعتموه فيما أمركم من جهاد عدوكم وهذا يدل على وجوب التوكل على الله، فبحسب إيمان العبد يكون توكله، ففي التوكل تيسيرٌ للأمر ونصرٌ على الأعداء^(٥) .

ولكن هذه النصيحة الحكيمة من الرجلين المؤمنين لم تعها أذن واعية، ولم تصادف من بني إسرائيل قلوباً صافية مملوءة بالتقوى والطاعة واليقين، بل قابلوها بالاستهزاء والاستهانة بأوامر الله تعالى، وصمّموا على النكول عن الجهاد، وأصروا على التمرد والمخالفة والعصيان، وأكدوا لموسى - عليه السلام - أنهم لا يدخلون الأرض المقدسة أبداً، أيام حياتهم إذا توقف دخولها على الحرب والقتال، ظناً منهم وجبناً بأنهم لا طاقة لهم بحرب الجبارين وقتالهم إذ ليسوا أهلاً لذلك .

١- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ٢٨/٢ .

٢- انظر الجامع لأحكام القرآن ٦/١٢٧ .

٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ١/٦٠٤ .

٤- المائدة : ٢٣ .

٥- انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٢/٢٧٥ .

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾^(١).

يقول ابن القيم - رحمه الله - : (وتأمل تطف نبي الله تعالى موسى - عليه السلام - بهم، وحسن خطابه لهم وتذكيرهم بنعم الله عليهم، وبشارتهم بوعد الله لهم: بأن القرية مكتوبة لهم، ونهيهم عن معصيته بارتدادهم على أدبارهم، وأنهم إن عصوا أمره، ولم يمتثلوا: انقلبوا خاسرين فجمع لهم بين الأمر والنهي، والبشارة والندارة، والترغيب والترهيب، والتذكير بالنعم السالفة فقابلوه أقبح المقابلة فعارضوا أمر الله تعالى بقولهم:

﴿ يَا مُوسَى إِن فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾^(٢) فلم يوقروا رسول الله وكليمه حتى نادوه باسمه، ولم يقولوا: يا نبي الله وقالوا: ﴿ إِن فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾^(٣) ونسوا قدرة جبار السماوات والأرض الذي يذل الجبابرة لأهل طاعته وكان خوفهم من أولئك الجبارين - الذين نواصيهم بيد الله - أعظم من خوفهم من الجبار الأعلى سبحانه.

ثم صرحوا بالمعصية والامتناع من الطاعة فقالوا: ﴿ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾^(٤). فأكدوا معصيتهم بأنواع من التأكيد:

أحدها: تمهيد عذر العصيان بقولهم: ﴿ إِن فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾^(٥).

والثاني: تصريحهم بأنهم غير مطيعين، وصدروا الجملة بحرف تأكيد وهو «إنا» ثم حققوا النفي بأداة لن الدالة على نفي المستقبل. أي لن ندخلها الآن ولا في المستقبل.

ثم علقوا دخولها بشرط خروج الجبارين منها ﴿ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾^(٦).

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾^(٧) لأنهم قد ملئوا منكم رعباً. فكان جواب القوم أن ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا

١- المائدة: ٢٤.

٢، ٣، ٤، ٥، ٦- المائدة: ٢٢.

٧- المائدة: ٢٣.

لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿١﴾.

فسبحان من عَظَّمَ حلمه حيث يقابل أمره بمثل هذه المقابلة، ويواجه رسوله بمثل هذا الخطاب وهو يحلم عنهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل وسعهم حلمه وكرمه وكان أقصى ما عاقبهم به أن ردّدهم في بركة التيه أربعين عاماً يظلل عليهم الغمام من الحر وينزل عليهم المن والسلوى (٢). فقولهم: ﴿فَازْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ (٣) فيه استهانة بالله ورسوله وقلة مبالاة بهما واستهزاء وقصدوا إذهابها حقيقة بجهلهم، وقسوة قلوبهم التي عبدوا بها العجل وسألوا بها رؤية الله عز وجل جهرة والدليل عليه مقابلة أمر ذهابهم إلى الأرض المقدسة بنكولهم.

قال القرطبي - رحمه الله -: (قولهم لموسى: ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ (٤)، عناد وحيد عن القتال ويأس من النصر، ثم إنهم جهلوا صفة الرب تبارك وتعالى فقالوا: ﴿فَازْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ (٥) وصفوه بالذهاب والانتقال، والله متعال عن ذلك. وهذا يدل على أنهم كانوا مشبهه.

وقيل: أي إن نصره ربك أحق من نصرتنا، وقتاله معك - إن كنت رسوله - أولى من قتالنا، فعلى هذا يكون ذلك منهم كفر، لأنهم شكوا في رسالته.

وقيل: المعنى: اذهب أنت فقاتل وليعنك ربك. وبالجملة فقد فسقوا بقولهم لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٦) أي لا تحزن عليهم (٧).

هكذا كان موقف قوم موسى - عليه السلام - من أمر الله تعالى بدخول الأرض المقدسة والجهاد في سبيل الله، فأين هذا من الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم أجمعين؟

فقد ثبت في الصحيحين عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لقد شهدت من

١- المائدة: ٢٤.

٢- انظر إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ٢/٣١٢-٣١٣ تأليف: أبي عبدالله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية تحقيق وتعليق: محمد بن حامد الفقي الناشر: دار المعرفة بيروت - لبنان.

٣، ٤، ٥- المائدة: ٢٤.

٦- المائدة: ٢٦.

٧- الجامع لأحكام القرآن ٦/١٢٧-١٢٨.

المقداد بن الأسود^(١) مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^(٢) ولكننا نقاتل عن يمينك وشمالك وبين يديك ومن خلفك^(٣) فرأيت رسول الله ﷺ أشرق وجهه وسُرهُ^(٤)، يعني قوله.

هذا وبعد أن استيقن موسى -عليه السلام- من جبن بني اسرائيل، ووهن عزائمهم، وتأكد من إصرارهم على النكوص عن الجهاد في سبيل الله، لجأ إلى ربه يشكو إليه سوء صنيع قومه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٥).

أي ليس أحد يطعني منهم ويمتثل أمرك وما دعوت إليه إلا أنا وأخي فافصل بيننا وبين القوم الفاسقين، وفي الآية تصريح من موسى -عليه السلام- بأنه يملك أمر أخيه هارون كما يملك أمر نفسه، ولعل ذلك لمؤازرته التامة له في كفاحه ظلم فرعون ووقوفه إلى جانبه بعزيمة صادقة في كل موطن من مواطن الشدة، وليقينه بأنه مؤيد بروح من الله عز وجل.

وقد استجاب الله تعالى لنبيه وقضى بالجزاء العدل على القوم الفاسقين بأن منعهم من

١- هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيع القضاعي الكندي البهراني صاحب رسول الله ﷺ وأحد السابقين الأولين، يقال له المقداد بن الأسود لأنه رُبي في حجر الأسود بن عبد يغوث شهد بدرًا وما بعدها. توفي سنة ثلاث وثلاثين ودفن بالبقيع وعمره سبعين سنة، (انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ٥/٢٤٢-٢٤٤ ترجمة رقم (٥٠٧٦) وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ٦/١٥٩-١٦١ ترجمة رقم (٨٢٠١)).

٢- المائدة : ٢٤ .

٣- استشار الرسول ﷺ أصحابه في قتال النفر من المشركين الذين جاءوا لمنع العير التي كانت لأبي سفيان، فلما فات اقتناصها واقترب منهم النفر وكان عددهم ما بين التسع مائة والالف ورسول الله في ثلاث مائة وبضعة عشر ليس معهم إلا فرسان وسبعون بعيراً، تكلم أبو بكر رضي الله عنه (فأحسن)، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين ورسول الله يقول «أشيروا عليّ أيها الناس» وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ فقام سعد بن معاذ وقال: كأنك تعرض بنا يا رسول الله فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضنا معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك.

٤- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب المغازي باب قول الله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ...﴾ ٥/٤ .

٥- المائدة : ٢٥ .

دخول الأرض المقدسة مدة أربعين سنة يتيهون في الأرض ويضلون، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون، وفي التيه وقعت أمور عجيبة وخوارق كثيرة.. من تظليلهم الغمام وإنزال المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء.. إلخ.

وفي هذا يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي -رحمه الله-: (وهذه عقوبة دنيوية لعل الله تعالى كفر بها عنهم ودفع بها عقوبة أعظم، وفي هذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة، أو دفع نعمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخيرها إلى وقت آخر^(١) .

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢) تسلية لموسى -عليه السلام- بأن لا يحزن عليهم بسبب هذه العقوبة، لأن الله لم يظلمهم ولكن أنفسهم كانوا يظلمون بخروجهم عن الطاعة ومخالفة الأوامر وجبنهم عن القتال.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٣).

لقد عاقبهم الله بالتيه، فتاهوا في الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنة لم يأووا فيها لعمران، ولا نزلوا مصرًا، ولا خالطوا بشرًا كما قصه القرآن الكريم لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم، ولعجزهم عن مقاومتهم -كما زعموا- ويظهر من سياق الآية الكريمة ومفهومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلقوا به وظهور جيل عزيز نشأ في التيه لا يعرف الاستعباد والقهر، ولا يسأم المذلة

١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٢/ ٢٧٧.
٢، ٣- المائدة : ٢٦.

والخسف فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى، اقتدروا على المطالبة والتغلب، ويظهر ذلك من أن الأربعين سنة، أقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر^(١).

فإن قيل كيف يوفق بين قوله تعالى ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾^(٢) وبين قوله ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(٣)؟

قال الزمخشري - رحمه الله - فيه وجهان :

(أحدهما: أن يراد كتبها لكم بشرط أن تجاهدوا أهلها، فلما أبو الجهاد قيل فإنها محرمة عليكم .

ثانيهما: أن يراد فإنها محرمة عليهم أربعين سنة، فإذا مضت الأربعون كان ما كتب .

فقد روي أن موسى - عليه السلام - سار بمن بقي من بني إسرائيل وكان يوشع^(٤) على مقدمته ففتح أريحا وقام فيها ما شاء الله ثم قبض عليه السلام فبعث الله يوشع نبيا فأخبرهم بأنه نبي الله عليهم وأن الله أمرهم بقتال الجبابرة . فصدقوه وبايعوه وسار بهم إلى أريحا وقتل الجبارين وأخرجهم وصارت الشام كلها لبني إسرائيل . وقيل لم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال إنا لن ندخلها^(٥) .

١- انظر تاريخ ابن خلدون ٢ / ٨٤-٨٧ تأليف العلامة عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي ١٣٩١ هـ الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان .

٢- المائة : ٢٦ .

٣- المائة : ٢١ .

٤- هو يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليه السلام بعثه الله نبياً إلى بني إسرائيل وأمره بالمسير إلى أريحاء مدينة الجبارين واختلف العلماء في فتحها :

قال ابن عباس رضي الله عنهما إن موسى وهارون عليهما السلام توفيا في التيه كما توفي فيه كل من دخله وقد جاوز العشرين سنة غير يوشع بن نون وكالب بن يوفنا فلما انقضت الأربعون سنة أوحى الله إلى يوشع بن نون فأمره بالمسير إليها وفتحها فاستخلف على بني إسرائيل كالب بن يوفنا وكان عمر يوشع مائة وستا وعشرين سنة . وكان قيامه بالأمر بعد موسى عليه السلام سبعا وعشرين سنة . وقال آخرون : إن موسى عاش حتى خرج من التيه وسار إلى مدينة الجبارين وعلى مقدمته يوشع بن نون ففتحها وهو قول ابن إسحاق . (انظر تاريخ الرسل والملوك ١ / ٤٣٥-٤٤٢ وانظر الكامل في التاريخ ١ / ١٥٣-١٥٤ وانظر البداية والنهاية ١ / ٢٩٧-٣٠٢) .

٥- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ١ / ٦٠٥ .

ولما انقضت السنون التي حرم الله - عز وجل - عليهم فيها دخول الأرض المقدسة، أذن سبحانه لمن بقي منهم وذريتهم بدخولها، حيث افتتحوها قرية الجبارين ثم أباح تعالى لهم كل ما فيها من الطيبات، موسعاً عليهم بغير حساب، وأمرهم أن يدخلوا الباب سجداً ويقولوا: سجدونا هذا لله حطة من ربنا لذنوبنا يحطُّ به آثامنا. ولعل هذه الكلمات كانت رحمة من الله لهم، ليتوب عليهم، ويتغمدهم برحمته. ولكن الظالمين منهم لم يتلقوا هذه الكلمات على الوجه المطلوب، ولم يقابلوا هذه النعمة الجليلة بالطاعة والشكر، فكانت عاقبة أمرهم أن أنزل الله عليهم عذاباً من السماء بسبب فسوقهم وظلمهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١).

وقوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (٢).

والمراد بالسجود في الآية - والله أعلم - سجد الخضوع لله والخشوع له وليس السجود المعروف الذي هو وضع الجباه على الأرض ولو كان الأمر كذلك لامتنع الدخول المأمور به وقيل هو الركوع انحناءً (٣).

ولكن الخضوع هو الأقرب، إظهاراً للتواضع الذي يحصل به طأطأة الرأس إعظاماً لله الذي مكنهم من الدخول وأمرهم مع هذا أن يعلنوا توبتهم أمام بعضهم وأمام الناس حيث قال لهم ﴿وَقُولُوا حِطَّةً﴾ (٤) ليقرّنوا خضوع القلب بنطق اللسان، ملتمسين من الله حط

١- البقرة: ٥٨-٥٩.

٢- الأعراف: ١٦١-١٦٢.

٣- انظر فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ١/ ٨٩.

٤- البقرة: ٥٨.

الذنوب، وكلمة (حطة) فعله من الحط أي حط عنا خطايانا .

وقيل .. أي قولوا لا إله إلا لله وكأن أصحاب هذا القول اعتبروا الكلمة التي تحط بها

الخطايا . وهي كلمة التوحيد .

وعلى أي من هذين القولين فهم مأمورون عند الدخول بالتوحيد والاستغفار، فتلاعب الشيطان بهم وعصى بعضهم أو أكثرهم حتى اعتبرهم الله مبدلين للقول الذي قيل لهم، وذلك أن مخالفتهم لأوامر الله ليست عن جهل يستوعب مزيد تفصيل، ولا عن اشتباه يحتمل التأويل، ولكنه مجرد عناد ومشاقّة فبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم وفعلاً غير الذي أُمرُوا به، وقيل المبدلين هم بعضهم لا كلهم بدليل ما جاء في سورة الأعراف: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾^(١).

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبي إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة، فبدلوا، فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعرة. فبدلوا القول والفعل معاً فأنزل الله عليهم رجزاً من السماء»^(٢).

قال الحافظ بن كثير -رحمه الله-:

(وحاصل ما ذكره المفسرون، وما دل عليه السياق، أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمرُوا أن يدخلوا سجداً فدخلوا يزحفون على أستاههم رافعي رؤوسهم،

١- الأعراف : ١٦٢ .

٢- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء باب حديث الخضر مع موسى -عليه السلام- ٤/ ١٢٩ وفي كتاب التفسير باب «وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا» الحديث ٨/ ١٢٥ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه - كتاب التفسير - باب سورة البقرة - ٤/ ٢٣١٢ رقم (٣٠١٥).

وأمرُوا أن يقولوا: حطة، أي أحطط عنا ذنوبنا وخطايانا، فاستهزءوا فقالوا: حنطة في شعيرة. وهذا غاية ما يكون من المخالفة والعناد لهذا أنزل الله عليهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته^(١).

فَقَوْلُهُ ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾^(٢) بيان للسبب الذي من أجله نزل عليهم العذاب، وتوبيخ لهم على انحرافهم ومعصيتهم وجحودهم وهذا العذاب أبهم اسمه وحقيقته في الآية ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(٣).

وقد فسره سعيد بن جبير بأنه: (الطاعون وقيل هو الغضب)^(٤).

والأولى أن نسكت ونقف حيث أوقفنا الله ونؤمن بأن الله عاقبهم برجزٍ ملائم لمعصيتهم. وفي إقامته سبحانه للمظهر مقام المضرر في قوله تعالى في سورة البقرة ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾^(٥) تأكيد لما نُصِّ عليه في سورة الأعراف من التبويض، وأن المخالفين ليسوا جميع القوم بل منهم من لم يخالف، ومن خالف نال جزاءه على فسقه.

ومن المناسب في هذا المقام إيراد بعض العبر والعظات المستفادة من هذه الآيات:

أولاً: إن هذه الآيات اشتملت على لون فريد في أسلوب الحوار في الدعوة إلى الله تعالى، فقد بدأت بتذكير بني إسرائيل بأمجادهم وبعضهم نعم الله عليهم، لتغرس فيهم الشعور بالعزة، ولتغريهم بالاستجابة لما أمرُوا به.

ثانياً: التحذير من مغبة الجبن والمخالفة والنكوص على الأعقاب لأن ذلك يؤدي بهم إلى

الخسران في حياتهم وبعد مماتهم.

١- تفسير القرآن العظيم ١/ ١٠٠.

٢، ٣- البقرة: ٥٩.

٤- انظر تفسير القرآن العظيم ١/ ١٠٠-١٠١.

٥- البقرة: ٥٩.

ثالثاً: صورّ الحوارَ بأمانةٍ وصدقِ جِبِلَّةِ بني إسرائيل على حقيقتها، وكشف بلا حجاب عن خور عزيمتهم، وسقوط همتهم، وجبن نفوسهم، وسوء اختيارهم لأنفسهم، وعصيانهم لأنبيائهم، وإحجامهم عن الجهاد في سبيل الله، وجفائهم في مخاطبة رسلهم، مما جعلهم أهلاً للعقوبات الرادعة.

رابعاً: تسلية للرسول ﷺ عما لحقه من اليهود المعاصرين له من أذى، وتحذير لهم من السير على طريقة آبائهم المعوجة ومن التآسي بأخلاقهم المزدولة، حتى لا يعرضوا أنفسهم للعقوبات التي حلت بأسلافهم.

قال الإمام ابن كثير -رحمه الله-: (تضمنت هذه القصة تقريراً لليهود، وبيان فضائحهم، ومخالفتهم لله ولرسوله، ونكولهم عن طاعته فيما أمرهم به من الجهاد، فضعت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله كليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان) (١).

خامساً: يؤخذ من هذا الحوار أيضاً أن معصية الله ورسله تؤدي إلى الخسارة في الدنيا والآخرة، فإن بني إسرائيل لما جبنوا عن دخول الأرض المقدسة وعصوا أمر نبيهم موسى -عليه السلام- عاقبهم الله تعالى بالتيه مدة أربعين سنة.

١- تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٩.

رابعاً: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووجوب تغييره عند القدرة أو مفارقة أهله يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ * قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا بُنُومَ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (١).

فقوله ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ (٢) تأنيب من موسى لهارون -عليهما السلام- على بقاء هارون بينهم وهم يعبدون العجل وظن موسى -عليه السلام- أن هارون لم ينههم عن عبادة العجل، ولم ينكر عليهم فكان موسى -عليه السلام- أراد من أخيه أن يقاتلهم إذا لم ينتهوا وإذا عجز عنهم خرج وتركهم.

قال القرطبي -رحمه الله- («لا»: زائدة- يعني مؤكدة- أي أن تتبع أمري ووصيتي).

وقيل ما منعك عن اتباعي في الإنكار عليهم.

وقيل: ما منعك من اللحوق بي لما فتنوا: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (٣) يريد أن مقامك بينهم وقد عبدوا غير الله تعالى عصياناً منك لي.

وقيل: معناه أهلاً فارقتهم فتكون مفارقتك إياهم تقريباً لهم وزجراً.

فلما لم يفارقهم وأقام معهم ولم يبالغ في منعهم والإنكار عليهم كما كان يظن موسى -عليه السلام- نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره (٤).

والواقع أن هارون -عليه السلام- قد أنكر عليهم ونهاهم ولكنهم لم يطيعوه، كما أنه لم يقاتلهم أو يخرج عنهم رفقاً وخشياً من التفرقة بينهم كما أخبر الله عن ذلك في القرآن في

١- طه : ٩٠-٩٤.

٢- طه : ٩٢.

٣- طه : ٩٣.

٤- انظر الجامع لاحكام القرآن ١١ / ٢٣٧.

جوابه لأخيه معذراً ﴿ قَالَ يَا بَنُومَ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾^(١). وقوله: ﴿ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾^(٢).

ومما يدل أيضاً على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما جاءت به شريعة التوراة ما جاء في قصة أصحاب السبت حينما امتدح الله الناهين عن المنكر ونص على نجاتهم من العذاب في الوقت الذي لم يذكر فيه مصير الطائفة الأخرى والتي لم تفعل المنكر ولكنها أيضاً لم تنه عنه تهويناً لشأنها^(٣).

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزَابٍ بئسَ بما كانوا يَفْسُقُونَ ﴾^(٤).

كما ورد التوبيخ لليهود عامة ولعلمائهم خاصة في بعض نصوص القرآن الكريم لتركهم النهي عن المنكر:

﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنِ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾^(٥).

كما استحق اليهود اللعن من الله على لسان أنبيائهم لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾^(٦).

١- طه : ٩٤ .

٢- الأعراف : ١٥٠ .

٣- انظر المطلب الأول من هذا البحث ص ٢٣٣ - ٢٤٤ .

٤- الأعراف : ١٦٤-١٦٥ .

٥- المائدة : ٦٣ .

٦- المائدة : ٧٨-٧٩ .

المطلب الثاني : أحكام تتعلق بالمعاملات

أولاً : الأمر بذبح بقرة : -

من ردائل بني إسرائيل تنطعمهم في الدين، ومحاولتهم تضيق ماوسعه الله عليهم، وتهاونهم في الانصياع لكلمة الحق، وتشككهم في صدق أنبيائهم وتعنتهم في السؤال ، إما للتحلل من الامتثال ، وإما لانطماس بصيرتهم عن فهم مقاصد الشريعة .

وقصة أمرهم بذبح بقرة على لسان نبيهم موسى -عليه السلام- خير دليل على هذه الأوصاف قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا ما تؤمرون * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونَهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لُونُهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا أَسِيَّةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . ﴿ (١)

كان السبب في أمر موسى لقومه بذلك ما ذكره المفسرون أن رجلاً من بني إسرائيل كان غنياً، ولم يكن له ولد، وكان له قريب يرثه، فاستبطأ موته، فقتله سراً وألقاه في موضع الأسباط وادعى قتله على أحدهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض ، فقال ذوو الرأي منهم والنهي علام يقتل بعضهم بعضاً، وهذا رسول الله فيكم؛ فأتوا موسى -عليه السلام- فذكروا ذلك له فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ (٢) قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿ (٣)

١- البقرة : ٦٧-٧٣ .

٢- قال الراغب : البقر واحدته بقرة وهي الأنثى من البقر ويقال هي مأخوذة من البقر وهو الشق، سميت به لأنها تشق الأرض للحراثة (المفردات في غريب القرآن ص ٥٦ وانظر معالم التنزيل ١/ ١٠٥) .

٣- البقرة : ٦٧ .

قال : فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً فأخذوها بملء جلدها فذبحوها فضربوه ببعضها فقام فقالوا : مَنْ قَتَلَكَ ؛ فقال : هذا لابن أخيه، ثم مال ميتاً فلم يعط من ماله شيئاً فلم يُورث قاتلٌ بعد^(١) .

ويوجد هناك روايات كثيرة في شأن هذه القصة قد ذكرها عدد من المفسرين، وهي لا تضيف إلى ما ذكر علماً لأنها لا تختلف عن النص الذي سقناه اللهم إلا في التفاصيل .
وقد ساق القرآن هذا الحوار بأسلوبه البديع الذي يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك النفوس إلى النظر والاعتبار فقد قال تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾^(٢) .

فالأمر بالذبح جاء مقدماً على سببه الذي هو قتل النفس في التلاوة، وقوله ﴿قَتَلْتُمْ نَفْساً﴾ مقدّم في المعنى على جميع ما ابتدأ به من شأن البقرة ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها، فكان الله أمرهم بذبح البقرة فذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر القتل فأمرُوا أن يضربوه ببعضها ويكون ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾ مقدماً في المعنى على القول الأول حسب ما ذكر لأن الواو لا توجب الترتيب، ونظيره في التنزيل ماورد في قصة نوح -عليه السلام- .

بعد ذكر الطوفان وانقضائه في قوله تعالى :

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٣)

فذكر إهلاك من هلك ثم عطف عليه بقوله : ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٤)

١- تفسير القرآن العظيم ١٠٩ / ١ .

٢- البقرة : ٦٧ .

٣- هود : ٤٠ .

٤- هود : ٤١ .

فذكر الركوب متأخراً في الخطاب ومعلوم أن ركوبهم كان قبل الهلاك .

فالقرآن الكريم لا يسلك مسلك المؤرخين في التنسيق والترتيب إنما يراعي التأثير في السامعين لأنه كتاب هداية، وأسلوبه هذا أدعى لتشويق السامع، وبعث همته على البحث عن معرفة السبب في الذبح، ومفاجأته بحكاية ما دار بين موسى -عليه السلام- وقومه من الحوار .

فإن الحكمة في أمر الله بذبح بقرة إذا خفيت يحرص السامع على طلبها فوحي الله المبارك يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك الفكر إلى تدقيق النظر، ويهز النفس هزاً قوياً إلى الاعتبار، وهذه القصة من جملة القصص التي اقتضت حكمة الله أن يقصها علينا للاعتبار بها والابتعاد عن مشابهتهم، وفيها من المواعظ والعبر عدة أمور:-

أحدها :- أن التنطع في الدين، وكثرة الأسئلة مضرّة محرمة شرعاً، لكونها تُفضي إلى تشديد قد يؤول أمره إلى التعطيل فيكفر صاحبه، كما قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ (١)

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوني ما تركتكم إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» (٢)

كما روى عنه ﷺ أنه خطب أصحابه فقال: (إن الله كتب عليكم الحج) فقام عكاشة (٣).

-ويروى سراقه بن مالك (٤)- رضي الله عنهما- فقال: في كل عام يارسول الله؛

١- المائدة : ١٠١-١٠٢

٢- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الاعتصام بالسنة- باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ وقوله تعالى ﴿ وجعلنا للمتقين إماما ﴾ ١٤٢/٨ .

٣- عكاشة بن محصن السعيد الشهيد أبو محصن الأسدي حليف قريش من السابقين الأولين البدرين أبلي يوم بدر بلاءً حسناً وانكسر سيفه في يده فأعطاه النبي ﷺ عرجوناً من نخل ليقاتل به . استعمله النبي ﷺ على سرية العُمر، قتل في سنة إحدى عشرة قتله طليحة الأسدي الذي ارتد ثم أسلم بعد وحسن إسلامه (انظر سير أعلام النبلاء ٣٠٧/١-٣٠٨) .

٤- سراقه بن مالك بن جعشم بن مالك بن عمرو بن مالك بن تيم بن مدلج بن فرة بن عبد مناه بن كنانة المدلجي يكنى بأبي سفيان من مشاهير الصحابة كان ينزل قديداً وهو الذي لحق النبي ﷺ وأبا بكر حين خرجا مهاجرين إلى المدينة وقصته في ذلك مشهورة توفي في صدر خلافة عثمان رضي لله عنهما سنة أربع وعشرين، (انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ٤١٢/٢-٤١٤ رقم (١٩٥٥) وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ٣/٣٥-٣٦ رقم (٣١٢٢) .

فأعرض عنه حتى أعاد مرتين أو ثلاثاً فقال: «ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم، والله لو قلت نعم لوجب، ولو وجب ما استطعتم، ولو تركتكم لكفرتم فاتركوني ما تركتم، وإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»^(١)

وهذا فيه إشارة من النبي ﷺ إلى ما كان من بني إسرائيل من تنطع في موضوع ذبح البقرة كما أن فيه إشارة إلى المسلمين أن يتقبلوا الأوامر والنواهي المطلقة من دون اعتراض أو فضول لثلاث تضييق عليهم الأمور كما ضيقت على بني إسرائيل بتلك القيود التي أضيفت للواجب المفروض عليهم حتى ارتفع إلى المستوى العالي الذي كلفهم - بعد ذلك - مالأً كثيراً.

ثانيها: إن الله أمرهم بذبح بقرة دون غيرها من سائر الحيوانات ليقتلع من نفوسهم كل تقديس للبقرة، لأنه من جنس ما عبده وهو العجل، فينقلب التقديس إلى إهانة واحتقار بدلاً من الحب والتعظيم، وفي هذا امتحان كبير لنفوسهم، فبعد أن أحرق موسى -عليه السلام- العجل الذهبي وذراه في البحر جاءهم هذا الأمر الذي يقضي على ما تبقى في نفوسهم من تقديسه قضاءً مبرماً.

ثالثها: استهزأؤهم بأوامر نبيهم -عليه السلام- ووصمتهم له بخلقهم الشنيع حيث قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾^(٢) وهذا من قلب الحقائق ورمي البريء بما الرامي به ألصق كقول المثل: (رمتني بدائها وانسلت)^(٣).

رابعها: إظهار عجائب قدرة الله سبحانه في اختراع الأشياء من أضدادها، حيث أحيا الله القتيل بمجرد ضربه بجزء منها.

١- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه- كتاب الحج - باب فرض الحج مرة واحدة في العمر ٩٧٢/٢ رقم ١٣٣٧.

٢- البقرة: ٦٧.

٣- مجمع الأمثال ١/٢٨٦.

خامسها : دلالتها على صدق النبي ﷺ فيما يبُلِّغه عن ربه فقد أخبر عن هذه القصة التي لم يشهد أحداثها بما أوحاه الله إليه وهذا الإخبار من أعلام نبوته كما أنها تدل على صدق نبوة موسى عليه السلام وأنه رسول من رب العالمين .

سادسها : زيادة الإعلام من الله لهذه الأمة بما جرى من بني إسرائيل من أنواع اللجاجه والتلكؤ في الاستجابة، وانتحال المعاذير للتخلص من التنفيذ مما يدلنا على جوانب جديدة من طبيعتهم الذميمة وسلطة ألسنتهم، وقلة إيمانهم بالغيب^(١) .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً ﴾^(٢)

أي اذكروا يا بني إسرائيل لكي تعتبروا وتتعضوا وقت أن حدث في أسلافكم قتل ولم يعرف الجاني فطلب بعض أهله وغيرهم ممن يهيمه الأمر من موسى -عليه السلام- أن يدعو الله تعالى ليكشف لهم عن القاتل الحقيقي فقال لهم :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً ﴾^(٣) فدهشوا كثيراً وقالوا بسفاهة وحماقه :

﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا ﴾^(٤) : أي أتجعلنا موضع سخريتك فالهُزُء هو اللعب والسخرية .

﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾^(٥) لأن الخروج عن جواب السائل

المسترشد إلى الهُزُء جهلٌ فاستعاذ منه موسى -عليه السلام- لأنه صفة تنتفي عن الأنبياء .

والذي عليه جمهور المفسرين أن أمرهم بذبح بقرة كان بعد تنازعهم في شأن القاتل

الحقيقي ، فأمروا بذبحها وضرب القاتل بعضو منها .

قال الماوردي -رحمه الله- : (إنما أمروا -والله أعلم- بذبح بقرة دون غيرها من

الحيوانات لأنها من جنس ما عبدوا من العجل وفي أمرهم بذلك تهوينٌ لشأن هذا الحيوان الذي عظموه وعبدوه ، فكأنه سبحانه يقول لهم : إن هذا البقر الذي يُضرب به المثل في

١- انظر إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ٢/ ٣١٥ وانظر صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٧٤-١٧٥ .

٢، ٣، ٤، ٥- البقرة : ٦٧ .

البلادة لا يصح أن يكون معبوداً من دون الله وإنما يصلح للحرث والسقي والعمل والذبح^(١).

وقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوراً﴾^(٢) يدل على سفههم وسوء ظنهم بنبيهم وعدم توقييرهم له وجهلهم بعظمة الله تعالى وما يجب أن يقابل به أمره من الانقياد والامتثال لأنهم لو كانوا عقلاء لامثلوا أمر نبيهم وانتظروا النتيجة ولكنهم قوم لا يعقلون.

ولما كان قولهم هذا يدل على اعتقادهم بأن موسى عليه السلام قد أخبر عن الله بما لم يأمر به أجابهم موسى عليه السلام بقوله كما جاء في القرآن الكريم:

﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣).

أي التجئ إلى الله وأبرأ إليه من أن أكون من السفهاء الذين يروون عنه الكذب والباطل ومن هذا الجواب يظهر تبرؤ وتنزه موسى -عليه السلام- عن المزاح الذي يخالطه استحقار، واستخفاف بالممازح معه لأنه لا يليق بعقلاء الناس فضلاً عن رسل الله -عليهم السلام-، كما أن فيه أيضاً رداً لهم إلى جادة الأدب الواجب في جانب الخالق حيث بين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بمن يجهل عظمة الله تعالى^(٤).

وليعتبر الدعاة بحلم موسى عليه السلام وأسلوبه مع قومه عندما حاورهم بكل أدب ولطف، نافياً عن نفسه ما اتهموه به على أبلغ وجه وأوكده بإخراجه مخرج مالا مكروه وراه بالاستعاذه منه، استعظاماً له واستفظاعاً لما شا فهو به وما قابلوه من الفظاظة وسوء الأدب، ولو كان عندهم مسحة من ضمير، ما قابلوه بهذا، وهم يعلمون أنه زعيمهم، بل نبيهم الذي أنقذهم الله به من العذاب المهين، وأجرى عليهم من النعم ما لم يحصل لغيرهم من العالمين.

ثم هل خالجهم الحياء ودب إليهم شيء من الوجدان ففعلوا ما يؤمرون؟

١- النكت والعيون ١/١٢١.

٢، ٣- البقرة: ٦٧.

٤- انظر الجامع لأحكام القرآن ١/٤٤٦.

إن طبيعتهم المتلوية جعلتهم يعودون إلى السؤال عن ماهية البقرة وهي بقرة !! وسؤال بطريقة بشعه .. قالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾^(١) ولم يقولوا: (ادع الله-أوادع ربنا) فكأنما هو رب موسى وحده لا ربهم، وكان المسألة لا تعنيهم هم إنما تعني موسى وربه .

ثم إن تكرار السؤال ينبئ عن موقف الإنكار والاستهزاء، لا عن موقف الإيمان والتسليم^(٢)، ولكن موسى - عليه السلام - يقابلهم بكل لطف لما قالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ^(٣) وَلَا بَكْرٌ^(٤) عَوَانٌ^(٥) بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ^(٦)﴾ .

فقد سألوا موسى - عليه السلام - عن بقرة مذبوحة بأيديهم يضرب ببعضها ميت فتعود إليه الحياة وكأنهم لقلة فهمهم قد توقعوا أن البقرة التي يكون لها أثر في معرفة قاتل القاتل لا بد أن يكون لها وصف مميز عن سائر جنسها .

فأجابهم موسى - عليه السلام - أنها بقرة متوسطة في السن ليست عجوزاً كبيرة ولا بكرة صغيرة عوان بين ذلك .

وقد أكد سبحانه وتعالى جملة ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾^(٧) تنزيلاً لهم منزلة المنكرين لتعنتهم في السؤال ومحاولتهم التنصّل مما أمروا به .

ثم إن القرآن الكريم لم يقل من أول الأمر إنها بقرة عوان بل جاء بالوصفين السابقين ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ﴾^(٨) للتعريف بغباوتهم وعدم فهمهم للأساليب الموجزة لذا جاء التفصيل في جوابهم حتى لا يعودوا إلى تكرار الأسئلة .

وقوله ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾^(٩) .

١- البقرة : ٦٨ .

٢- انظر صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم ١٧٨/٢ .

٣- الفارض : المسنة وسمي المسن من البقر فارضاً لكونه فارضاً للأرض أي قاطعاً لها أو فارضاً لما يُحمل من الأعمال الشاقة (انظر العمدة في غريب القرآن ص ٧٧ وانظر المفردات في غريب القرآن ص ٣٦٧) .

٤- البكر : هي الصغيرة قال الراغب : (هي التي لم تلد وسميت التي لم تفتض بكرة اعتباراً بالثيب لتقدمها عليها فيما يراد له النساء) (انظر العمدة في غريب القرآن ص ٧٧ ، المفردات في غريب القرآن ص ٥٨) .

٥- عوان : العوان هي المتوسطة في السن وصح إضافة « بين » إلى أسم الإشارة « ذلك » لأنه أشير به إلى الفارض والبكر (انظر المفردات في غريب القرآن ص ٣٥٤) .

٦، ٧، ٨، ٩- البقرة : ٦٨ .

يقصد به قطع العذر مع الحث على الطاعة والامتثال أي إذا كان الأمر كذلك فبادروا إلى تنفيذ ما تؤمرون به لتصلوا إلى معرفة القاتل الحقيقي بأيسر الطرق .

ولا تضيّقوا على أنفسكم ما وسعه الله عليكم، ولا تكثروا من المراجعة فإنها ليست من مصلحتكم ..

ومع ذلك فقد أبوا إلا التنتطح والاستقصاء مع السؤال فأخذوا يسألون عن لونها بعد أن عرفوا سننها فقالوا كما حكى القرآن عنهم :-

﴿ اِدْعُ لَنَا رَبَّنَا يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ﴾^(١) أي سل ربك يبين لنا مالونها لكي يسهل علينا الحصول عليها .

قال الشيخ عبد الرحمن الدوسري - رحمه الله - :-

(وأي حاجة لهم في لونها ؛ ولقد أرشدهم الله إلى ماهيتها وأنها بقرة متوسطة السن ومتوسطة السن من الخيار فهلا يكفيهم ذلك؟)^(٢) .

ثم شدد الله عليهم في وصفها كما جاء على لسان موسى - عليه السلام - في القرآن الكريم :-

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ^(٣) فَاقِعٌ لَوْنُهَا^(٤) تَسُرُّ النَّاظِرِينَ^(٥) ﴾

١- البقرة: ٦٩ .

٢- انظر صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم ١٧٨/٢ - ١٧٩ .

٣- صفراء: قال الراغب: الصفرة لون من الألوان التي بين السواد والبياض وهي إلى السواد أقرب (المفردات في غريب القرآن ص ٢٨٣) .

وقال سائر المفسرين: صفراء اللون من الصفرة المعروفة وهو أصح لأنه الظاهر ولأنه قال: (فاقع لونها) والفاقع من صفات الصفرة وليس يوصف السواد بذلك وإنما يقال: أسود حالك، أحمر قان، أبيض ناصع، أخضر ناضر، وأصفر فاقع. (انظر النكت والعيون ١/١٢٢) .

٤- فاقع لونها: أي ناصع، قال الراغب: يقال أصفر فاقع إذا كان صادق الصفرة، كقولهم أسود حالك (المفردات في غريب القرآن ص ٣٨٤) .

٥- البقرة: ٦٩ .

قال ابن جرير الطبري - رحمه الله - في تفسير ذلك :-

(والفقوع في الصفرة نظير النصوع في البياض وهو شدته وصفاءؤه) (١).

فلونها فاقع الصفرة تسر الناظرين في حَلَقِهَا ومنظرها وهيئتها.

فتكونت في أذها نهم صورة البقرة المطلوبة للذبح من حيث السن والصفة واللون ولكن ذلك لم يغنهم عن السؤال مرة أخرى عن ماهية البقرة المأمورين بذبحها متعللين بأن أنواع البقر تتشابه عليهم :

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ (٢)
فقولهم ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ (٣) حملٌ لنبيهم على الدعاء ووعدٌ له بالطاعة والامتثال، ودفعٌ للسامة عن نفسه من كثرة أسئلتهم وتبرير لمسلكتهم في كثرة المراجعة حتى يتفادوا غضبه فكانهم يقولون له : اجتهد في الدعاء من أجل أن يزيدنا ربك إيضاحاً وكشفاً لحال تلك البقرة التي تريد منا أن نذبحها وإنا إن شاء الله بسبب الإيضاح سنهتدي إليها ثم إلى القاتل الحقيقي وبذلك ندرك الحكمة التي من أجلها أمرتنا بذبحها .

وإنما لم يعتذروا في المرتين الأوليين واعتذروا في الثالثة، لأن في التكرير وقعاً في النفس من التأكيد والسامة وغير ذلك، ولذا كثر في أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة (٤).

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لِأَذْلُولٍ ﴾ (٥) تُثِيرُ الْأَرْضَ (٦) وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةً (٧) لِأَشْيَةٍ فِيهَا (٨) (٩) شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم وكلفهم بقيود صعبه المنال لأنهم آذوا

١- جامع البيان في تفسير القرآن ١ / ٢٧٤ .

٢- البقرة : ٧٠ .

٣- البقرة : ٧٠ .

٤- التحرير والتنوير ١ / ٥٥٤ .

٥- لا ذلول : لا تمتهن بالعمل قال الراغب : (أي ليست بصعبة) (انظر العمدة في غريب القرآن ص ٧٨ المفردات في غريب القرآن ص ١٨١) .

٦- تثير الأرض : تقلبها للزراعة . (انظر نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز ص ١٧٦) .

٧- مسلِّمة : بريئة من العيوب (انظر العمدة في غريب القرآن ص ٧٨) .

٨- لاشية فيها : لالون لها سوى لون جميع جلدها قال الراغب : (وشيت الشيء شيئاً جعلت فيه أثراً يخالف معظم لونه) .

قال عطاء : (لا عيب فيها) ، وقال مجاهد : (لابياض فيها ولا سواد) (المفردات في غريب القرآن ص ٥٢٤ وانظر معالم التنزيل ١ / ١٠٨) .

٩- البقرة : ٧١ .

نبيهم، وتعنتوا عليه في السؤال في حين أنه كان يجزئهم ذبح أي بقرة ولكنهم ضيقوا على أنفسهم فزادهم الله ضيقاً وتشديداً في الأوصاف والقيود فطلب منهم بقرة سائمة ليست مذلةً بالعمل في الحراثة ولا في السقي، وهي بعد ذلك سليمة من كل عيب ليس فيها لون يخالف لونها الأصفر.

فلما اكتملت الصورة لهم كما أرادوا قالوا كما جاء في القرآن الكريم:

﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾^(١)

وفي قوله سبحانه ﴿ الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾^(٢) شروح وتفاريع للمفسرين أعدلهم من قال: ﴿ الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾^(٣) أي بينت لنا الحق فاتضح وعرنا أي بقرة عنيت.

يقول الشيخ عبد الرحمن الدوسري - رحمه الله -:

(إن قول بني إسرائيل ﴿ الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾^(٤) هراء من القول، وخطأ وجهل من الأمر، لأن نبي الله موسى كان مبيناً لهم في كل مسألة سألوها في أمر البقرة، وإنما يقال ذلك لمن لم يكن مبيناً قبل ذلك، فأما من كان جميع قوله فيما بلغه عن الله حقاً وبياناً، فغير جائز أن يقال له في بعضه دون بعض ﴿ الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾^(٥) كأنه لم يكن جاءهم بالحق قبل ذلك)^(٦)

وقولهم هذا يعد جهالة من بعض جهالاتهم.

وقوله سبحانه ﴿ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾^(٧).

يعني ذبح قوم موسى - عليه السلام - تلك البقرة التي وصفناها لهم وما كادوا يذبحونها.

قال الزمخشري - رحمه الله -:

١، ٢، ٣ - البقرة : ٧١ .

٤، ٥ - البقرة : ٧١ .

٦ - صفوة الآثار والمفاهيم في تفسير القرآن العظيم ١٧٦/٢ .

٧ - البقرة : ٧١ .

٨ - البقرة : ٧١ .

﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾^(٨) استثقال لاستقصائهم، وأنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم ما كادوا يذبحونها وما كادت تنتهي أسئلتهم وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم.

وقيل: ما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها.

وقيل: لحوف الفضيحة من ظهور القاتل^(١)

ومن تتبع سيرة القوم المتوية، وطباعهم الخسيصة جزم من حرف (كاد) الذي اختاره الله أنهم كادوا لا يفعلون، لأن الشروط قد تضاعفت بتضاعف تلكتهم، والأمر قد تعقد عليهم وضاق مجال الاختيار حيث ضيقوا على أنفسهم، ولولا حاجتهم الملحة الشديدة لكشف الغمة التي حلت بهم من القتل الذي سيجري بسببه مجزرة عظيمة مذبوحها لصعوبتها، ولهذا قال العليم الخبير: ﴿ فَذَبَّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾^(٢)

ثم كشف الله تعالى بعد ذلك الغاية التي من أجلها أمروا بذبح البقرة وهي حادثة القتل التي اتهم بعضهم فيها البعض الآخر كما جاء في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾^(٣)

حيث أخذ كل فريق منهم يدفع التهمة عن نفسه ويلصقها بغيره لشدة ما بينهم من الإحن والعدوات، حتى كادوا أن يقتتلوا جميعاً، ولما سألوا موسى الكشف عن الحقيقة قال لهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً ﴾^(٤)، وجرى منهم من التعنت على موسى - عليه

١- الكشاف عن حقائق التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل ١/ ٢٨٨ .

٢- البقرة : ٧١ .

٣- البقرة : ٧٢ .

٤- البقرة : ٦٧ .

السلام- واتهامه وكثرة الإلحاح معه في السؤال عن صفات البقرة مما جلب عليهم التشديد .
وقد أضاف الله الجريمة إلى الجميع بقوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾^(١)، مع أنّ القاتل بعضهم
للإشعار بأن الأمة في مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد، ولأنهم مسؤولون عنها جميعاً
حتى يجتهدوا بنصح وإخلاص خالٍ من الحمية والعصية في كشف المجرم ليلقى جزاءه .

وقوله ﴿فَادَارَأْتُمْ﴾^(٢) بيان لما حصل منهم بعد قتل النفس من الاختلاف والتخاصم
في شأنها، كل سبب يدرأ الجريمة عن حزبه ويتهم بها الآخرين .

وقد انكشفت حكمة الله لنبى إسرائيل من ذبح البقرة وأخرج الله ما كانوا يكتُمونه من
أمر القتل الذي بسببه كادت تعمهم الفتنة والنقمة، فصار ذبح البقرة وسيلةً إلى إحيائه ،
ليخبرهم بنفسه عن قتله .

وإنما أراد الله - سبحانه وتعالى - كشف حال من قتل القتل مع أنّ دمه ليس أول دم
ظلّ إكراماً لموسى - عليه السلام - أن يضيع دم قومه وهو بين أظهرهم وبمراى منه ومسمع ولا
سيما وقد قصد القاتلون استغفاله، ودبروا المكيدة في إظهارهم المطالبة بدمه، فلو لم يُظهر الله
تعالى هذا الدم لضَعْفَ يَقِينُ القوم برسولهم، ولكان ذلك مما يزيدهم شكاً في صدقه فينقلبوا
كافرين، فكان إظهاره كرامة لموسى - عليه السلام - ورحمةً بالأمة لئلا تضل^(٣) .

وبعد أن تم ذبح البقرة جاءهم الأمر الإلهي بضرب القتل بجزء منها كما ورد في قوله
تعالى :

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٤)

﴿اضْرِبُوهُ بَعْضِهَا﴾^(٥) أي بجزء منها غير معين، بل اختاروا أنتم قطعة منها واضربوه

١، ٢- البقرة : ٧٣ .
٣- انظر التحرير والتنوير ١ / ٥٦١ .
٤، ٥- البقرة : ٧٣ .

بها، وجعلهم يتولون أمر الضرب هم بأنفسهم ويباشرونه دون موسى -عليه السلام-، لأن الله يعرف دفاثن أنفسهم الخبيثة، وأنه لو ضربه موسى -عليه السلام- ببعضها من دونهم لرموه بالسحر والشعوذة، أو زعموا أن هذا من خصائصه، كاليد والعصا... ولكن جاء أمر الله بوسيلة يبشرونها بأنفسهم لينقطعوا أمام حجة الله البالغة وآياته التي هي فوق مستوى أي بشر ولذا قال تعالى:

﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١).

لقد دفع الله الباطل وأظهر الحق وبرهن لهم على قدرته في إحياء الموتى إحياءً حسيماً، وإحياءً معنوياً.

يقول الشيخ عبد الرحمن الدوسري -رحمه الله-:

(أراهم الله بالعيان نوعي الإحياء الحسي والمعنوي، فالحسي إحياء القتل وقيامه من

بينهم وهم ينظرون.

وأما الإحياء الثاني فهو إنجاؤه للفريقين المتخاصمين، بل لعدة فرق وأسباط، أو لكل الأسباط الذين تجرهم الفتنة إلى قتال يفنون فيه، فالله أنقذهم من الموت المحقق الشنيع الذي سيجري عليهم بالتقاتل، وذلك بإحياء القتل وإخباره إياهم بالذي قتله)^(٢).

ففي إحياء القتل وهم يُشاهدون دليلٌ على قدرة الله في إحياء الموتى، لأن من أحيأ نفساً واحدة بعد موتها قادرٌ على إحياء جميع النفوس، وقد صرَّح بهذا في قوله تعالى ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾^(٣).

١- البقرة: ٧٣.

٢- صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٨١ - ١٨٢.

٣- لقمان: ٢٨.

فهذا الحوار بين موسى -عليه السلام- وبين بني إسرائيل يدل على ما يتصف به القوم من التنطع في الدين والتعنت في الأسئلة، والإساءة إلى نبيهم موسى -عليه السلام- وعدم اعتبارهم بالعظات لقساوة قلوبهم، وسوء طباعهم وانطماس بصيرتهم ومن يضل الله فما له من هاد.

ثانياً: مشروعية طلب العلم والحث عليه :

تكبد موسى عليه السلام المشاق وقطع المسافات الطويلة في سبيل طلب العلم ولقيا العلماء ومصاحبتهم والأخذ عنهم .

يدل على ذلك تلك الرحلة التي قام بها مع فتاه يوشع من أجل أن يلقي الخضر ويستفيد منه .

ومعلوم قطعاً أن موسى -عليه السلام- أفضل من الخضر لأن الله اصطفاه بالكلام وجعله رسولاً لجميع بني إسرائيل وشريعة التوراه شريعة لجميع أنبيائهم .

وأما الخضر -عليه السلام- فأكثر ما قيل في فضله أنه نبي أو ولي، والرسول أفضل منهما باتفاق كما أن النبي أفضل من الولي كما هو معروف في الشرع وقرره غير واحد من العلماء .

وخبر رحلة موسى -عليه السلام- إلى الخضر جاء بيانها في القرآن والسنة الصحيحة قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ^(١) أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ^(٢) ﴾

وهذا مما يؤكد عزم موسى -عليه السلام- على السفر والسير حتى يلقي الخضر عند

١- اختلف في مكان مجمع البحرين على أقوال :

(١) قال قتادة هما بحر فارس والروم .

(٢) وعن السدي أنهما الكر والرس حيث يصبان في البحر .

(٣) وقال ابن عطية : مجمع البحرين ذراع في أرض فارس من جهة أذربيجان يخرج من البحر المحيط من شماليه إلى جنوبيه وطرفيه مما يلي بر الشام .

(٤) وقيل هما بحر الأردن والقلمزم .

(٥) وقال محمد بن كعب القرظي مجمع البحرين بطنجة .

انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري كتاب التفسير باب ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ ٤١٠ / ٨ .

٢- الكهف : ٦٠ .

مجمع البحرين أو يمضي أعواماً عديدة .

روي عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس إن نوحا البكالي^(١) يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل قال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنا أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

(إن موسى قام خطيباً في بني اسرائيل فسئل أيُّ الناس أعلم ؟ قال : أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يارب وكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل^(٢) فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ثم انطلق ، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليهما السلام حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رأسيهما فناما ، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً^(٣) وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا ببقية يومهما وليتهدما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه ﴿ آتَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾^(٤) ولم يجد موسى - عليه السلام - النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ، قال له فتاه : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾^(٥) قال فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجبا ، فقال : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾^(٦) قال : فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل

١- هو نوحا بن فضاله الحميري البكالي منسوب إلى بني بكال بن دهمي بن سعد بن عوف بطن من حمير .
يقال إنه ابن امرأة كعب الأحبار وقيل ابن أخيه وهو تابعي صدوق . (انظر تهذيب التهذيب ٤ / ٢٤٩ ، وانظر تهذيب الكمال في أسماء الرجال ٣٠ / ٦٥ . للحافظ جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي حقه وضبط نصه : د . بشار عواد معروف الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ الناشر مؤسسة الرسالة - بيروت) . .
٢- المكتل : الزبيل الكبير قيل إنه يسع خمسة عشر صاعا ، يقال كان فيه كتلٌ من التمر : أي قطع مجتمعة ويجمع مكتل على مكاتل (انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٤ / ١٥٠) .
٣- السرب : المسلك في خفيه (انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٢ / ٣٥٦) .

٤- الكهف : ٦٢

٥- الكهف : ٦٣ .

٦- الكهف : ٦٤ .

مسجى بثوب فسلم عليه موسى - عليه السلام - فقال الخضر وأنى بأرضك السلام . فقال أنا موسى .

فقال موسى بني إسرائيل قال : نعم قال : أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾^(١) يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه فقال موسى : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾^(٢) قال له الخضر ﴿ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾^(٣) .

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول^(٤) فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قد حملونا بغير نول فعمدت إلى سفينتهم فغرقتهم لتفرق أهلها ؛ لقد جئت شيئاً إمرأ ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ * قَالَ لَا تَوَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿^(٥) قال : وقال رسول الله ﷺ فكانت الأولى من موسى نسياناً قال : وجاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين فقال له الخضر : ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور في هذا البحر ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى : ﴿ أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿^(٦) قال : وهذه أشد من الأولى ، ﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾^(٧) أي مائلاً فقال الخضر بيده (فأقامه) فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا :

١- الكهف : ٦٧ .

٢- الكهف : ٦٩ .

٣- الكهف : ٧٠ .

٤- بغير نول : أي بغير أجر ولا جعل وهو مصدر ناله ينوله إذا أعطاه (انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ١٢٩ / ٥) وانظر غريب الحديث ٢ / ٤٤٢ .

٥- الكهف : ٧٢-٧٣ .

٦- الكهف : ٧٤-٧٥ .

٧- الكهف ٧٦-٧٧ .

﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنَيْكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(١) فقال رسول الله ﷺ «وَدِدْنَا أَنْ مُوسَى كَانَ صَبِيرًا حَتَّى يَقْصَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَيْرِهِمَا» قال سعيد بن جبیر -رحمه الله- : كان ابن عباس -رضي الله عنهما- يقرأ :
(وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) وكان يقرأ : (وأما الغلام فكان كافرا
وكان أبواه مؤمنين)^(٢).

ثم يورد السياق القرآني تفسير ما أشكل أمره على موسى -عليه السلام- وما لم يستطع عليه صبرا فيقول عز وجل :

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ * وَأَمَّا الْغُلَامُ^(٣) فَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(٤).

وفي هذه القصة الجليلة، من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير منها :

١- فضيلة العلم والحث على السفر في طلبه، فموسى -عليه السلام- اختار السفر

١- الكهف : ٧٧-٧٨ .

٢- سبق تخريجه ص ١٥٨ .

٣- روي عن شعيب الجبائي أن اسم الملك هو هدد بن يدد وهو مذكور في التوراة في ذرية العيص بن إسحاق وقد كان ظالما يأخذ كل سفينة صالحة تمر في طريقها عليه غصبا من أصحابها فأعاب الخضر تلك السفينة حتى يرده عنها لعيبها ولينتفع بها أصحابها المساكين (انظر تفسير القرآن العظيم ٩٩/٣) .

٤- الغلام الطائر الشارب والجمع - غلّمة وغلّمان (انظر المفردات في غريب القرآن ص ٣٦٤) . واسمه حينئذ وقد طبع على الكفر كما جاء عن الرسول ﷺ إنه قال (الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا) رواه مسلم وروي عن قتاده أنه قال : فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقي لكان فيه هلاكهما فليرض امرء بقضاء الله فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب وقد ورد أنهم بدلا بجارية وقيل لما قتله الخضر كانت أمه حاملا بغلام مسلم . قاله ابن جريح (انظر تفسير القرآن العظيم ٩٩/٣) .

٥- الكهف : ٧٩-٨٢ .

- لطلب العلم ولقى النصب في طلبه على القعود عند بني إسرائيل .
- ٢- البداية بالأهم فالمهم، فإن زيادة العلم وعلم الإنسان أهم من تركه والاشتغال بالتعليم، من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل .
- ٣- جواز أخذ الخادم في الحضر والسفر لكفاية المؤنة، كما فعل موسى عليه السلام حينما اصطحب فتاه يوشع بن نون .
- ٤- أن المسافر لطلب علمٍ أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه وأين يريد فإنه أكمل من كتمانته .
- لأن في إظهاره فوائد مثل الاستعداد له، واتخاذ عدته، وإتيان الأمر على بصيرة، وإظهار الشوق لهذه العبادة الجليلة كما قال موسى -عليه السلام-:
- ﴿ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾^(١)
- وقد أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوكاً^(٢)، بوجهه ، مع أن عاداته التورية وذلك تبعٌ للمصلحة .
- ٥- إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه التسويل والتزيين وإن كان الكل بقضاء الله وقدره .
- ٦- جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس، من نصب وجوع، أو عطش، إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقاً لقول موسى -عليه السلام-:
- ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾^(٣) .
- ٧- استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعاً، لأن ظاهر قوله:
- ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾^(٤) إضافة إلى الجميع، يدل على أنهما أكلا معاً .

١- الكهف: ٦٠ .
 ٢- تبوك موضع بين وادي القرى والشام وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب إلى النبي ﷺ وقد توجه إليها النبي ﷺ غازياً في سنة تسع من الهجرة وكانت آخر غزواته (انظر معجم البلدان ١٤/٢) .
 ٣، ٤- الكهف: ٦٢ .

٨- أن العلم الذي يُعلِّمه الله لعباده نوعان :

أ- علم مكتسبٌ يدركه العبد بجِدِّه واجتهاده .

ب- وعلم لَدُنِّي، يهبه الله لمن يمين عليه من عباده لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾^(١)

٩- الحث على التأدب مع المعلم والخضوع له، لقول موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ

عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾^(٢) فأخرج الكلام بصورة الملائمة والمشاورة..

فالذل للمعلم، وإظهار الحاجة إلى تعليمه، من أنفع شيء للمتعلم .

وإن كان المتعلم أرفع درجة من المعلم فموسى -عليه السلام- بلاشك أفضل من

الخضر فعلى هذا لا ينبغي للفقير المحدث إذا كان قاصراً في علم النحو مثلاً أو

الصرف أو نحوهما من العلوم، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه، وإن لم يكن محدثاً ولا

فقيهاً .

١٠- الحث على إضافة العلم وغيره من الفضائل، إلى الله تعالى والإقرار بذلك وشكر

الله عليها لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾^(٣) أي مما علمك الله تعالى .

١١- الحث على الصبر في طلب العلم، وصحبة العلماء، وحسن الثبات على ذلك،

لأن من لا صبر له، لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولا زمه، أدرك به كل أمر

سعى فيه لقول الخضر ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(٤) حيث وضع الخضر

لموسى أن السبب المانع في الأخذ عنه أنه قد لا يصبر معه لما قد يراه من أمور غير

مألوفه في أول الأمر .

١٢- على الداعية أن يتحلى بالانضباط والتثبت، فلا يسارع إلى الاعتراض فيما يوجه

إليه من أوامر، وفيما يشاهده من أعمال تخالف ما هو مألوف لديه، لأن ذلك قد

١- الكهف: ٦٥ .

٢- الكهف: ٦٦ .

٣- الكهف: ٦٦ .

٤- الكهف: ٦٧ .

يوجب الارتباك في العمل ، بل يؤخر ذلك إلى الظرف المناسب والمكان المناسب ، حيث يكون من الممكن من وجهة عمليه القيام بما يريد من إثارة السؤال والجواب .

١٣- تعليق الأمور المستقبلية التي من أفعال العباد بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل، إلا أن يقول «إن شاء الله» .

١٤- أن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله، فإن موسى -عليه السلام- قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾^(١) فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل .

١٥- أن عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة، جائز ولو بلا إذن حتى ولو ترتب على عمله، إتلاف بعض مال غيره كما خرق الخضر السفينه لتعيب، فتسلم من غضب الملك الظالم .

١٦- إن على المؤمنين، أن يتقبلوا بالصبر والتسليم ما يلقي إليهم من أحكام الله، مما لا يتفق مع الأفكار التي يألّفونها، لأن الله سبحانه أعلم بجهات الصلاح والفساد، فإن حدثت لديهم شبهة في أي أمر من ذلك فليتهموا أفكارهم- في البداية - وليحاولوا البحث - بعد ذلك عن طبيعة الحكم وحيثيته ليصلوا إليه في نهاية المطاف^(٢) .

١- الكهف: ٦٩ .

٢- انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٥/ ٦٣-٧١، وانظر قصص الأنبياء (فصول في ذكر ما قص الله علينا في كتابه من أخبار الأنبياء مع أقوامهم ص ١٠٤-١١٦ تأليف الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي اعتنى به وعلق عليه: أبو محمد أشرف بن عبدالمقصود الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ الناشر: مكتبة أضواء السلف - الرياض .

ثالثاً: جملة من الأحكام في القصاص والدية والحدود:

إن مما نهى الله عنه في جميع الشرائع وحرمه تحريماً قاطعاً القتل ظلماً، وتحريم الزنا واللواط والفواحش عموماً وتحريم أكل المال بالباطل وتحريم الربا والبخل، وعقوق الوالدين وإيذاء الجار وغير ذلك.

قال تعالى:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾^(١).

وقال في تحريم الربا وأكل المال بالباطل:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبَصَدَهُم بَعْدَ ذَلِكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَد نُهُوا عَنْهُ وَأَكَلَهُمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٢)

ومن ذلك تحريم نكاح المحارم عليهم، وتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير حق والقول على الله بلا علم كما في قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية—رحمه الله: (فهذه الأشياء محرمة في جميع الشرائع وبتحريمها بعث الله جميع الرسل ولم يُبح منها شيئاً قط)^(٤).

١- المائدة: ٤٥

٢- النساء: ١٦٠-١٦١ .

٣- الأعراف: ٣٣ .

٤- مجموع الفتاوى ١٤ / ٤٧٠ .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في أول سورة الإسراء تقريباً من عند قوله ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (١).

وأكثر السور المكية إنما جاءت لتقرر أصول العبادات والشرائع المتفق عليها في الجملة ومن ذلك حفظ الضروريات الخمس وإن اختلفت الشرائع في طريق حفظها.

فمثلاً القصاص شرع في التوراه بأن تقتل النفس القاتلة بغير حق بالنفس المقتولة إذا لم يعف أولياؤها، وأن تُفقأ عين من فقأ عين غيره ظلماً ما لم يعف المجني عليه، وهكذا يجردع الأنف بالأنف، وتقلع السن بالسن، وتقطع الأذن بالأذن، والجروح قصاص، فيقتص من الظالم للمجروح بقدر جرحه.

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢)

فالضمير في قوله ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ لليهود والمراد بقوله ﴿ فِيهَا ﴾ التوراة وهي شريعة بني اسرائيل قبل مجئ الإسلام.

وهذا موافق لشريعة الإسلام كما قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣).

١- الإسراء: ٢٣ .

٢- المائدة: ٤٥ .

٣- البقرة: ١٧٨ .

ففي شريعة الإسلام زيادة تشريع أخذ الدية، وهذا مما زادت فيه عن شريعة التوراة.

وفي البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: « كان في بني إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية فقال الله لهذه الأمة: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾^(١) فالعفو أن يقبل الدية في العمد ﴿ فَاتَّبَاعَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءَ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾^(٢) يتبع بالمعروف ويؤدي بإحسان ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾^(٣) مما كتب على من كان قبلكم: ﴿ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(٤) قتل بعد قبول الدية^(٥).

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى إن القصاص في شريعة التوراة لا يشترط فيه التكافؤ بين الجاني والمجني عليه فيقتصر من المسلم للكافر، ومن الحر للعبد، ومن الذكر للأنثى، لا فرق بين نفس ونفس كما هو ظاهر الآية.

وهذا العموم مخالف لشرعنا في الإسلام لقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ ﴾^(٦) وقد اختلف العلماء في ذلك وفصلوا الكلام فيه. والراجح الذي أراه في هذه المسألة هو ما ذهب إليه الجمهور من العلماء:

ألا يقتل مسلم بكافر مطلقاً ولا يقتل حرُّ بعبدٍ مطلقاً ويقتل الذكر بالأنثى إذا اتفقا في الحرية والدين أو كان المجني عليه أعلى من الجاني.

ومن المسائل أيضاً المتعلقة بهذا المبحث:

١، ٢، ٣، ٤- البقرة: ١٧٨.

٥- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الديات باب من قتل له قتيلاً ٣٩/٨.

٦- البقرة: ١٧٨.

تحريم القتل بغير حق وعظيم شأنه والمبالغة في التحذير منه، ومنه قتل الإنسان نفسه كما قال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (١).

وفي تحريم الانتحار ما جاء في الحديث عن طريق جندب بن عبد الله (٢) رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ كان فيمن كان قبلكم رجل له جرح فجزع فأخذ سكيناً فحز بها يده، فما رقأ الدم حتى مات قال الله تعالى في حديث قدسي « بادرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة » (٣).

الحدود:

حد الزاني المحصن الرجم في شريعة التوراة يدل عليه ما ثبت من طريق ابن عمر (٤) -رضي الله عنهما-:

« أن اليهود جاءوا النبي ﷺ برجل وامرأة منهما قد زنيا، فقال: ماتجدون في كتابكم؛ فقالوا: تسخم وجوههما (٥) ويخزيان (٦)، قال: كذبتن إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فجاءوا بالتوراة وجاءوا بقارئ لهم فقرأ حتى إذا انتهى إلى موضع منها وضع يده عليها، فقيل له: ارفع يدك، فرفع يده فإذا هي تلوح، فقال: أو قالوا يا محمد إن فيها

١- المائدة: ٣٢.

٢- هو جندب بن عبد الله بن سفيان، الإمام أبو عبد الله البجلي العقلي صاحب النبي ﷺ نزل الكوفة والبصرة وله عدة أحاديث بقي جندب بن عبد الله إلى حدود سنة سبعين رضي الله عنه (انظر الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٦١٣-٦١٤ رقم (١٢٢٦) وانظر سير أعلام النبلاء ٣/ ١٧٤-١٧٥).

٣- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٤/ ١٤٦.

٤- هو عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب الإمام القديرة شيخ الإسلام أبو عبد الرحمن القرشي العدوي. أسلم وهو صغير وهاجر مع أبيه أول غزواته الخندق، روى علماً كثيراً نافعاً عن النبي ﷺ وعن أبيه توفي بمكة سنة ثلاث وسبعين ودفن بذي طوى وعمره سبع وثمانون سنة (انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣/ ٣٣٦-٣٤١ ترجمة رقم (٣٨٢)، وانظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٣/ ٢٨-٣١ ترجمة رقم ٣٢١، وانظر سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٠٢-٢٣٢).

٥- تسخم وجوههما: أي تسود والسخام: سواد القدر (انظر غريب الحديث ١/ ٤٦٩).

٦- يخزيان من خزي يخزي خزيا: أي ذل وهان (انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٣٠).

الرجم ولكن كنا نتكأتمه بيننا . فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما، قال : فلقد رأيتاه يجنأ (١)
عليها يقيها الحجارة بنفسه(٢) .

ووجه ثبوت الرجم في التوراة مأخوذ من تقرير الرسول ﷺ على أن في التوراة الرجم قبل أن
يحضروها إليه .

١- يجنأ أي يكب ويميل عليها ليقبها الحجارة وفي رواية أخرى (فلقد رأيتاه يجانئ عليها) من جانأ يجني (انظر
النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٣٠٢، وانظر غريب الحديث ١/ ١٧٥) .
٢- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب التوحيد باب ما يجوز من تفسير التوراه ٨/ ٢١٣-٢١٤، وأخرجه
الإمام مسلم كتاب الحدود باب رجم اليهود أفعل الذمة ٣/ ١٣٢٦ رقم ١٦٩٩ .

المطلب الثالث : جملة من الأحكام في مواضع متفرقة

أولاً: مشروعية إتلاف الأصنام والأوثان، بتحريقها أو تكسيرها ولو كانت مصنوعة من ذهب، وأنه لا ضمان على من أتلّفها، يدل على ذلك إتلاف موسى -عليه السلام- العجل الذي اتخذه بنو إسرائيل إلهاً وقت ذهابه لميقات ربه، وكان مصنوعاً من ذهب - كما سبق ذكره^(١) - حيث حرّقه موسى ونسفه في اليم نسفاً كما جاء في قوله تعالى:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾^(٢)

وقوله ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِي﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُْحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾^(٣). فموسى -عليه السلام- على الرغم من أنه أتلّف العجل المصنوع من الذهب إلا أنه لم يضمّنه، لأن هذه الأوثان مأمور بإتلافها وإزالتها، كما أنه يحرم بيعها أو الانتفاع بها فلا ضمان على متلفها كالميتة بل عاقب عليه السلام هنا صانع هذا العجل بالنفي والنهي عن مخالطته.

قال ابن تيمية رحمه الله:

(المنكرات من الأعيان والصفات يجوز إتلاف محلّها تبعاً لها مثل الأصنام المعبودة من دون الله، لما كانت صورة منكّرة جاز إتلاف مادتها، فإذا كانت حجراً أو خشباً ونحو ذلك جاز تكسيرها وتحريقها، وكذلك آلات الملاحية يجوز إتلافها عند أكثر الفقهاء وهو مذهب مالك^(٤) وأشهر الروايتين عن أحمد، ومثل ذلك أوعية الخمر يجوز تكسيرها وتحريقها)^(٥).

١- ذكرت القصة بطولها في المبحث الأول من الفصل الثاني ص ١٨٩ - ٢٠٧ .

٢- الاعراف: ١٤٨ .

٣- طه: ٨٨-٩٧ .

٤- شيخ الإسلام أبو عبدالله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث ولد في سنة ثلاث وتسعين ونشأ في عز ورفاهية، طلب العلم وهو حدث وتأهل للفتيا وجلس للإفادة وهو ابن إحدى وعشرين سنة وحدث عنه جماعة وهو حي، وقصده طلبية العلم من الآفاق، له مؤلفات عدة منها الموطأ ورسالة في القدر ومؤلف في النجوم ومنازل القمر وغير ذلك كثير توفي رحمه الله سنة تسع وسبعين ومائة وعمره تسع وثمانون سنة (انظر سير أعلام النبلاء ٤٨/١٣٠).

٥- مجموع الفتاوى ١١٣/٢٨ .

وإذا جازت كسير الأصنام ونحوها من المحرمات وإتلافها، فلا ضمان فيها لأنه مأثور به شرعاً.
 ثانياً: مشروعية إعفاء اللحية وشعر الرأس في شريعة موسى عليه السلام، يدل على ذلك حوار موسى مع أخيه هارون -عليهما السلام- كما جاء في القرآن الكريم:
 ﴿قَالَ يَا بَنُومَ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾^(١)

والأخذ باللحية لا يكون إلا إذا كانت كثيفة الشعر كالرأس ولهذا قيل إن موسى -عليه السلام- أخذ بشعر رأس أخيه هارون بيمينه وأخذ بشعر لحيته بيساره لأن الغيرة لله ملكته.
 وقد طلب هارون من أخيه موسى عليه السلام أن لا يفعل ذلك به حتى لا يتوهم بنو إسرائيل أن هذا من باب الاستخفاف والعقوبة من موسى -عليه السلام-.
 ولا شك في أن موسى -عليه السلام- إنما فعل ذلك بأخيه في حالة الغضب كما أخبر الله عنه في قوله:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

وجاء في صفة موسى عليه السلام أنه مسترسل الشعر، وكذلك في صفة إبراهيم -عليه السلام- أنه أشبه بالنبي ﷺ كما في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

١- طه: ٩٤.
 ٢- الأعراف: ١٥٠.

قال رسول الله ﷺ (ليلة أسري بي رأيت موسى وإذا هو رجل ضرب من رجال شنوءة^(١))، ورأيت عيسى فإذا هو رجل ربعة^(٢) أحمر كأنما خرج من ديماس^(٣) وأنا أشبه ولد إبراهيم به^(٤).

والمقصود أن إعفاء اللحية وإبقاء شعر الرأس كان موجوداً في شريعة موسى عليه السلام ومن سبقه، وإلا لما اتصف به الأنبياء السابقون عليهم السلام.

١- شنوءة: حي من اليمن ينسبون إلى شنوءة: وهو عبدالله بن كعب بن عبدالله بن مالك بن نصر بن الأزد ولقب شنوءة لشنآن كان بينه وبين أهله. قال ابن قتيبة: سمي بذلك من قولك رجل فيه شنوءة أي تقزز والتقزز: التباعد من الإدناس. قال الداودي: رجال الأزد معروفون بالطول والأدمه (انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٤٢٩/٦).

٢- يقال رجل ربعة ومربوع وهو ما بين الطويل والقصير (انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ص ١٩٠).

٣- الديماس: الكن أي كأنه مخدر لم ير شمساً لنضارته وقيل هو السرب المظلم وقد جاء في الحديث مفسراً بأنه الحمام (انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ١٣٣/٢ وانظر غريب الحديث ٣٤٨/١).

٤- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى وكلم الله موسى تكليماً ١٢٥/٤ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات ١٥٤/١ رقم (١٦٨).

ثانياً: الحوار في دعوة موسى عليه السلام لإثبات ما يتعلق بالأخلاق

نهيد:

من تأمل مقاصد الأوامر والنواهي الشرعية، وتأمل في أسرارها عرف أنها ترمي إلى غرض واحد هو طهارة النفس وكمالها الإنساني، الذي تسعد به في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾^(١).

فصلاح الإنسان منوط بسلامة عقيدته وصلاح أعماله ومثانة أخلاقه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «إن من خياركم أحاسنكم أخلاقاً»^(٢).

وروي أيضاً عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلقٍ حسن، وإن الله يبيغض الفاحش البذيء»^(٣).

فالحاجة إلى علم الأخلاق ماسةٌ لاسيما إذا انتشرت المفاصد، وعمت المنكرات فهو طبها وواصف دوائها، فالطب مثلاً تشتد الحاجة إليه كلما انتشرت الأمراض بين الناس من أجل مقاومتها وإنقاذ الناس منها، وكذا الأخلاق فالحاجة إليها تشتد كلما انتشرت المفاصد.

ولئن كان الإنسان في حاجة إلى العلوم فهو إلى الأخلاق أحوج، لأن ما يصيب المجتمع من الظلم، وما يفشو بين أفرادهِ من الإجرام، منشؤه نقص الأخلاق، أكثر من أن يكون منشؤه نقص العلم فإن العلم يخدم الفضيلة والرذيلة على حد سواء، أما علم الأخلاق فظهير الفضيلة وخصيم الرذيلة، فمن كان ذا جاهٍ وكرمت أخلاقه استخدم جاهه في مساعدة الضعفاء، وقضاء حاجات المحتاجين، وإذا ساءت أخلاق ذي الجاه توصل به إلى الشر. كذلك من أعطي

١- سورة العصر.

٢- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الادب باب حسن الخلق والسخاء ٨٢/٨ .

٣- أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤٤٢/٦، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥١، وأخرجه أبو داود في كتاب الادب باب في حسن الخلق ٤/٢٥٣ رقم ٤٧٩٩، وأخرجه الترمذي في كتاب البر باب ماجاء في حسن الخلق ٣/٢٤٤ رقم ٢٠٧٠، قال الترمذي (هذا حديث حسن صحيح).

المال، فإن كانت أخلاقه حسنة بُذل ماله في صنوف الخير، وإن كان شريراً ابتاع به شراً، والكاتب إذا لم يكن أميناً كانت معرفته للكتابة وسيلةً تمكّنه من تزوير العقود والوثائق وهكذا.

تعريف الأخلاق:

الخلق هو السجية والطبع. يقال: تخلّق بخلق كذا: أي تطبّع به وخلّقه تخليقاً: طيبه فتخلق به والمخلوق التام الخلق^(١)

ورجل خليق بين القوم: أي تام الخلق معتدل

واشتقاق خليق وما أخلقه من الخلاقة وهي التمرين.

ومن ذلك أن تقول للذي قد أَلِفَ شيئاً: صار ذلك له خلقاً أي مرّن عليه^(٢).

والمرأة خلاقة: أي حسن خلقها، وقصيدة مخلوقة: أي منحولة.

وخالقه مخالقةً وخلاقاً: عاشره على أخلاقه وفلان تخلّق بغير خلقه: أي تكلف أن

يظهر من خلقه خلاف ما ينطوي عليه^(٣).

وعرّف الإمام الغزالي - رحمه الله - الأخلاق في الاصطلاح فقال:

(إن الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، من غير

حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال المحمودة عقلاً وشرعاً،

سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي

المصدر خلقاً سيئاً^(٤).

١- القاموس المحيط ٣/ ٢٣٦ فصل الخاء - باب القاف.

٢- لسان العرب ١١/ ٣٨٠ فصل الخاء - حرف القاف.

٣- المرجع السابق ١١/ ٣٧٥ فصل الخاء حرف القاف.

٤- إحياء علوم الدين ١٥/ ٣ تصنيف الإمام أبي حامد محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ الناشر: الدار البيضاء.

علاقة الأخلاق بالعقيدة :

إن الفضيلة الخلقية التي يستحسنها العقل، وتميل الفطر إلى ممارستها توجب الاعتراف بعناصر القاعدة الإيمانية في الإسلام، وتوجب الإذعان لها والعمل بما تقتضيه، وتنفر وتشمئز من الجحود والاستكبار والتمرد. وذلك لأن عناصر القاعدة الإيمانية عناصر حق توجب الفضيلة الخلقية الإيمان بها والعمل بمقتضاها، وتنفر من جحود الحق والاستكبار عليه، والتمرد على العمل بما يقتضيه.

وكذلك عناصر القاعدة الإيمانية في الإسلام فهي تدفع المؤمنين بها إلى أن يتحلوا بالفضائل الخلقية، وأن يتخلوا عن الرذائل الخلقية، وتعد على ذلك بالظفر برضوان الله واغتنام الأجر العظيم، وتحذر من مغبة ممارسة الرذائل الخلقية وتنذر بسخط الله وبالعقاب الأليم في الآخرة.

ولذلك جعل الرسول ﷺ الحياء شعبة من الإيمان وهو من مكارم الأخلاق، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان^(١)».

وفضائل الأخلاق وما تقتضيه من سلوك أمور يوجبها أو يرغب بها الإيمان ويحث عليها ولذلك جاء عن الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً...»^(٢) فالرسول ﷺ بين لنا من خلال هذا الحديث مدى الترابط بين الإيمان وحسن الخلق.

١- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الإيمان - باب أمور الإيمان ٨/١ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان - باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٦٣/١) رقم ٣٥ .
٢- أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤٧٢/٢ أخرجه أبو داود في كتاب السنة باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ٢٢٠/٤ رقم ٤٦٨٤ وأخرجه الترمذي في كتاب الرضاع باب ما جاء في حق المرأة على زوجها ٣١٥/٢ رقم ١١٧٢ . وقال الترمذي: (هذا حديث حسن صحيح).

علاقة الأخلاق بالأحكام:

إن تطبيق الأحكام في الشريعة الإسلامية لا يكون إلا باتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، فالأحكام التعبدية مثلاً لا تكون إلا لله تبارك وتعالى، وموجب العبادة لله طاعة أمره وشكره على نعمه بإعلان الخضوع له والتقرب إليه .

أما طاعة من تجب طاعته فهي ظاهرة خلقية يدفع إليها أساساً أولي من الأسس الأخلاقية، وهو حب الحق وإيثاره لأن من تجب طاعته فحقه أن يطاع ومن يتمتع بخلق حُبُّ الحق وإيثاره فإن خلقه هذا يدفعه إلى تأدية هذا الحق إلى مستحقه فهو إذن يؤدي حق الطاعة لمستحقها، فيعبد الله حسب أمره، وعلى ما يرضيه .

وأما شكر المنعم على نعمه فهو أيضاً ظاهرة خلقية يدفع إليها حب الحق، وإيثاره لأن المنعم من حقه أن يُشكر، ومن يتمتع بخلق حب الحق فلا بد أن يدفعه خلقه هذا إلى شكر من أنعم عليه .

فالذين يستنكفون عن عبادة الله تعالى محرومون من فضيلة خلقية عظيمة^(١) ولذلك نَبَّه القرآن على أن الاستنكاف عن عبادة الله تعالى استكباراً موجب للعذاب الأليم فقال تعالى:

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنِ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(٢).

١- الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/ ٢٩-٣٠ تأليف عبد الرحمن حسن حنكة الميداني الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ الناشر: دار العلم للطباعة والنشر.

٢- النساء: ١٧٢-١٧٣ .

المطلب الأول: حوار موسى عليه السلام لتزكية النفس وتهذيبها

لما كان الأصل في السلوك الظاهر أن يكون مظهراً تعبيرياً لأحوال النفس وحركاتها، ولما كان السلوك الظاهر عرضة لدوافع النفاق والرياء أو مؤثرات العادة التي لا تعبر عن صدق في الاتجاه القلبي والنفسي .

لما كان كل ذلك كانت عناية التوراة موجهة بالدرجة الأولى لتزكية النفس وتهذيبها، أي تطهيرها من نزغات الشر والإثم، وإزالة حظ الشيطان منها، وتنمية فطرة الخير فيها، متى حصلت في النفس هذه التزكية غدت صالحة لغرس فضائل الأخلاق فيها، وتهذيب طباعها تهذيباً مصلحاً ومقوماً وكابحاً موجهاً، وتهذيب طباع النفس يتهيأ المناخ النفسي الصالح لتفجر منابع الخير .

ومن الطبيعي أنه متى تزكت النفس وتهذبت طباعها استقام السلوك الداخلي والخارجي بمشيئة الله تعالى .

بخلاف العناية بتقويم السلوك الظاهر فقط، فإنه بناء على غير أساس، وكل بناء على غير أساس عرضة للانحيار، يضاف إلى ذلك أن السلوك الظاهر قد لا يكون معبراً تعبيراً صادقاً عن أحوال النفس الداخلية .

ولذلك كان نظر الله تبارك وتعالى في مراقبته لأعمال عباده موجهاً إلى ما في قلوبهم ونفوسهم .

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه - أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ»^(١) وأبان القرآن أن من زكى نفسه فقد أفلح فربط الفلاح بتزكية النفس بالإيمان والتقوى قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾^(٢) .

١- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة - باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله . وفيه زيادة وأعمالكم في آخره . (٤ / ١٩٨٧) رقم ٢٥٦٤ .
٢- الشمس : ٩ - ١٠ .

وقال تبارك وتعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾^(١).

قال ابن كثير رحمه الله:

(قد أفلح من تزكى: أي طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة وتابع ما أنزل الله على الرسول وأقام الصلاة في أوقاتها ابتغاء رضوان الله وطاعة لأمره واجتناباً لنواهيه^(٢)) فتزكية النفس تعد من طلائع الأخلاق التي جاء بها موسى -عليه السلام- وحث قومه عليها.

يقول الإمام القرطبي رحمه الله:

(﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾^(٣) أي أن هذا -يعني ما ورد في الآية من التزكية وإقام الصلاة- موجود في الكتب المنزلة على إبراهيم وموسى -عليهما السلام- ولم يرد أن هذه الألفاظ بعينها في تلك الصحف وإنما هو على المعنى أي أن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف^(٤)).

وللتربية أثر عظيم في تزكية النفس ولذلك كانت من مهمات موسى -عليه السلام- التربوية في حواره مع قومه تزكية نفوسهم.

قال الله عز وجل آمراً موسى -عليه السلام- بالذهاب إلى فرعون ودعوته لتزكية نفسه: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾^(٥).

أمره الله عز وجل أن يحاور الطاغية بأحب أسلوب وأشده جاذبية للقلوب لعله ينتهي ويتقي غضب الله وذلك بأن يتطهر من رجس الطغيان وندس العصيان.

١- الأعلى: ١٤-١٩.

٢- تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٠١.

٣- الأعلى: ١٨.

٤- الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٢٤.

٥- النازعات: ١٧-١٩.

كما نجد أن موسى -عليه السلام- حينما أراد الذهاب لمناجاة ربه وخلف أخاه هارون عليه السلام على بني إسرائيل أوصاه بالإصلاح فيهم وعدم اتباع سبيل المفسدين ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾^(١) .
ومعلوم قطعاً أن الإصلاح يكون بتزكية النفس وتطهيرها، لأن النفس إذا تطهرت من الدنس والعصيان ظهر أثر ذلك على الجوارح .

كما أن القرآن الكريم يصور لنا حال موسى -عليه السلام- وقومه حينما كانوا في التيه وكيف كان موسى -عليه السلام- وهو في أحلك الظروف وأشدّها يدعو قومه ويحثهم على الإصلاح وعدم الفساد: ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾^(٢) .

فموسى -عليه السلام- دعا فرعون وقومه إلى الإصلاح وتزكية النفس وتطهيرها لأن الارتقاء في مراتب الكمال الإيماني موصول بالارتقاء في درجات حسن الخلق كما قال ﷺ :
« أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لأهله ﴾^(٣) .

١- الأعراف: ١٤٢ .

٢- البقرة: ٦٠ .

٣- سبق تخريجه ص ٢٩٤ .

المطلب الثاني: موسى -عليه السلام- وخلق الرفق

من وسائل الدعوة إلى الله أن يتصف الداعية بصفة الرفق والرحمة. فالرفق ظاهرة خلقية يضادها العنف، وهو من ظواهر خُلِقَ الصبر، أو من ظواهر خلق الرحمة أو من ظواهرهما معاً. وقد أوصى الإسلام بالرفق وحثَّ عليه، واعتبر المحروم منه محروماً من خير كثير، فالرفق بالأحياء رحمة توجبها الفضيلة الإنسانية، وتدعوا إليها المشاركة الوجدانية الكريمة، فالأحياء إذا كانوا من ذوات الإرادة المدركة فإن الرفق بهم من شأنه أن يصلح نفوسهم ويؤثر فيهم تأثيراً حسناً ويستعطفهم إلى المطلوب منهم أفضل استعطاف، ومن شأنه أن يُلين عريكتهم وإن كانت صلبة جافة قاسية بخلاف معاملتهم بالعنف فإنه يُؤدِّد صلابة التحدي والعناد وعدم الاستجابة للمطلوب منهم وإن كان حقاً وخيراً. والعنف في معاملة الناس يورث العداوات والأحقاد والرغبة في الانتقام متى سنحت الفرصة لتنفيذه.

أما الرفق في معاملة الناس فهو يؤلف قلوبهم، ويمتلك مودتهم لاسيما رفق الراعي برعيته في إدارة شؤونهم وتسيير أمورهم وفرض الطاعة عليهم^(١).

وأولى الناس بخلق الرفق هم الدعاة وعلى رأسهم الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم-، فالدعوة إلى الله لا تؤثر مالم تقترن بخلق الرفق في دعوة الخلق إلى الحق.

وقد أمر الله موسى وهارون -عليهما السلام- في كتابه الكريم أن يذهبا إلى فرعون ويحاورانه باللين والرفق في دعوتهم إياه فقال تعالى: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾^(٢).

فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم ولا يُهيج الكبرياء الذي يتصف به الطغاة، ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان.

١- انظر الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢/ ٣٥٢.

٢- طه: ٤٣-٤٤.

والقول اللين الذي أشارت إليه الآية الكريمة ذكره الله تعالى في سورة النازعات :
﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُنِي * وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾^(١) . فهذا الخطاب صريح في بيان الحق ولكنه رقيق لا يجد المبطل فيه إثارة لنفسه المثقلة بالباطل .
ويقول الشيخ عبد الكريم زيدان^(٢) :

(ثم يبلغ اللين والرفق في الخطاب إلى مدى أبعد من ذلك فيقول موسى كما حكاها الله تعالى عنه : ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مِنْ كَذَّبٍ وَتَوَلَّى﴾^(٣) فهذا تحذير لطيف وصادق إلى فرعون إذ لم يوجه موسى -عليه السلام- العذاب إلى فرعون مباشرة وإنما قال : ﴿عَلَيَّ مِنْ كَذَّبٍ وَتَوَلَّى﴾ وهذا فيه ما فيه من لين القول والتلطف في التحرير، ثم يمضي قائلاً : وإذ كان الله تعالى قد أمر موسى -عليه السلام- بالقول اللين مع عصمته وحفظ الله له فغيره أولى بالأخذ باللين والتلطف في الخطاب، فإن القائل باللين ليس بأفضل من موسى، والمقول له ليس بأخبث من فرعون^(٤) .

والم تأمل للقرآن الكريم في معرض التوجيه الرباني لموسى وهارون عليهما السلام نجده يوصيهما بمبادأة الطاغية فرعون بخلق اللين والرفق : ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(٥) .

ولكن الطاغية بلغ به العصيان والعتو درجة الطغيان والغرور فادعى الألوهية والربوبية، واستخف قومه فأطاعوه بقلّة عقولهم وسخافة تفكيرهم .

١- النازعات : ١٨-١٩ .

٢- هو عبد الكريم زيدان بيعج ولد سنة ١٩١٧م في بغداد قام بتدريس علوم الشريعة الإسلامية في كليتي الحقوق والآداب في جامعة بغداد لعدة سنوات منح لقب (أستاذ متميز) بعد تقاعده تقديراً لجهوده . كما منح جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية عام ١٤١٧هـ تقديراً لجهده العلمي أيضاً في كتابه : (المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم) . انظر كتيب أصدرته مؤسسة الملك فيصل في تاريخ ١٣/١١/١٤١٧هـ عن الاحتفال التاسع عشر لمنح جائزة الملك فيصل العالمية) .

٣- طه : ٤٨ .

٤- أصول الدعوة ص ٤٨٠ ، تأليف د. عبد الكريم زيدان، الطبعة السادسة ١٤١٣هـ الناشر: مكتبة القدس - العراق، دار الوفاء - المنصورة .

٥- طه : ٤٣ .

وفي المقابل نجد كلیم الله موسى - عليه السلام - يستعمل اللين والرفق في حوارہ أمام هذا الجبار وذلك استجابةً لنداء الله حيث أمره أن يتلطف معه ليكون ذلك أوقع في النفوس، وأبلغ في الدعوة وأنجع في قبولها.

كما نجد موسى عليه السلام يدعو قومه بالرغم من قساوة قلوبهم - كما وصفهم الله سبحانه ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾^(١) - بأسلوب جذاب حين امتنعوا عن دخول الأرض المقدسة ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾^(٢).

فالرسول في قومه معلّم ومؤدب يقوم بوظيفة تربيتهم بأقوم أساليب التربية والتهذيب، ولما كانت أساليب الشدة والعنف في تربية الناس منفرة لنفوسهم عقيمة الإنتاج فقد أرشد الله رسلّه إلى اتخاذ أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن في توجيههم وتعليمهم وتأديبهم، ثم التدرج بهم إلى التعنيف فالإنذار فالعقوبة^(٣).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ﴾^(٤).

فجميع نصوص الكتاب والسنة الواردة في الأخلاق تُرشد إلى أهمية التحلي بالرفق ومجانبة الغلظة وتؤكد بما لا يحتمل الشك فاعلية هذا الخلق وقيمته التأثيرية.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(٥).

١- البقرة: ٧٤.

٢- المائدة: ٢١.

٣- انظر الأخلاق الإسلامية وأسسها ص ٣١١.

٤- الأنعام: ٩٠.

٥- آل عمران: ١٥٩.

المطلب الثالث: موسى -عليه السلام- وخلق الصبر:

من الأسس العامة التي ترجع إليها مجموعة من الفروع والمفردات الخلقية المحمودة، خلق الصبر.

والصبر في اللغة بمعنى الحبس والكف .

يقال : صبرت نفسي على ذلك الأمر: أي حبستها

وصبرت نفسي عن ذلك الشيء: أي كفتها^(١)

والصبر قوة خلقية من قوى الإرادة، تمكن الإنسان من ضبط نفسه لتحمل المتاعب والمشقات والآلام، وضبطها عن الاندفاع بعوامل الضجر والجزع^(٢). وهو نصف الإيمان، لأن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

وقد عُرِّف الصبر في الاصطلاح بأنه: حبسُ النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش^(٣). ولعل القرآن الكريم لم يذكر خلق من أخلاقه كما فعل في شأن الصبر، فقد ذُكر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً وصف الله عز وجل الصابرين فيها بأوصاف كثيرة، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصابرين فقال عز من قائل: ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٤) وما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٥) ثم إن الله قد جمع لهم بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾^(٦).

١- انظر المصباح المنير ١/ ٣٣١ وانظر الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ٢/ ٧٠٦.

٢- الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢/ ٣٠٥.

٣- تهذيب مدارج السالكين ص ٣٥١-٣٥٢ للإمام ابن قيم الجوزية هذبه: عبد المنعم صالح العلي العزي، الناشر: المكتبة العلمية.

٤- النحل: ٩٦.

٥- الزمر: ١٠.

٦- البقرة: ١٥٧.

كما أن القرآن يحدثنا بأن الصبر صفة ملازمة للأنبياء والمرسلين كما يقول تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾^(١).

فالأنبياء والرسل ومن سار على نهجهم ممن يتصدى للإمامة الدينية أحق الناس بالتحلي بخلق الصبر، وذلك لكثرة ما يتعرضون له من أمور تتطلب الصبر منهم يقول الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(٢) فدل هذا النص القرآني على أن الصبر قد أهل أربابه لمرتبة الإمامة في الدعوة، إذا كانوا مهتدين بهدي كتاب الله.

والتأمل لحوار موسى عليه السلام مع قومه يجد أنه دعا قومه إلى نوعين من الصبر:
النوع الأول: الصبر على ما وافق الهوى:

فالعبد محتاج إلى الصبر فيما وافق الهوى من الصحة والمال والجاه وغير ذلك من ملاءم الدنيا لأن من لم يضبط نفسه عن الانهماك فيها والركون إليها أخرجته ذلك إلى البطر والطغيان.

وهذا ما حصل فعلاً مع قوم موسى -عليه السلام-، فمن تأمل النعم التي أكرم الله بها بني إسرائيل وجد فيها تربية روحية ومعنوية، شاء الله أن يرفع رؤوسهم من حضيض الذل والمهانة، وأن يطهر نفوسهم من رواسب الوثنية التي تأثروا بها في مصر، وأن يقتلع منها جذور الشرك المتأصلة فيها لطول إقامتهم، ولما جُبل الضعيف عليه من تقليد القوي، فإننا نجد في أخبارهم مع موسى -عليه السلام- أموراً عجيبة مع ما يتخللهم الله من سوابغ نعمة المترادفة التي لم تتوافر لغيرهم.

١- الأحقاف: ٣٥.

٢- السجدة: ٢٣-٢٤.

١- فتجدهم لا يعملون حسنة إلا ويتبعونها بسيئة، مع أن هذا خلاف الواقع الإنساني المعروف .

٢- وتجدهم يتنكروا للنعمة أسرع ما كان، كما جرى منهم بعد إنبام الله عليهم بمجاوزتهم البحر وإهلاك عدوهم وهم ينظرون ثم يسألون موسى أن يجعل لهم إلهاً غير الله .

٣- وأحياناً يعبدون عجلاً مصنوعاً من حليهم .

٤- وأحياناً يقولون لموسى ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ^(١) ﴾ .

٥- وتارة يبدلون قولاً غير الذي قيل لهم .

٦- وأحياناً يعتدون في السبب ويتحايلون على الله .

٧- وأحياناً أخرى يتذمرون من الحال التي هم عليها في طعامهم وشرابهم، وأي حال أحسن من حالتهم، - قبحهم الله - وهم يأكلون المن والسلوى، ويشربون من اثنتي عشرة عيناً بدون كلفة ولا زحام من صخرة سخرها الله لهم .

فهذا التلون المتكرر في طعامهم جعلهم يؤكدون لموسى - عليه السلام - أنهم لن يصبروا على هذا النوع من الطعام وأخذوا يطلبون منه البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل .. فعاتبهم موسى - عليه السلام - على هذا التعنت وقال كما جاء في القرآن: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ^(٢) ﴾ فقولهم: ﴿ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ^(٣) ﴾ كما جاء في الآية: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسُهَا وَبَصَلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبُطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ... ^(٤) ﴾ . تؤكد منهم لنفي الصبر الذي يدعوهم موسى - عليه السلام - إليه .

١- البقرة: ٥٥ .

٢، ٣- البقرة: ٦١ .

٤- البقرة: ٦١ .

النوع الثاني: الصبر على ما خالف الهوى:

وهو الذي لا يوافق طبع الإنسان ولا هواه وذلك إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي أو لا يرتبط باختياره كالمصائب ويمكننا تقسيمه إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: الطاعات:

فالعبد يحتاج إلى الصبر عليها، لأن النفس بطبعها -إلا من رحم الله- تنفر عن العبودية. فنجد أن موسى عليه السلام يدعو قومه في حوارهم معهم إلى الصبر على ما يجدونه من فرعون وقومه من تعذيب لأجسادهم وتقتيل لأبنائهم واستحياء نسائهم لأن ذلك يعدّ منهم جهاداً في سبيل الله وصبراً على طاعته، ومن كانت هذه حاله فإن جزاءهم أن الله سيورثهم الأرض ما صبروا على ذلك.

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرَكَ وَالْهَيْكَلُ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ^(١) ﴾

ثانيها: الصبر عن المعاصي:

وما أحوج العبد إلى ذلك فموسى عليه السلام لما ذهب لمناجاة ربه انتكس القوم في غيبته وتركوا عبادة الله ولم يصبروا عليها وتوجهوا بالعبادة إلى حيوان -جماد- صنعوه بأيديهم لا ينفع ولا يضر، فمثل هؤلاء لم يصبروا عن المعصية التي ألفوها في مصر وتأصلت جذورها في أنفسهم فموسى عليه السلام يحاورهم حوار عتاب لعدم صبرهم على عبادة الله حينما تأخر في العودة إليهم: كما جاء في القرآن: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا

١- الأعراف: ١٢٧-١٢٨.

حَسَنًا أَفْطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمُ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي^(١) ﴿١﴾ .

وقوله:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعْجَلْتُمُ أَمْرَ رَبِّكُمْ^(٢)﴾ ﴿٢﴾ .

ثالثها: ما لا يدخل تحت الاختيار كالمصائب مثل موت الأحبة، هلاك الأموال وزوال الصحة وسائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلى المقامات لأن مستنده اليقين . عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله عز وجل بها عنه، حتى الشوكة يشاكها^(٣)» .

١- طه: ٨٣-٨٦ .

٢- الأعراف: ١٥٠ .

٣- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب في المرض - باب أشد الناس بلاءً ٣/٧ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب البر والصلوة باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن ٤/ ١٩٩١ رقم ٢٥٧١ كلاهما من حديث ابن مسعود وأخرجه مسلم ٤/ ١٩٩٢ رقم (٢٥٧٣) من حديث عائشة بلفظه إلا قوله: تصيب فعنده (يصاب بها المسلم) .

المطلب الرابع: موسى -عليه السلام- وخلق الشكر

الشكر هو الثناء على أحد بما أولاه من المعروف^(١)

وقال الجرجاني: (الشكر في اللغة: هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل على النعمة من اللسان والجنان والأركان).

والشكر في الاصطلاح: هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من السمع والبصر وغيرهما إلى ما خلق لأجله^(٢)).

فالشكر إذا ظهر أثر نعمة الله تعالى على لسان عبده ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة.

(والشكر له منزلة رفيعة في الدين، ومكانة مجيدة، ولذلك أمر الله به - كما قال ابن القيم - ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله حارساً وحافظاً لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته)^(٣)).

والقرآن يحدثنا في كثير من آياته بأن الشكر صفة للأنبياء، فهو إذن خلق من أخلاق النبوة يقول الله عز وجل آمراً نبيه باتباع ما جاء به من عند الله وشكره على نعمه:

﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾^(٤).

لاسيما وأن موسى -عليه السلام- قد بُعث في أمة أعطيت من النعم ما لم يعط لأمة غيرها.

١- مختار الصحاح ص ١٦٨ (باب الراء فصل الشين) وانظر المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ٣٢٠-٣١٩/١.

٢- التعريفات ص ١٦٨ - ١٦٩.

٣- تهذيب مدارج السالكين ص ٣٨٣.

٤- الأعراف: ١٤٤.

فالقاريء لكتاب الله عز وجل يرى بوضوح في كثير من سورهِ آياتٍ عديدةً تتحدث باستفاضة عن ألوان النعم التي ساقها الله سبحانه وتعالى لبني إسرائيل فهو يذكر تفضيلهم على العالمين، وإنجاءهم من عدوهم وكثرة الأنبياء فيهم إلى غير ذلك من وجوه النعم، الأمر الذي يحملهم على أن يقوموا بواجب الشكر لخالقهم الذي حباهم بتلك النعم الجليلة وليحذروهم من الوقوع في المعاصي، لأن الوقوع فيها مع توافر النعم بين أيديهم يؤدي إلى العقاب الشديد في الدنيا والآخرة، وليغرس فيهم خلق الحياء والبعد عن المخالفة فإن شعور الإنسان العاقل بمزيد فضل الله عليه يدعوه إلى الاستقامة على أمره وليطمعهم في آلاء أخرى حيث إن تذكيرهم بالنعم السالفة فيه ترغيب بأخرى خالفه متى اتبعوا الصراط المستقيم فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ^(١)﴾ والملاحظ أيضاً أن الله تعالى وهو يتحدث عن مظاهر النعم على بني إسرائيل قد عاقبهم بموقفهم الجحودي فيها وبما ترتب على موقفهم هذا من قصاص عادل يتناسب مع ما اقترفوه من آثام فكانه سبحانه وتعالى يصورهم وهم يمرون بحالات ثلاث:

– حالة المنّ والعطاء.

– وحالة الجحود والإياء.

– وحالة الانتقام والجزاء.

وذلك ليكون في قصصهم عبرةً وعظةً، تهدي الناس إلى أن يقوموا نحو خالقهم بواجب العبادة والشكر حتى لا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل من عقوباتٍ جزاء ظلمهم وتهالكهم على ارتكاب السيئات، وجزاء ما صنعوه مع نبيهم موسى عليه السلام من التعنت والعناد فقد كان عليه السلام يدعوهم دائماً في حوارهم معهم بأن يشكروا نعم الله عليهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ^(٢)﴾ لأن الشكر على النعمة سبب لبقائها وزيادتها ﴿وَإِذْ

١- إبراهيم: ٧.

٢- إبراهيم: ٥.

تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿١﴾

ويمكن تقسيم ألوان النعم التي منحها الله لبني إسرائيل والتي ما فتئ نبيهم موسى عليه السلام يدعوهم إلى شكرها إلى ستة أقسام:

- ١- نعمة تفضيلهم على عالمي زمانهم.
- ٢- نعمة إنجائهم من آل فرعون.
- ٣- نعمة فرق البحر بهم.
- ٤- نعمة إيتاء موسى -عليه السلام- التوراة لهدايتهم.
- ٥- نعمة إغاثتهم بالماء بعد أن اشتد بهم العطش.
- ٦- نعمة تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم وجحودهم بهذه النعم.

١- إبراهيم: ٧.

١ - نعمة تفضيلهم على عالمي زمانهم:

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١) لقد جرت سنة الله عز وجل في القرآن الكريم أن يكرر الجمل المشتملة على أمور تستوجب المزيد من العناية كما في حال ذكر النعم لأن تكرارها يغري النفوس الكريمة بطاعة مرسلها والسير على الطريق القويم.

وقوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٢) عطف على نعمتي، أي واذكروا تفضيلي إياكم على العالمين، وهذا التفضيل نعمة خاصة فعطفه على ﴿نِعْمَتِي﴾ من عطف الخاص على العام للعناية به، وهو -التفضيل- مبدأ تفضيل النعم وتعدادها والمقصود منه الخس على الاتصاف بما يناسب تلك النعم^(٣).

وقد ذكر الله تعالى بني إسرائيل المعاصرين للعهد النبوي بهذه النعم مع أنها كانت لآبائهم كما يدل عليه سياق الآيات لأن النعم على الآباء نعم على الأبناء لكونهم منهم، ولأن شرف الأصول يسري إلى الفروع، فكان التذكير بتلك النعم فيه شرف لهم يغريهم بالإيمان ويعودهم على الطاعة.

ومن مظاهر تفضيل الله لبني إسرائيل على عالمي زمانهم جمعه لهم من المحامد قبل بعثه النبي -عليه الصلاة والسلام- ما لم يجمع لغيرهم فقد حباهم بكثير من النعم، وبعث فيهم عدداً كبيراً من الأنبياء، ونجاهم من عدوهم، ولم يعجل العقوبة عليهم رغم عصيانهم واعتدائهم واقترافهم شتى ألوان المنكرات عن تعمد وإصرار، ولم ينزل بهم قارعة تستأصلهم كما استأصل غيرهم.

لكن بني إسرائيل قابلوا تلك النعم بالجحود والطغيان، ولم يقابلوها بالشكر والعرفان فسلبها الله عنهم ومنحها لقوم آخرين لم يكونوا أمثالهم.

وقد حكى القرآن الكريم ألواناً من النعم التي منحها الله لبني إسرائيل ولكنهم قابلوها بالكفران فأزالها الله عنهم، ومن ذلك مثلاً قوله تعالى:

١، ٢- البقرة: ٤٧ .

٣- انظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ١/ ٢٥٠، تأليف: شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان .

﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَذَابِ وَاللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾^(١).

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴾^(٢).

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾^(٣).

ففي الآيات السابقة تأكيد لما تقدم، إذ جاء فيها التذكير بنعم الله على بني إسرائيل وفي هذا التذكير مطالب وتهديدات منها:

أولاً: أن هذه المكرمة وهذه النعمة التي أكرمهم وخصهم بها من تفضيلهم على عالمي زمانهم وإكرامهم بنعم لم تحصل لغيرهم ينبغي ذكرها وشكرها، فمن شكرها الإيمان بكل نبي يرسله الله، وعلى الأخص خاتم النبيين محمد ﷺ لهداية جميع البشر، فمن ينكر هذه النعمة ويجعلها حجة للإعراض والازدراء بما جاء به فقد كفر بهذه النعمة وكان مستحقاً لمزيد من الحزني والنكال الذي كتبه الله عليهم لما حرفوا وبدلوا.

ثانياً: إن كان هذا الفضل بسبب كثرة الأنبياء فلا مزاحم لهم فيه لكنه فضل إجمالي بحيث لا تقتضي تلك الفضيلة أن يكون كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم، بل ولا تمنع أن يفضلهم أحسن الشعوب إذا انحرفوا عن هدي أنبيائهم واهتدى بهديهم غيرهم.

ثالثاً: إن كان تفضيلهم بالقرب من الله باتباع شرائعه، فالفضل مقصور على المستقيمين منهم على ذلك.

١- البقرة: ٢١١.

٢- الدخان: ٣٠-٣٢.

٣- الجاثية: ١٦-١٧.

رابعاً: إنهم ليسوا بأفضل من أمة محمد ﷺ على الإطلاق لورود النصوص بفضل هذه الأمة وخيريتها مادامت مستقيمة على عناصر الفضل والخير.

قال الإمام الرازي - رحمه الله - في تفسيره:

(فإن قيل: إن تفضيلهم على العالمين يقتضي على أمة محمد وهذا باطل فكيف

الجواب؟

قلنا: الجواب من وجوه وأقربها إلى الصواب أن المراد: فضلتكم على عالمي زمانكم وذلك لأن الشخص الذي سيوجد بعد ذلك، وهو الآن ليس بموجود لم يكن ذلك الشخص من جملة العالمين حال عدمه، وأمة محمد ﷺ ما كانت موجودة في ذلك الوقت فلا يلزم من كون بني إسرائيل أفضل من العالمين في ذلك الوقت أنهم أفضل من الأمة المحمدية، وهذا هو الجواب أيضاً عن قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلْنَا فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلْنَاكُمْ مَلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾^(١) وعن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) وعلى هذا ينقطع حبل بطلان دعوى اليهود في هذه الآونة أنهم شعب الله المختار استناداً إلى هذه الآية الكريمة وأمثالها لأنها دعوى لا تؤيدها النصوص، ولا يشهد لها العقل السليم^(٣).

١- المائدة: ٢٠.

٢- الدخان: ٣٢.

٣- مفاتيح الغيب ٥٢/٣.

٢- نعمة إنجائهم من آل فرعون:

ذكر الله تعالى بني إسرائيل بنعمة جليلة الشأن ألا وهي نعمة إنجائهم من عدوهم فقال

تعالى:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(١)

فهنا يذكرهم سبحانه وتعالى بالوقت الذي نجاهم فيه من آل فرعون الذين كانوا يعذبونهم أشد العذاب وأشقّه وأصعبه، ويبغونهم ما فيه إذلال لهم واستئصال لأعقابهم وامتهان لكرامتهم، حيث يزهقون أرواح ذكورهم، ويتركون نفوس نساءهم وفي ذلكم العذاب والنجاة منه امتحان لهم بالسراء ليشكروا، وليقلعوا عن السيئات التي تؤدي بهم إلى الإذلال في الدنيا والعذاب في الآخرة.

قال الرازي - رحمه الله - في تفسيره ما ملخصه:

(واعلم أن الفائدة في ذكر هذه النعمة وجوه عدة أهمها:

١- أن هذه الأشياء التي ذكرها الله تعالى لما كانت من أعظم ما يمتحن به الناس من جهة الملوك والظلمة صار تخلص الله عز وجل لهم من هذه المحن من أعظم النعم وذلك لأنهم عاينوا هلاك من حاول إهلاكهم، وشاهدوا ذلّ من بالغ في إذلالهم، ولا شك في أن ذلك من أعظم النعم.

وتعظيم النعمة يوجب الانقياد والطاعة وتقتضي نهاية قبح المخالفة والمعاندة فلهذا السبب ذكر الله هذه النعمة العظيمة ليلزمهم الحجة وليقطع عذرهم.

٢- أنهم لما عرفوا أنهم كانوا في نهاية الذل وكان خصمهم في نهاية العز إلا أنهم كانوا محقين وكان خصمهم مبطلاً لا جرم زال ذل المحقين، وبطل عز المبطلين فكأنه تعالى يقول لهم: لا تغتروا بكثرة أموالكم، ولا بقوة سلطانكم ولا تستهينوا بالمسلمين لقلة ذات

١- البقرة: ٤٩.

يدهم فإن الحق إلى جانبهم ومن كان الحق إلى جانبه فإن العاقبة لا بد أن تكون له^(١).
وجعلت النجاة في الآية الكريمة من آل فرعون ولم تجعل منه مع أنه الأمر بتعذيب بني إسرائيل للتنبية على أن حاشيته وبطانته كانت عوناً له في إنزال سوء العذاب وأنواع الإذلال والتنكيل بهم.

يقول الآلوسي^(٢) - رحمه الله -:

(وجعلت الآية الكريمة استحياء النساء عقوبةً لبني إسرائيل، وهو في ظاهره خير لأن الإبقاء عليهن كان المقصود منه الاعتداء على أعراضهن، واستعمالهن في الخدمة وإذلالهن بالاسترقاق فبقاؤهن كذلك بقاء ذليل وعذاب أليم تأباه النفوس الكريمة والطباع الطيبة^(٣)).
وقال الإمام الرازي - رحمه الله - في ذكر ذبح الذكور دون النساء الإناث مضرّة من وجوه:

(أحدها: أن ذبح الأبناء يقتضي فناء الرجال، ومن ثم انقطاع النسل، وهذا يفضي في نهاية الأمر إلى هلاك الرجال والنساء جميعاً.

ثانيها: أن هلاك الرجال يقتضي فساد مصالح النساء في أمر المعيشة.

ثالثها: أن قتل الولد بعد الحمل الطويل ومكابدة آلام الولادة من أعظم العذاب فنعمة الله في تخليصهم من هذه المحنة كبيرة تستحق الشكر والاعتراف.

رابعها: أن بقاء النساء دون الذكور يؤدي إلى صيرورتهم مستفرشات الأعداء وذلك نهاية الذل والهوان^(٤).

١- مفاتيح الغيب ١/٦٩-٧٠.

٢- هو محمود بن عبدالله الحسيني الآلوسي (شهاب الدين، أبو الثناء) مفسر، محدث، فقيه، أديب، لغوي، نحوي ولد في بغداد سنة ١٢١٧هـ وتقلد الإفتاء فيها ثم عزل وسافر إلى الموصل، فالقسطنطينية ثم عاد إلى بغداد وتوفي بها سنة ١٢٧٠هـ من تصانيفه: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الأجوبة العراقية والأسئلة الإيرانية، وحاشية على شرح القطر في النحو، (انظر معجم المؤلفين ١٢/١٧٥، وانظر الأعلام ٨/٥٣).

٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ١/١٢٩.

٤- مفاتيح الغيب ١/٦٨.

هذا وقد تكرر تذكير بني إسرائيل بنعمة إنجائهم من عدوهم في مواضع متعددة من القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(١).

وقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَخَيْنَاكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ فَقَدْ هَوَىٰ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾^(٢).

١- الأعراف: ١٤١.

٢- طه: ٨٠-٨٣.

٣- نعمة فرق البحر بهم:

ذكرهم الله سبحانه وتعالى بعد ذلك بنعمة ثلاثة عظيمة حصل بها تمام الإنجاء وتجلي فيها إكرام الله لهم وهي نعمة فرق البحر بهم فقال عز وجل: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا^(١) بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ^(٢)﴾

فقوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ^(٣)﴾ بيان للمنة العظمى التي امتن بها عليهم والتي ترتبت على فرق البحر لأن فرق البحر لهم ترتب عليه أمران:
١- نجاتهم.

٢- إهلاك عدوهم وكلاهما نعمة عظيمة.

واقترنت الآية الكريمة هنا على ذكر إغراق آل فرعون أي جنده وأنصاره وصرحت آيات أخرى بغرقه مع آله ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ^(٤)﴾ وقوله: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا^(٥)﴾.

وهذا من تمام النعمة أن الله تعالى أهلك مع فرعون كل مناصره. ولا شك في أن مشاهدة المنعم عليه للنعمة فيها لذة كبرى ورؤيته لهلاك عدوه فيها عبرة عظيمة فقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ^(٦)﴾ أي وأنتم تشاهدون بأعينكم لأن ذلك أدعى لليقين بهلاك عدوكم وأبلغ في الشماتة به، فمعاناة بني إسرائيل لانفلاق البحر فيها تقوية لإيمانهم وتثبيت ليقينهم إذا كانوا ممن يحسنون الانتفاع بما يشاهدون.

قال الإمام الرازي - رحمه الله-:

(اعلم أن هذه الواقعة تتضمن نعماً كثيرة على بني إسرائيل في الدين والدنيا:

١- قال الراغب: الفرقُ يقارب الفلقُ لكن الفلقُ يقال اعتباراً بالانشقاق، والفرقُ يقال اعتباراً بالانفصال (انظر المفردات في غريب القرآن ص ٣٧٧).
٢، ٣- البقرة: ٥٠.
٤- الذاريات: ٤٠.
٥- الإسراء: ١٠٣.
٦- البقرة: ٥٠.

أما نعم الدنيا فمن ثلاثة وجوه:

أولها: أنهم لما اقتربوا من البحر أصبحوا في موقف حرج لأن فرعون وجنوده من ورائهم، والبحر أمامهم قد سد عليهم كل طريق ومخرج، وأصبح هلاكهم عند عدوهم مستيقناً، فمن لم يهلكه عدوه أهلكه البحر الذي أمامهم، فلا خوف أعظم من خوفهم، بل ولا يأس أعظم من يأسهم، فَلَطَفَ اللهُ بهم في أخرج الشدائد وأبدل خوفهم أمناً وحننهم وكربتهم فرحاً وسروراً.

ثانيها: طمأنهم وأكمل أمنهم بإهلاك عدوهم وهم ينظرون مشاهدة العين إذ لو أُخبروا بهلاكه ما صدقوا، ولعب عليهم الشيطان بتخويفه فأكمل الله عليهم نعمته بإشهادهم لهلاكه حتى لا يبقى فيهم شيء من الخوف أبداً، فيستيقنوا الخلاص من ورطته بإغراق الله لآل فرعون وهؤلاء ينظرون.

ثالثها: أن الله أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وكنوزهم ونعمتهم التي كانوا فيها فاكهين، كما قال تعالى: ﴿وَنَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(١) وهذا من تمام النعمة وظهور الكرامة لو أنهم يقدرون الله حق قدره.

وأما نعم الدين فمن وجوه ثلاثة أيضاً:

أولها: أن قوم موسى -عليه السلام- لما شاهدوا تلك المعجزة الباهرة المنقطعة النظير زالت عنهم الشكوك وتذكروا جواب موسى لهم، إذ قالوا: ﴿أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

ثانيها: أنهم لما شاهدوا ذلك صار داعياً لهم إلى الثبات على تصديق موسى -عليه السلام- والانقياد له، كما صار داعياً لمن بقي من قوم فرعون إلى تكذيبه والكفر به والإيمان بموسى عليه السلام.

١- القصص: ٥ .

٢- الأعراف: ١٢٩ .

ثالثها: أنهم عرفوا أن الأمور بيد الله، حيث لا يوجد عز ولا تسلط أعظم مما عند فرعون ولا ذلة ولا هوان أعظم مما أصاب بني إسرائيل، فقلب الله حال فرعون إلى أشنع حالة، وقلب حال بني إسرائيل إلى عز وسعادة وهذا يوجب انقطاع قلب المؤمن من بهرج الحياة الدنيا وتعلقه بالله^(١).

ونعمة فرق البحر لبني إسرائيل وإنجائهم من عدوهم قد تكرر ذكرها في القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزَلَّفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴾^(٢).

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت بني إسرائيل بنعمة من أجل النعم عليهم وهي نعمة فرق البحر لهم لكي يشكروا خالقهم عليها ويتبعوا نبيه محمداً ﷺ إذا ظهر فيهم ولكنهم ما قاموا بواجب الشكر لخالقهم فحقت عليهم اللعنة في الدنيا، والعقوبة في الآخرة جزاء جحودهم وطغيانهم وما ربك بظلام للعبيد.

١- مفاتيح الغيب ٣/ ٧١-٧٢.

٢- الشعراء: ٦١-٦٦.

٤- نعمة إيتاء موسى - عليه السلام - التوراة لهدايتهم:

أوصى الله عز وجل موسى عليه السلام أن يصعد الجبل وحده ويمكث به ثلاثين ليلة حتى يزداد صفاء نفسه، ويكمل استعداده لتلقي الرسالة ثم أتمها بعشر ليالٍ فتم ميقات ربه أربعين ليلة... وبعد تمام الأربعين كلم موسى ربه^(١).

ونحن نعرف من القرآن أن الله لا يكلم أحداً إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه.. يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾^(٢).

ونعرف أيضاً من القرآن الكريم أن الله كلم موسى - عليه السلام - تكليماً: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِماً﴾^(٣).

فنفهم من هذه الآيات أن الله لم يكن يكلم موسى عن طريق رسول أو عن طريق الوحي إنما كلمه مباشرة من وراء حجاب.

وبعد كلام الله عز وجل لموسى - عليه السلام - جاء طلب الرؤية من موسى - عليه السلام - قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾^(٤) ولكن الله رد عليه لحكمة أرادها بقوله: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾^(٥) فخر موسى مغشياً عليه كما يخر من أخذته الصاعقة، وذلك لخوفه مما أصاب الجبل من زلزال عنيف ودكٍ مخيف وبعد أن أفاق موسى - عليه السلام - مما هو فيه أعلن توبته مما طلب مع أن ذلك ليس بمعصية، ولكنه عرف أن مطلبه هذا بعيد المنال في الدنيا.

١- انظر تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ص ٢٢٢ تأليف: د. محمد الطيب النجار، الناشر: دار الاعتصام بمصر.

٢- الشورى: ٥١.

٣- النساء: ١٦٤.

٤، ٥- الأعراف: ١٤٣.

فكلمه ربه عز وجل مباشرة من دون واسطة ملك فقال له: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(١).

والمقصود برسالات الله في الآية أسفار التوراة التي نزلت في الألواح وذكروا أن أهم الوصايا التي تضمنتها تلك الألواح هي تلك الوصايا العشر التي تضمنتها الآيات الكريمة في سورة الأنعام. قال تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢)

فإرسال التوراة إلى بني إسرائيل تعدّ نعمة عظيمة لأن فيها صلاح أمورهم وانتظام شؤونهم ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾^(٣) لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٤).

قال الإمام الطبري - رحمه الله -:

(وأولى الأقوال بتأويل الآية أن الفرقان الذي ذكره الله تعالى أنه آتاه موسى عليه السلام

١- الأعراف: ١٤٤.

٢- الأنعام: ١٥١-١٥٣.

٣- قال الراغب: الفرقان كلام الله تعالى لفرقه بين الحق والباطل في الاعتقاد والصدق والكذب في المقال والصلاح والطالح في الأعمال، وذلك في القرآن والتوراة والإنجيل قال تعالى ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ البقرة: ٥٣، (المفردات في غريب القرآن ص ٣٧٨).

٤- البقرة: ٥٣.

في هذا الموضوع هو الكتاب الذي فرق به بين الحق والباطل وهو نعت للتوراة وصفة لها فيكون تأويل الآية حينئذٍ:

وآتيناً موسى التوراة التي كتبناها له في الألواح وفرقنا بها بين الحق والباطل، فيكون الكتاب نعتاً للتوراة أقيم مقامها استغناءً به عن ذكر التوراة ثم عطف عليه بالفرقان إذ كان من نعتها^(١).

فإيتاء موسى التوراة كان المقصود منه هدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور . . ولكن ما هو موقفهم من هذه التوراة التي أنزلت لهدايتهم؟ لقد كان موقفهم موقف المعاند الجاحد لنعم الله . . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تطاولت أيديهم على هذا الكتاب فحرفوه وبدلوه حسبما يوافق أهواءهم . . فوبخهم القرآن الكريم وشنّع بصنيعهم، ووصفهم في عدم انتفاعهم بهذا الكتاب بالحمّار الذي يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها .

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾^(٢) بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ^(٣) .

شبه الله تعالى اليهود في عدم إنتفاعهم بالتوراة وهم حملتها وحفاظها بالحمّار الذي يحمل الأسفار فلا يحس إلا بما يمر بجنبه وظهره من الكد والتعب وكل من علم ولم يعمل فهذا مثله وبئس المثل^(٤).

قال ابن القيم - رحمه الله -:

(قاس من حمل سبحانه كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعوا إليه ثم خالف ذلك

١- جامع البيان في تفسير القرآن ١/ ٢٢٦ .
٢- الأسفار: جمع سفر وهو الكتاب الذي يسفر عن الحقائق، وخص لفظ الأسفار في سورة الجمعة تنبيهاً أن التوراة وإن كانت تحقق ما فيها، فالجاهل لا يكاد يستبينها كالحمار الحامل لها (انظر المفردات في غريب القرآن ص ٢٤٣) .
٣- الجمعة: ٥ .
٤- انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٠٣ .

ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقرأه بغير تدبير ولا تفهّم ولا اتباع له ولا تحكيم له ولا عملٍ بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها وحظه منها حملها على ظهره .. فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤد حقه ولم يرعه حق رعايته (١).

ومن هنا نرى أن الله قد أنعم على اليهود بالتوراة وجعلها نوراً وهدى لهم، ولكنهم تركوها ولم يعملوا بما فيها واستحبوا العمى على الهدى فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين.

١ - انظر التفسير القيم ص ٤٩٣، تأليف الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية جمعه محمد إدريس الندوي حقه: محمد حامد الفقي الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٥- نعمة إغاثتهم بالماء بعد أن اشتد بهم العطش:

تعد هذه النعمة من أعظم النعم على بني إسرائيل في دينهم ودنياهم، فأما الدين فلأنها من أظهر الأدلة على وجود الله وعلى قدرته وسرعة رحمته بعباده سبحانه وتعالى: حيث فجر لهم ماءً كافياً لجميع أسباطهم من صخرة صماء يابسة، ولو كانت رطبة لما صح في الحسبان أن يعتصر منها قدرٌ قارورة، فكيف وهي يابسة للغاية، كما أنها من أقوى البراهين على صدق موسى -عليه السلام- في نبوته.

وأما كون هذه النعمة من أعظم نعم الله في الدنيا فلأن حياة كل شيء متوقفة على الماء لاسيما بني إسرائيل الذين عطشوا في التيه فساورهم الهلع والقلق وأخذوا يتذكرون مياه مصر المتدفقة ويلومون موسى على إخراجهم منها.

ولكن عناية الله بهم كانت لا تدع لديهم فرصة لليأس والقنوط، بل إن الله عز وجل يبادرهم بما يحتاجون بمجرد حاجتهم إليه قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٢).

لقد لجأ موسى -عليه السلام- إلى ربه يسأله الماء لما اشتد العطش على بني إسرائيل وهم في التيه فأغاثهم الله به، ولكن بطريقة فيها زيادة تركيز للعقيدة وتثبيت للإيمان، فهو سبحانه قادر على إنباع الماء من الأرض وتشعبه لهم اثنتي عشرة عيناً، ولكنه أغاثهم بطريقة فيها معجزة أبلغ بكثير من ذلك: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾^(٣).

والعصا هي عصاه المعروفة التي يتوكأ عليها والتي لما شاء الله انقلبت ثعباناً مبيناً، فلا يجوز الالتفات إلى ما قيل في طولها مادام القرآن نصَّ على أنه يتوكأ عليها، لأن ما يتوكأ عليه الإنسان فهو أصغر من قامته وكذلك الحجر المضروب لم يعينه القرآن فلا يجوز لنا أن نعتمد على روايات إسرائيلية في وصفه، وإنما يلاحظ من نظم القرآن الكريم أن اللام في الحجر إما للعهد أو للإشارة

١- استسقى: الاستسقاء طلب السقيا أو الاسقاء عند عدم الماء أو حبس المطر، ويكون ذلك عن طريق دعاء الله في خشوع، (انظر المفردات في غريب القرآن ص ٢٣٦).

٢، ٣- البقرة آية ٦٠.

إلى شيء معلوم يعرفه موسى -عليه السلام- وليس لدينا ما يدلنا على معرفته .

ولكن بما أنه يجوز أن تكون اللام هنا للجنس فالتفسير بها أولى لأنه أبين في الحجة وأظهر لقدرة الله، فكأنه سبحانه وتعالى قال لموسى: ﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾^(١) أي حجر تراه، ذلك أن موسى لو خصص حجراً معيناً لاعتقدوا أن له مزية وتأثيراً، لأنهم حديثو عهد بجاهلية شنيعة ثم إن المتأمل لقوله ﴿ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾^(٢) .

يجد أن تقسيم الماء بين الأسباط لكل سبط عين خاصة كان لحكمة عظيمة، وهي أنهم كثيرون، ومن عادة الكثير في الناس إذا اشتدت بهم الحاجة إلى الماء ثم وجدوه أن يقع بينهم زحام يوجب التشاجر والتناحر المفضي إلى التطاحن في القتال، فأكمل الله نعمته بهذا التقسيم الذي جعل لكل بطن من بطونهم عيناً خاصة لا يختلط معه غيره، وبهذا لا يحصل من أثر الزحام فتنة، بل قد لا يحصل بينهم ما يعتبر زحاماً .

إذن فهذه النعمة التي منحهم الله إياها حوت خمس أنواع من المعجزات :
إحداها : أن نفس ظهور الماء معجزة .

وكون خروجه من حجر صغير معجزة ثانية .

وخروج الماء على قدر حاجتهم معجزة ثالثة .

وكون خروجه عند ضرب الحجر بالعصا معجزة رابعة .

ثم انقطاع الماء عند الاستغناء عنه معجزة خامسة فهذه معجزات حصلت بقدره الله التامة مع بني إسرائيل تستحق الشكر لله عز وجل .

١- البقرة: ٦٠ .

٦- نعمة تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى لهم وجودهم بهذه النعم:

هذه نعمة أخرى بل نعمتان إن صح التعبير: نعمة تظليلهم بالغمام، ومنحهم المن والسلوى وهاتان معطوفتان على نعمة بعثهم من بعد موتهم.

قال تعالى: ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ^(١) وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ^(٢) وَالسَّلْوَى^(٣) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ^(٤)﴾.

وتظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم كان في مدة تيههم بين مصر والشام المشار إليه بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ^(٥)﴾.

قال السُّدِّيُّ -رحمه الله-:

(لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى -عليه السلام- كيف لنا بما ههنا أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن فكان ينزل على شجرة الزنجبيل والسلوى طائر يشبه السماني أكبر منه فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير فإن كان سميناً ذبحه وإلا أرسله فإذا سمن آتاه فقالوا:

هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر الله تعالى موسى -عليه السلام- أن يضرب بعصاه الحجر فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب فأين الظل؟ فظلل الله عليهم الغمام فقالوا هذا الظل فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتمزق لهم ثوب.

١- الغمام: الغم ستر الشيء ومنه الغمام لكونه ساتراً لضوء الشمس وخصه بعض العلماء بالسحاب الأبيض، (انظر نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن ص ٣٤٢ وانظر المفردات في غريب القرآن ص ٣٦٥).

٢- المن: مادة صمغية تسقط في السحر على الشجر تشبه حلاوته حلاوة العسل وقيل المن: الترنجيبين وهو ظل يقع من السماء يشبه العسل (انظر نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز ص ٣٩٤).

٣- السلوى: أصل السلوى من التسلي، يقال سليت عن كذا وسلوت عنه وتسليت إذا زال عنك محبته. والسلوى طائر بري يشبه السماني لا واحد له. (انظر نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز ص ٢٦١ وانظر المفردات في غريب القرآن ص ٢٤١).

٤- البقرة: ٥٧.

٥- المائدة: ٢٦.

فذلك قوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾^(١) ﴿٢﴾ .
 فالآية الكريمة قد أشارت إلى جحودهم النعمة بقوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا
 أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾^(٣) وقوله: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ معطوف على محذوف أي فعصوا ولم
 يقابلوا النعم بالشكر والتعبير عن ظلمهم لأنفسهم بكلمة كانوا والفعل المضارع ﴿ يَظْلِمُونَ ﴾
 يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان يتكرر منهم .

قال الإمام الطبري -رحمه الله- في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن
 كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾^(٤) :

(هذا من الذي استغنى بدلالة ظاهرة على ما ترك منه وذلك أن معنى الكلام كلوا من
 طيبات ما رزقناكم، فخالفوا ما أمرناهم به وعصوا ربهم ثم رسولنا إليهم وما ظلمونا فاكتمى بما
 ظهر عما ترك . وقوله: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ أي وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع
 مضرة علينا ومنقصة لنا ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرة عليها ومنقصة لها فإن الله
 تعالى لا تضره معصية عاص ولا تنفعه طاعة مطيع ولا يزيد في ملكه عدل عادل^(٥) .

هذا ونعمة تظليل بني إسرائيل بالغمام قد تكررت في القرآن الكريم ومن ذلك قوله
 تعالى: ﴿ وَقَطَعْنَا لَهُمْ آسَاطًا ﴾^(٦) أُمَّمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ
 اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا
 عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن
 كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾^(٧) .

ولكن بني إسرائيل هم بنو إسرائيل لم يشكروا الله على نعمه بل انساقوا وراء شهواتهم
 وأهوائهم .

١- البقرة: ٥٧ .

٢- تفسير القرآن العظيم ١/ ٩٧ .

٣- البقرة: ٥٧ .

٤- جامع البيان في تفسير القرآن ١/ ٢٣٧ .

٥- الأسباط: واحد من سبط، وهم اثنا عشر سبطاً من اثني عشر ولداً ليعقوب -عليه السلام- وإنما سموا هؤلاء
 بالأسباط وأبناء إسماعيل بالقبائل ليفصل بين ولد إسماعيل وولد إسحاق عليهم السلام (انظر نزاهة القلوب في تفسير
 القرآن العزيز ص ٦٢) .

٦- الأعراف: ١٦٠ .

قال تعالى حكاية عنهم:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ
الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا^(١) وَقِثَّائِهَا^(٢) وَفُومِهَا^(٣) وَعَدْسَهَا وَيَصْلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ
بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا
بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بَأْنَهُمْ كَانُوا يُكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا
عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ^(٤)﴾.

قال الإمام الطبري - رحمه الله - في تفسيره:

(وكان سبب مسألتهم موسى - عليه السلام - ذلك فيما بلغنا عن قتادة أنه قال كان
القوم في البرية ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى، فملوا وذكروا عيشاً كان لهم
بمصر فسألوا موسى فقال الله لهم: ﴿أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾^(٥)﴾^(٦)

وقال الحسن البصري: (بطروا طعم المن والسلوى فلم يصبروا عليه وذكروا عيشهم
الذي كانوا فيه وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقل وفوم^(٧)) .

وفي الآية إشعار بسوء أدبهم في حوارهم لنبيهم موسى - عليه السلام - إذا عبروا عن
عدم رغبتهم في تناول المن والسلوى بحرف (لن) المفيد للنفي . ووصفوا هذا الطعام
بالوحدة مع أن المن والسلوى نوعان وإنما أرادوا من الوحدة أنه طعام متكرر في كل يوم لا
يختلف بحسب الأوقات، والعرب تقول لمن يجعل على مائدته في كل يوم ألواناً من الطعام
لا تتغير أنه يأكل من طعام واحد .

١- البقل: قال الراغب: ما لا ينبت أصله وفرعه في الشتاء وهو كل نبات إذا رُعي لم يبق له ساق (انظر نزهة القلوب
في تفسير القرآن العزيز ص ١٣٧ وانظر المفردات في غريب القرآن ص ٥٦-٥٧) .

٢- القثاء: نوع من المأكولات أكبر حجماً من الخيار وشكله يشبه الكوسا وتسميه العامة بالطرح .

٣- الفوم: الحنطة وقيل هو الثوم وقال السجستاني: فومونا: أي اختبزوا لنا ويقال الفوم الحبوب كلها (نزهة القلوب
في تفسير القرآن العزيز ص ٣٥٨) .

٤، ٥- البقرة: ٦١ .

٦- جامع البيان في تفسير القرآن ١/ ٢٤٥ .

٧- تفسير القرآن العظيم ١/ ١٠١ .

كما أن قولهم ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾^(١) يعبر أيضاً عن سوء أدبهم مع الله وتعاضمهم على موسى - عليه السلام - وكان الله ربُّ له من دونهم، أو كأنه محسنٌ إليه لا محسنٌ إليهم، فخطيئتهم هذه مركبة من عدة أمور توجب سخط الله عليهم، لأنه يعلم خبايا نفوسهم.

ثم إن طعامهم لو كان غير هذا الطعام، ومنطقهم غير هذا المنطق لكان لهم عذر وشأن غير هذا الشأن، ولكن طعامهم من أشهى الأطعمة وألذها وأحسنها عاقبة فهو (المن) الذي تحبه كل الطباع السليمة، و (السلوى) التي هي من أحسن الطيور وفيهما غذاء كامل ولذة خارقة لا يحصل عشر معشارها فيما طلبوه من البقول والقثاء.

وقولهم: ﴿يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾^(٢).

هو مضمون ما طلبوه من موسى - عليه السلام - فعاتبهم موسى عليه السلام على استبدالهم المن والسلوى بالفوم والعدس فقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾^(٣) وأصل معنى الأدنى في اللغة - الأقرب - ثم استعمل للأخس الدون.

فجعل طلبهم البقول والقثاء والبصل والثوم بدلاً من المن والسلوى استبدالاً للطيب الأعلى لذة وعاقبة بالأخس الأدنى لذة وعاقبة.

فقال لهم إذا كان هذا مطلبكم فاهبطوا مصرًا فإن فيه ما سألتم وما طلبتم واختلفوا في المقصود بمصر فمنهم من قال:

١- إنه اسم لمصر من الأمصار غير معين على قراءة التنوين.

٢- ومنهم من قال إنه البلد الذي يعرف بهذا الاسم وهو مصر فرعون^(٤).

١- البقرة: ٦١.

٢، ٣- البقرة: ٦١.

٤- انظر جامع البيان في تفسير القرآن ١/ ٣٨٤.

ويرى ابن كثير - رحمه الله - أنه مكان غير معين وأن موسى لم يسأل ربه إجابة طلبهم لأنهم كانوا متعنتين بطرين والله تعالى يكره من كان كذلك^(١) وإن قول موسى - عليه السلام - ﴿ اِهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَاءً سَأَلْتُمْ ﴾^(٢) من باب التوبيخ والتجهيل لهم إذ ليس حولهم حينئذ بلد قريب يستطيعون الوصول إليه .

ثم بين الله سبحانه وتعالى العقوبات التي حلت بهم جزاء ظلمهم وفجورهم وعدم شكرهم لنعم الله فقال تعالى: ﴿ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾^(٣) .

ضرب الذلة والمسكنة كناية عن لزومها وإحاطتها بهم كما يحيط السوار بالمعصم قال الزمخشري - رحمه الله - في تفسيره:

(جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم فهم فيها كما يكون في القبة من ضربت عليه أو ألصقت، بهم حتى لزمتهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه، فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة^(٤)) .

والمراد بالمسكنة في الآية الضعف النفسي والفقر القلبي الذي يستولي على الشخص فيجعله يحس بالهوان مهما تكن لديه من أسباب القوة .

والفرق بينهما وبين الذلة أن الذلة تجيء أسبابها من الخارج كأن يغلب المرء على أمره نتيجة انتصار عدوه عليه فيذل لهذا العدو .

أما المسكنة فهي هوان ينشأ من داخل النفس نتيجة بعدها عن الحق، واستيلاء المطامع والشهوات عليها، وتوارث الذلة قروناً طويلة يورث هذه المسكنة وقد عاش اليهود قروناً وأحقاباً مستعبدين لمختلف الأمم فأكسبهم هذا الاستعباد ضعفاً نفسياً جعلهم لا يفرقون بين

١- تفسير القرآن العظيم ١/١٠٢-١٠٣ .

٢، ٣- البقرة: ٦١ .

٤- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ١/٢٨٥ .

الحياة الذليلة والكريمة بل إنهم ليفضلون الأولى على الثانية ما دامت تجلب لهم غرضاً من أغراض الدنيا .

وعلى هذا نقول: إن هذه النعم الجليلة التي حباها الله لبني اسرائيل كان من الواجب عليهم أن يقابلوها بالشكر والعرفان، ولكنهم - كما رأينا من خلال آيات القرآن الكريم- قابلوها بالجحود والنكران والبطر فكانت النتيجة أن سلبها الله عنهم وعاقبهم الله جزاء ما اقترفت أيديهم وما ظلمناهم ولكن أنفسهم يظلمون .

المطلب الخامس: موسى -عليه السلام- وخلق الصدق

تبدو لنا حاجة المجتمع الإنساني إلى خلق الصدق، حينما نلاحظ أن شطراً كبيراً من العلاقات الاجتماعية، والمعاملات الإنسانية، تعتمد على صدق الكلمة، فإذا لم تكن الكلمة معبرة تعبيراً صادقاً عما في نفس قائلها، لم نجد وسيلة أخرى كافية تعرف فيها إرادات الناس، ونعرف فيها حاجاتهم، ونعرف فيها حقيقة أخبارهم.

والصدق في اللغة: من صدقت القوم أي قلت لهم صدقاً، والصدق بالكسر والفتح ضد الكذب^(١)، وقد صدّق في الحديث يصدق بالضم صدقاً، والمصدق، الذي يصدقك في حديثه^(٢)

ورجلٌ صدوق أبلغ من الصادق، والصدّيق: الدائم التصديق وهو الذي يصدق قوله بالعمل^(٣)، وفي التنزيل ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾^(٤)، أي مبالغة في الصدق.

والصدق في الاصطلاح: هو قول الحق في مواطن الهلاك وقيل: الصدق ضد الكذب وهو الإبانة عما يخبر به على ما كان^(٥)

وقد أفاض الإمام ابن القيم -رحمه الله- في الحديث عن الصدق ومعانيه حيث قال (هو الذي تنشأ منه جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه، الذي ما وضع على شيء إلا قطعته، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرّعه، من صال به لم تردّ صولته، ومن نطق به علت على الخصم كلمته، فهو روح الأعمال،

١- القاموس المحيط ٣/ ٢٦١، فصل الشين والصاد، باب القاف.

٢- مختار الصحاح ص ٣٥٣، فصل الصاد باب القاف.

٣- لسان العرب ١٢/ ٦، فصل الصاد، حرف القاف.

٤- المائدة: ٧٥.

٥- التعريفات ص ١٧٤

ومحكُّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال . وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجنات تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومعين^(١) .

ولجلال مكانة (الصدق) وعلو شأنه ذكر القرآن الكريم اتصاف الله تبارك وتعالى بصفة الصدق في مواطن كثيرة كقوله تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ^(٢) ﴾ وقوله: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ^(٣) ﴾ وقوله أيضاً: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ^(٤) ﴾ .

وكذلك نجد أن القرآن يصف رسل الله تعالى -عليهم أفضل الصلاة والسلام- بالصدق، فيقول: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ^(٥) ﴾ .

ويقرر القرآن أيضاً أن الصدق هو صفة الأخيار من عباد الله الصالحين المصلحين، الطائعين المستقيمين فيقول: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ^(٦) ﴾ قوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ^(٧) ﴾ .

وما دام أن الصدق صفة لازمة للرسول وفضيلة قد تحلوا بها منذ الصبا فقد ضربوا بها القدوة المثلى لغيرهم فمن الطبيعي أن يدعوا الناس إليه .

وهذا ما ظهر بالفعل في حوار نبي الله موسى -عليه السلام- حينما اتجه إلى فرعون يدعو إلى عبادة الله وحده، فإن فرعون أخذ يذكره بحادث مقتل القبطي في تهويل وتجسيم

١- تهذيب مدارج السالكين ص ٣٩٥ .

٢- آل عمران : ٩٥ .

٣- النساء : ٨٧ .

٤- النساء : ١٢٢ .

٥- يس : ٥٢ .

٦- البقرة : ١٧٧ .

٧- الحجرات : ١٥ .

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾^(١) غير أن موسى عليه السلام لم يكذب ولم ينكر ذلك الحادث وقد مر عليه زمن طويل ولكنه أقر بخطئه واعترف به في صدق وجرأة:

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾^(٢) أي فعلت تلك الفعل وأنا جاهل لم أكلف بالرسالة بعد.

ثم يؤكد عليه السلام على صدقه فيما يقول في معرض حوارهِ مع فرعون وقومه لإثبات ربوبية الله وألوهيته للعالمين لأنه لا ينبغي لرسول يعلم حقيقة الله أن يقول عليه غير الحق.

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾^(٣) أي قد جئتكم ببينة تدل على صدق ما أقول.

فموسى - عليه السلام - ادعى بأن عنده بينة تدل على صدقه فيما يدعو إليه حيث قال: ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾^(٤) وقيل فرعون عرض هذه البينة حيث قال: ﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾^(٥) وهذا التزام من فرعون بالتصديق عندما يأتي موسى بآية تدل على صدقه^(٦).

وفي آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ لَنْ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴾^(٧) أي ببرهان واضح يدل على صدق رسالتي ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾^(٨) أي إن كنت من الصادقين في دعواك وإن كنت من الصادقين فعلاً في أن لديك شيئاً مبيناً. وهنا يكشف موسى عليه السلام عن معجزتيه

١- الشعراء: ١٨-١٩.

٢- الشعراء: ٢٠-٢١.

٣- الأعراف: ١٠٤-١٠٥.

٤- الأعراف: ١٠٥.

٥- الأعراف: ١٠٦.

٦- مناهج الجدل في القرآن الكريم ص ٢٧٨.

٧- الشعراء: ٢٩-٣٠.

٨- الشعراء: ٣١.

الماديتين اللتين تدلان على صدقه: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ﴾^(١) وقد بهرت هذه المعجزة فرعون وقومه حتى أنهم قالوا إن موسى - عليه السلام - ساحر عليم وظهرت آية موسى لآل فرعون واستيقنتها أنفسهم ولكنهم أرادوا التضليل والتمويه وأخذتهم العزة بالإثم.

وكان قوم فرعون قد اشتهروا بالسحر وأرادوا تجربةً أخرى مع موسى ليظهروا من سحرهم ما يبهر العقول ويأخذ بالألباب وقد فعلوا ذلك كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾^(٢) لقد أنكر فرعون تلك الآيات التي طلبها من موسى - عليه السلام - وقال له: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾^(٣).

إذن فرعون في المقام الأول: طلب آيةً من موسى - عليه السلام - تدل على صدقه إن كان صادقاً وهذا تحدٍ منه لموسى فلما أتى بها موسى صرفها فرعون لمعنى آخر، وادعى أنها سحرٌ اعتمداً منه على سحرته وما لديه من فنون السحر المختلفة ليضلل الناس بذلك. وفي المقام الثاني، ادعى بأنه سيأتي هو وقومه بسحرٍ يغلب ما جاء به موسى وهذا تحدٍ ثانٍ لموسى حتى إن فرعون طلب من موسى - عليه السلام - تحديد الزمان والمكان لتلك المعركة الجدلية^(٤)، إذاً موسى - عليه السلام - صادق فيما يقول عن ربه وصادق فيما وعد القوم به فهو القدوة والمثل الأعلى فيما يدعو إليه من خلق الصدق وغيره. ذلك الصدق الذي جعل السحرة يسجدون لله إيماناً وتصديقاً بما جاء به موسى ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾^(٥).

١- الشعراء: ٣٢-٣٣.

٢- الأعراف: ١١٦.

٣- طه: ٥٧.

٤- انظر المبحث الثاني من الفصل الأول ص ١٦٣.

٥- الشعراء: ٤٥-٤٨.